بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

رواية الأجيال في الأدب العربي الحديث

(١٩)

إعداد

زهير محمود سليمان عبيدات

عميد كلية الدراسات العليا

إشراف

الأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الاردنية

كانون الاول ١٩٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٧ وأجيزت

لجنة المناقشـــة

١. الأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين ..... مشرفا" ورئيسا"

٢. الأستاذ الدكتور محمود السمـرة ..... عضـــوا"

٣. الأستاذ الدكتور احسان عبـاس ..... عضـــوا"

٤. الأستاذ الدكتور محمد شاهيـن ..... عضـــوا"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

رواية الأجيال في الأدب العربي الحديث

إعداد

زهير محمود سليمان عبيدات

إشراف

الأستاذ الدكتور ابراهيم السعافين

قامت هذه الدراسة " رواية الاجيال في الأدب العربي الحديث " على مقدمة ومدخل واربعة فصول وخاتمة .

قدمت في " المدخل" مفهوم الأجيال وأصولها وبعض أعلامها ونماذجها في الآداب الأجنبية وظواهرها الشائعة . وقدمت في الفصل الأول " اجيال في ثلاثية نجيب محفوظ " ثلاثة أجيال فيها من خلال أسرة السيد أحمد المصرية : الأب والابن والحفيد ، وهي رمز المجتمع المصري وصورة عنه تمثل الماضي والحاضر والمستقبل . وتتبعت علاقات افراد الأسرة فيما بينها والقضايا المطروحة . وعرضت في الفصل الثاني " اجيال في العصاد" ثلاثة أجيال فيها من خلال اسرة حلبية في سوريا في النصف الأول من هذا القرن . وفي الفصل الثالث " اجيال في مدن الملح" تعرضت الدراسة الى خماسية عبد الرحمن منيف . فعرضت جيلين من الأسرة الحاكمة ، وسمات كل دولة . والعقلية التي تحكمها وتوجهها . وصورة كل من العربي والأجنبي لدى الآخر وموقف العربي من الجديد والأجنبي ، وتتبعت نمو مدن النفط في الجزيرة العربية ودورد فيها وسائلها المتغيرة الطارئة . وقد سلطت الضوء على الاسرة وعلى المجتمع الاكبر الذي تعيش فيه والقضايا التي كانت مطروحة . وعرضت في الفصل الأخير ظواهر شائعة في رواية الأجيال استخلصها من النماذج العربية التي خضعت لها الدراسة . ووقفت مليا أمام الزمن واثره وصورته وامام المصير والاستمرار وأمام واقعية رواية الجيال . وركزت على حركة تعاقب الاحداث والشخصيات وتلاحمها وبينت أثر الظواهر السابقة في الشخصية الروائية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
قرار اللجنة	ب
الملخص باللغة العربية	جـ
قائمة المحتويات	د
مقدمة	١
مدخل	٦
- في مصطلح الجيل .	٦
- رواية الأجيال في الأدب .	٩
- رواية الأجيال ظواهر فنية .	١٢
الفصل الأول : أجيال في " ثلاثية نجيب محفوظ "	٢٥
الجيل الأول :	
١- ماض ثابت	٢٦
٢- حوار جيلين : الماضي والحاضر .	٣٥
أ) الصراع الأجتماعي (أحمد وابنه ياسين).	٣٥
ب) فهمي وروح الوطن .	٤٢
جـ) الصراع الفكري (احمد وابنه كمال).	٤٩
الجيل الثاني : حاضر متحول	٥٤
١- أسرة ياسين .	٥٤
٢- أسرة خديجة وأسرة عائشة .	٥٨
٣- كمال أزمة جيل.	٦٤
أ) صراع طبقي وثقافي (كمال واسرة آل شداد) .	٦٨
ب) كمال ورياض قلدس .	٧٣
جـ) كمال وفؤاد الحمزاوي .	٧٤
الجيل الثالث : الأحفاد مستقبل وأمل .	٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : أجيال في رواية " العصاد "	٧٩
الجيل الأول : جيل الأب .	٨٠
- الجيل الثاني : جيل الأبناء .	٨١
أ) عمران والماضي والحاضر.	٨١
ب) ابراهيم نموذج الاختلاف الفكري بين جيلين .	٨٢
جـ) سعاد : القديم والجديد .	٨٣
- الجيل الثالث : جيل " العصبة "	٨٥
الفصل الثالث : أجيال في رواية " مدن الملح "	٩٢
أولا - دولة الجيل الأول : دولة السلطان خريبط .	٩٤
أ) حران : البداوة والبداية .	٩٤
ب) موران : الدولة والقبيلة .	٩٨
- مواقف الجيل :	١٠٧
أ) الشرق والغرب .	١٠٧
ب) حاكم ومحكوم .	١١١
ثانيا - دولة الجيل الثاني : قراءة في العقلية .	١١٣
١ - دولة السلطان خزعل وعقلية القبيلة .	١١٣
أ) الحكيم عقل موران .	١١٥
ب) حماد .	١١٩
٢ - المدينة ذاكرة الأجيال .	١٢١
أ) موران ورحلة التحول.	١٢١
ب) حران ورحلة التحول .	١٢٥
٣ - القديم والجديد	١٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع

	الصفحة
٢- دولة السلطان قنر	١٣٠
أ) قنر والغرب .	١٣٠
ب) قنر السلطان : قراءة في العقلية .	١٣٤
جـ) موران ونيران الأزقة الخلفية .	١٣٩
د) موران في الذاكرة .	١٤٧
الفصل الرابع : ظواهر فنية	١٥٢
أولا : الزمان في رواية الأجيال	١٥٣
١- صورة الزمان	١٥٥
٢- الانسان والزمان	١٥٩
- جدلية الانسان والزمن .	١٥٩
- أثر الزمان	١٦١
- وعي الجيل	١٦٤
٣- الخلود .	١٦٦
٤- المصير الانساني .	١٧٠
- الدائرية .	١٧٠
- مصير الدول والحضارات .	١٧٦
- مؤثرات في المصير الانساني	١٧٩
ثانيا : الواقعية في رواية الأجيال	١٨٢
ثالثا : تعاقب وتلاحم	١٩٢
الخاتمة	٢٠٦
المصادر و المراجع	٢٠٧
الملخص باللغة الإنجليزية	٢١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة

دفعتني قلة الدراسات العربية التي تدور حول" جيل "، تدرس من خلاله تحولات المجتمع الحضارية المختلفة ، في حقبة معينة من التاريخ ، الى الكتابة في هذا الميدان . وقد ظهرت في بعض المفاصل التاريخية المهمة في بعض الاقطار العربية روايات صورت تلك المراحل والتحولات ، فكان لا بد من دراسات تتقراها وصداها في الرواية العربية . نقرأ فيها أفكار الاجيال ومعتقداتها ، تتعرف الى قضاياها وهمومها ، الامها وآمالها ، مثلما نرصد فيها اتجاهات التحول الحضارية ومساراتها ، ولقد لفتني بقوة بناء الروايات التي ظهرت في اجزاء ، لماذا بنيت على هذا الشكل المتسلسل؟ وما طبيعة الرباط الذي ينتظمها وما قيمته. فقد وجدت ان كل جزء يشكل مرحلة او حقبة تشكل في مجموعها صورة واضحة عن حركة المجتمع المختلفة الابعاد . أنني أؤمن ايمانا عميقا بأن التجربة الأنسانية ما هي إلا خلاصة جهود أجيال متعاقبة متراكمة ، وقد رغبت ان اكشف عن هذه الأجيال في حقب معينة وعن علاقاتها ودورها في صياغة الحضارة الأنسانية . وقد شكل كل ما سبق بعض مسوغات قيام هذه الدراسة .

ومصطلح " رواية الأجيال" جديد في الرواية العربية ، تعود أصوله الى الأدب الغربي ،مهد تنشأته وازدهاره في هذا العصر عدد من كتاب الرواية في الآداب الأجنبية ، وازدهر في فترة ما بين الحربين ،وصار تيارا عالميا ، اسهم فيه بعض الروائيين العرب بنصيب.

إن " رواية الأجيال" رواية زمن في المقام الأول ، ترصد أثره في أجيال مختلفة ، وفي حركة التغير المختلفة . إنها قراءة في أكثر من جيل ورصد لتحولاتها وعلاقاتها فيما بينها خلال حقبة معينة ، هل هي علاقات صراع أم علاقات امتداد وتواصل؟ ، تعني بمحاور التباين والتمايز مثلما تعنى بنقاط الاتصال والاتفاق.

لم تظفر "رواية الأجيال" بدراسة متخصصة من قبل ، وما حظيت به - في حدود ما أعلم - إشارات سريعة أو دراسات نقدية موجزة ، من مثل ما جاء في دراسة إدوين موير " بناء الرواية" عن رواية الحقبة ، غير أنها لم تحط بأطرافها وتحدد سماتها وملامحها بشكل واضح . فجاءت هذه الدراسة جديدة في موضوعها ، لم تقتف أثار دراسة سابقة أو تهتدي بها ، فقامت بنفسها . أما الروايات التي خضعت لها فقد قامت من حولها دراسات تناولتها من جوانب أخرى . بيد أنها لم تدرس بوصفها " رواية أجيال" بالمفهوم الاصطلاحي الدقيق لهذا اللون من الروايات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ندرة الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع جعلتني أتخذ من النص الروائي اساسا ومنطلقا ومنهجا ،ولهذا اجدني مضطرا الى القول: إن كل راي في هذه الدراسة قد قام من بين يديه عدد وفير من النصوص ، وأن النص هو الذي وجه الدراسة الى ما فيه من آراء وليست الآراء المسبقة هي التي قادت البحث الى النص تفتش عنه تفسره قسرا لما يريد، وأدركت بعدها أنني أتصدى لموضوع بكر ، فكانت هذه الدراسة. وحين وقع اختياري على هذا الموضوع شرعت في البحث عن مفهوم واضح لهذا اللون من الروايات يكون منطلقا لي ، فما عثرت إلا على دراسات قليلة مقتضبة واراء سريعة . و اطلعت على دراسات تناولت نماذجها المعروفة التي تنتمي الى هذا الجنس قرنتها الى ما تجمع بين يدي من تعريفات موجزة لدارسين عرب وروائيين ، مما كون في ذهني صورة واضحة عن هذا المفهوم واطمأننت إليه واستندت عليه وانطلقت منه ، وشرعت أقرأ نصوص الرواية العربية في مختلف الأقطار العربية ، فبدأت بالروايات المتعددة الأجزاء(١) ، بعد أن شاع أنها روايات أجيال ، وتبين لي بعد أن قرأت غالبيتها العظمى قراءة متعمقة أن ليس كل روايةمتعددة الأجزاء هي من هذا الجنس ، وأنه ليس كل رواية موضوعها الأجيال هي كذلك أيضا ، فشجرة البؤس لطه حسين مثلا قامت على جيلين غير أنها لا تنضوي تحتها ، فلرواية الأجيال سمات فنية وظواهر مشتركة تشيع فيها أكثر من غيرها . بعد هذا التطواف الواسع في الروايات العربية استقر اختياري أخيرا على روايات أجيال ثلاث تمثل الرواية العربية في مختلف أماكنها هي : ثلاثية صدقي اسماعيل وثلاثية نجيب محفوظ وخماسية عبد الرحمن منيف ، وتمثل تجارب أجيال في كل من سوريا ومصر والجزيرة العربية في النصف الأول من هذا القرن ، وكانت هذه النصوص هي مصدر الدراسة الأساسي وقد استعنت بالمنهج التحليلي في استخلاص سمات هذا اللون الفنية المشتركة من خلال هذه النماذج ، ووقعت على ظواهرها المتماثلة الشائعة وهي لا تعدو مثيلاتها في الرواية الأجنبية ، مما ساعدني في تحديد مفهوم هذا اللون الذي كان أحد طموحات هذه الدراسة .

تقوم هذه الدراسة على مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة . قدمت في "المدخل" توضيحا لمفهوم "الجيل" مستعينا ببعض الدراسات الاجتماعية . وتتبعت جذور

---

١ – من امثلتها : رباعية اسماعيل فهد اسماعيل وثلاثية هنا مينا وثلاثية سهيل ادريس وثنائية شريف حتاته وثنائية الطاهر وطار ورباعية فتحي غانم وثلاثية محمد ديب ، فضلا عن : ثلاثية صدقي إسماعيل وثلاثية نجيب محفوظ وخماسية عبد الرحمن منيف التي قامت عليها هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية الأجيال في الاداب الأجنبية . ووقفت امام أهم أعلامها ونماذجها وظواهرها الفنية الشائعة التي استخلصتها من الدراسات . وكان ذلك منطلقي النظري اعقبته بدراسة عملية تطبيقية على روايات عربية متعددة الأجزاء لتعميق مفهوم "رواية الأجيال" في ذهن القارئ.

أما الفصل الأول (أجيال في ثلاثية نجيب محفوظ) فقد تناولت فيه بالبحث والدرس ثلاثة اجيال من خلال اسرة السيد احمد المصرية في فترة ما بين الحربين . وكان معياري في تصنيف الأجيال زمانيا : جيل الأب يمثّل وجه الماضي بكل ما يوحي من تقاليد وقيم واسلوب حياة ، جيل الابن يمثّل الحاضر ، وهو مرحلة وسطى متحولة ، اما المستقبل فيمثّله جيل الأحفاد . وعلى هذا النحو إستحالت الأجيال الى صور من وجود الزمان . فقد كشفت الدراسة عن صور الأجيال من خلال التركيز على أفكارها ومظاهر سلوكها وعلاقاتها وما تحرص عليه ، ومن خلال القضايا التي تشغلها . وقدمت صورة الجيل الأول من خلال معتقدات السيد أحمد ، التي كانت شائعة في البيئة التي يعيش فيها جيله والمنحدرة اليه من الماضي ، ومن خلال علاقته بزوجه أمينة وبأفراد عائلته . وقد حرصت على تتبع هذه العلاقة منذ بداياتها الأولى حتى نهاياتها لدى كل فرد ، مما قد يرمي هذه الدراسة بعنايتها بالتفصيلات ، غير أنني كنت مضطرا لذلك ، ذلك أن لكل شكل من أشكال علاقته بأحد أفراد الأسرة مغزى خاص تعكس في مجموعها هموم المجتمع المصري ، اذ مثّلت علاقته بياسين صورة من صور الصراع الاجتماعي، ومثّلت علاقته بكل من كمال وفهمي صورة من صور الصراع الفكري الذي أخذ طابع الصراع بين القديم والجديد او الماضي والحاضر . ثم سلطت الضوء على أفكار الجيل الثاني وهمومه وأشكال سلوكه . وقارنت نموذج الأسرة الجديدة بنموذج اسرة الجيل الأول . وركزت على الظواهر التي اندثرت وتلك التي حملها الجيل الجديد وظلت حيه ترافقه . ووقفت امام التحولات التي طرأت ، من غير أن أنسى صورة المجتمع الاكبر وما حققه من تغيرات .

أما الأحفاد جيل المستقبل والأمل فقد وقفت امام أفكارهم الجديدة وتلمست "الجديد" في مسيرتهم ونزوعهم الى الالتفاف حول مدارس فكرية وسياسية وثقافية كانت بمثابة ثورة على ما سبقها . وقد ركزت هذه الدراسة على قضايا الجيل الخاصة وعلى القضايا المصيرية التي يلتقي حولها أكثر من جيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفصل الثاني" أجيال في العصاة" نهجت "العصاة" لصدقي اسماعيل نهج ثلاثية محفوظ وإن قصرت عنها فنيا وحجما وسعة . وجاءت مثلها في ثلاثة اجيال من خلال اسرة حلبية صورت تحولات المجتمع السوري وأفكاره خلال النصف الأول من هذا القرن . وطرحت قضايا عامة عاشتها تلك الأجيال في تلك الحقبة.

أما في الفصل الثالث "أجيال في مدن الملح" فقد أختلط فيه المعيار الزمني بالمعيار الحضاري في مفهوم الجيل . اذ جاءت الأسرة الحاكمة في جيلين : جيل الأب وجيل الابن ، غير ان هذين الجيلين، وعلى الرغم من اختلافها في الزمان فانهما جيل حضاري واحد، وظل الابن صورة عن عقلية والده وعن عقلية البدوي في الصحراء، لم يستفد من الاختلاط والثقافات الأخرى ، وظل حبيس عقلية القبيلة وعجز عن بناء دولة حديثة خالدة ، ولم ينفذ التغير الى العقلية على الرغم مما حققته المدينة من تطور في مرافقها التي تعتمد على الآلة الأجنبية . ورصدت الدراسة عقلية كل جيل وركزت على أثر البيئة وما تنادى اليها من أعماق الماضي . وعلى حلقات المستشارين ودورها في بناء الدولة وتوجيهها ، وعلى طابع كل دولة وسماتها والأركان التي قامت عليها وفلسفتها في الحكم ، وعلى الدور الأجنبي. وأبرزت صورة الأجنبي وصورة العربي في ذهن كل منهما ، وقارنت بين عقلية القبيلة وعقلية الدولة الحديثة وبينت موقف العربي من المنجزات الأجنبية وكيف استقبلها وصورها . وتتبعت الدراسة رحلة المدينة منذ كانت قرية في صحراء الى ان صارت مدينة كبيرة تعج بالغرباء والأجانب ، وركزت على المدينة (موران وحران وغيرهما) بوصفها ذاكرة الأجيال وكتابها المفتوح نقرأ فيها سير حكامها وانجازاتهم ، فتخذ الصالح وتقدم عبرة للآخرين. وركزت الدراسة على التيارات المعارضة في هذا الجيل وفلسفة ذلك ، وأبرزت التيار الذي عجز عن الانسجام مع حركة الحياة الجديدة فلاذ بالعودة الى الماضي ونبذ كل ما يتعلق بالحاضر وظل حبيس أحلامه وآلامه.

أما السمات العامة والظواهر التي جاء بها الفصل الرابع فقد استخلصتها من دراسة النصوص وتحليلها التي أخضعتها للدراسة ، وهي سمات عامة مشتركة قد يوجد بعضها في روايات أخرى ، وتعرضت لـلزمن ودوره وأثره في التحول . في الكائنات الحية والمعتقدات والأسرة والدولة والحضارات عامة . وكشفت عن صورة الزمن كما ارتسمت في أذهان الاجيال المختلفة ، وعرضت للمصير والمآل الأخير لكل اشكال الحياة .وحرص الانسان الآلي على تخليد نفسه بما ينجزه ليظل خالدا وحاضرا عبر الاجيال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقفت أمام ظواهر "واقعية" رواية الأجيال وعنايتها بأطار الحقبة "التاريخي". ووقفت أمام حركة "التعاقب والتلاحم "التي قامت عليها عناصر الرواية : العام والخاص . الداخل والخارج ، الأسرة والمجتمع . الخاص والانساني . وبينت أن هذه الحركة التعاقبية تشكل أخيرا حركة الحياة واستمرار الأجيال . وبينت أثر العناصر الفنية في الشخصية الروائية . وفي "الخاتمة" أجملت بعض نتائج البحث.

واود ان اشير الى انني عمدت الى تناول الروايات الثلاث التي خضعت للدراسة . كل رواية على حدة ، ولم اتناولها من خلال موضوعاتها المشتركة . لأنني ادرك ان رواية الأجيال الفنية مربوطة بحقبة تاريخية ومرحلة حضارية يمر بها المجتمع . فكل منها خصوصية . وان كان لها ما يربطها بغيرها من قضايا مشتركة .

واخيرا اتقدم بالشكر الجزيل الى استاذي العزيز الدكتور ابراهيم السعافين على دف صحبته طيلة سنوات الدراسة . وعلى حسن توجيهاته ونقداته ونصائحة التي كان لها دور ملموس في نضج هذا البحث . كما أشكر استاذي الدكتور محمد شاهين الذي اغنى هذا البحث بملاحظاته ونصائحه . واشكر اعضاء لجنة المناقشة كافة على قبولهم مناقشة هذه الدراسة . راجيا ان استفيد من آرائهم في تصويب ما يعتريها من خلل.

والله الموفق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل

في مصطلح "الجيل"

قالت العرب "علموا أبناءكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم" . و نصح توفيق الحكيم أبا في قوله "أيها الوالد : اترك ولدك لسننه و انهم طبيعة جيله" (١) لعل في القولين السابقين ما يوضح مفهوم الجيل من بعض الجوانب . "الجيل" لغة هو الجنس . قالت العرب : جيل الترك وجيل الروم . والجنس ضرب من الشئ . والجيل صنف من الناس و قيل الأمة . وقيل كل قوم يختصون بلغة جيل(٢) .

و قد ارتبط مصطلح "الجيل " عند ابن خلدون ببعد زمني و بنظريته في الدولة (٣). فالجيل عنده "عمر شخص واحد من العمر الوسط . فيكون أربعين سنة الذي هو انتهاء النمو و النشوء الى غايته" (٤) فللدول أعمار كأعمار البشر ، و لا تعدو -في الغالب- أعمار ثلاثة أجيال ،فأبناء الجيل الأول يظلون على خلق البداوة و خشونتها وعصبية القبيلة . في حين يتحول الحال من البداوة الى الحضارة و تنكسر سورة العصبية بعض الشي في الجيل الثاني . أما في الجيل الثالث فينسون عهد البداوة و يبلغ فيهم الترف غايته (٥) . و قد جعل نهاية الحسب في أربعة آباء أو أجيال. الأول باني المجد و الثاني مباشر للأول و مقصر عنه و الثالث مقلد للثاني و مقصر عنه . و الرابع مقصر عن طريقتهم و مضيع الخلال الحافظة لبناء مجدهم . و اشتراطه الأربعة في الأحساب . على الأغلب (٦) . و هكذا فان نظريته في تعاقب الأجيال تعكس المراحل المختلفة التي يمر بها المجتمع على نحو حركة الأجسام الحية. و لم ينس أن يذكر أن لكل جيل ميزاته الأخلاقية و العقلية و السلوكية تميزه من غيره ، و ان كل جيل يمثل طورا من أطوار العمران و حالة من حالات الاجتماع و مرحلة في سيرورة العصبية و القوة ، و أنه جزء من دورة المجتمع و مرحلة في حياة الدولة في منشئها و مآلها ، و هذا التعاقب يشكل حركة المجتمع(٧) .

١- توفيق الحكيم : فن الأدب . مكتبة الآداب . مكتبة الشاوري بالعلمية الجديدة (بدون تاريخ)ص ٢٨٥

٢- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب (جيل) ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .

٣- علي حرب: أضواء تراثية على مرحلة الشباب : تعاقب الأجيال في المنظور الخلدوني ، الفكر العربي ، العددان (١٧،١٨) سنة ١ ، ك ١ ، أيلول ، طرابلس ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٩

٤- عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون . تحقيق علي عبد الواحد وافي . ط ١ ، لجنة البيان العربي ١٩٥٨ ص ٤٨٥

٥- السابق ٤٨٥ ، ٤٨٦

٦- السابق ٤٣٥ ، ٤٣٦

٧- علي حرب : أضواء تراثية ص ٢٨٩ - ٢٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسر علماء الإجتماع مصطلح "الجيل" عددا من التفسيرات المتقاربة . أشار بعضها الى أن "الجيل" مجموعة من الأفراد يعدون أنفسهم ازاء مجموعة أخرى متعاصرين، أو ينظرون الى أنفسهم أنهم في الدرجة نفسها قياسا الى جد مشترك انحدروا منه. و يشير معنى اخر الى ان "الجيل " يطلق على أفراد ولدوا بتواريخ متقاربة بصرف النظر عن انتسابهم الى دم واحد ، و يشير معنى ثالث الى أن معيار السلوك و طرائق العيش و أنماط التفكير المشتركة هي أساس التصنيف قياسا الى أنماط معيشة الابناء أو الاجداد أو الأحفاد . ذلك أن لكل جيل أساليب معيشية و فكرية و سلوكية خاصة . و يشير بعض علماء الإنسان و الإجتماع الى أن كلمة "الجيل " تطلق على جزء معين من حياة الأفراد ، اذ تطلق على الفترة ما بين ميلاد الفرد و ميلاد ابنه و تبلغ ثلاثين عاما في الغالب ، تلك طريقة شاعت لدى بعض علماء التاريخ عند احصائهم عدد الأجيال ، اذ عدوا القرن ثلاثة أجيال (١). وأشارت أبحاث اجتماعية الى أن هذا المصطلح استخدم للإشارة الى فترة زمنية معينة تفصل بين أعضاء المجتمع الذين ولدوا في فترة واحدة و بين الجيل التالي ، و تقدر بثلاثين سنة تقريبا (٢) .

فللجيل مفهوم زمني و آخر سلوكي أو فكري و يرتبط بطرائق التفكير . وفي الغالب ما تتأثر الأجيال ببعضها ، فيكون السابق أبا روحيا للتالي ، و يشكل الجيل الجديد المتأثر بطرائق التفكير الجديدة تحولا و تغيرا عما هو قائم . و قد ينشأ ما يسمى بصراع الأجيال أو صراع القديم مع الجديد . يقول د. عبد الرحمن بدوي " أبرز ما يميز الأحداث في السنوات الخمس الأخيرة في أوروبا و أمريكا هو التمرد ، تمرد الأبناء على الآباء ، في محاولة لاستقلال الشباب عن الشيوخ أيا من كانوا : آباء بالدم أو بالروح ، و تمرد الأدنى على الأعلى في كل نظام يقوم على الترتيب ، ...) (٣) و الغالب أن الجيل يرتبط بمفهوم زمني و أن لكل جيل سمات خاصة عقلية و سلوكية و فكرية . و قد أشار كارل مانهايم K.Mannheim الى فكرة الوحدات الجيلية ، فوحدة الجيل عنده أكثر من كونها جماعة عمر بيولوجية أو افرادا أعمارهم متساوية ، بل هي وحدة اجتماعية ترتبط فيما بينها بنسق ثقافي مشترك و بوعي ذاتي بوحدة اجتماعية و بدرجة كبيرة من التضامن و التفاعل الإجتماعيين بين أعضائها . و عندما يتبلور الوعي بوحدة الجيل عند الشباب يتشكل فيما بينهم " أسلوب جيل " متميز و ربما يعارض أسلوب الكبار . تشير دراسات بعض علماء الغرب الى أنه توجد عبر مراحل تطور المجتمع

١- معجم العلوم الإجتماعية (جيل) Generation تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

٢- د.محمد عاطف غيث:قاموس علم الاجتماع ، (جيل) Generation ، دار المعرفة، الاسكندرية ،١٩٨٨

٣- د.عبد الرحمن بدوي : الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب ، عالم الفكر مجلد ١،عدد ٢ يونيو ، اغسطس ، سبتمبر ، الكويت ١٩٧٠ ص ١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغربي فجوة بين الأجيال ازدادت اتساعا بين الأجيال المعاصرة لتزايد سرعات التغير مما ادى الى اختلاف الوسط الذي يعيشه كل من الآباء و الأبناء ، و نظرا لأختلاف البيئة يجد كل جيل نفسه في سياق اجتماعي يختلف عن الاخر و تتطور لدى كل منهما وجهات نظر متباينة أو متناقضة أحيانا (١) . و لقد أشار الدكتور زكي نجيب محمود الى أنه في الحياة المستقرة غالبا ما يتوجه الشباب الى الماضي للإستفادة من خبرة الشيوخ ، اذ يجدون واجبهم الخلقي في توقيرهم و احترامهم ، أما في الحياة المعاصرة المتغيرة فلا قياس لغد على أمس ، و في كل زمن جديد جديد لم يعرفه الشيوخ ، و هكذا ينشأ صراع بين الأجيال (٢) . و الشباب رمز المستقبل ، و غالبا ما ينشأ الصراع بين الأجيال حين يتقدم الشباب للحلول محل الكبار في حين يقوم الفريق الثاني بالدفاع عن وجوده ، غير أن العلاقة بين الأجيال تختلف باختلاف البنى الاجتماعية و الحضارية و الثقافية(٣) . و لاحظ غالي شكري أن علاقة الأجيال فيما بينها علاقة صراع ، و هي ظاهرة عالمية انعكست آثارها الإجتماعية و النفسية و التاريخية والاقتصادية في الفكر والأدب و الفن ، وهذا الصراع ليس معزولا عن الصراع الطبقي (٤) . و قد علل توفيق الحكيم تصادم الاجيال بأختلاف طبيعتها في قوله "أحدهما يريد التقدم والاخر يريد القفز وهكذا الاباء والأبناء في كل زمان ، وليس الخلاف بينهما على مبدأ التطور والتجديد ولكنه في ذلك التصادم . في ضياع الاحترام والثقة ، في السير لا بروح التعاون بل بروح التحدي" (٥)ويبلغ الصراع ذروته في الفئات التي تنهج نهج المحافظة في وقت يطالب فيه ابناؤها بالتغيير وهكذا تبدو صورة الأب المحافظ مقابل صورة الابن المتحرر نسبيا من سلطة الأب ، غير أن وحدة مصير الأجيال : آباء وأبناء يضعف حدة الصراع . ويظل الصراع بين الأجيال باقيا ما بقيت الحياة لا تهمد حركته . وقد يتغلغل بين أبناء الجيل الواحد.

١- د.السيد عبد العاطي السيد : صراع الأجيال ،دار المعرفةالجامعية . الإسكندرية ١٩٨٧ ص٢٨،٢٩ ٦٣،٦٤،٦٨

٢- د.زكي نجيب محمود : العرب و معنى التحول :من حضارة اللفظ الى حضارة الأداء ، مواقف ، عدد٤ ، أيار ١٩٦٩ .ص ٤٩،٥٠

٣- نايف بلوز : الشبيبة و الثورة : صراع الأجيال و صراع الطبقات دراسات عربية . عدد ١٢ . تشرين أول . أكتوبر ١٩٧٣ . ٢، ٥ ،٦.

٤- د.غالي شكري : العنقاء الجديدة : صراع الأجيال في الأدب المعاصر ، ط١ ، أيلول ، سبتمبر ، دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت ١٩٧٧ ،ص ٧

٥- الأدب ٢٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية الأجيال في الأدب

تعود اصول رواية الأجيال الى الأدب الأوروبي ، و تطورت عن رواية القرن التاسع عشر ، وازدهرت نماذجها في الربع الثاني من القرن العشرين ، وصارت تيارا عالميا. أطلق عليها الروائي الفرنسي Romain Rolland (رومان رولان) اسم Le Roman-FLeuve. معنى Fleuve في الفرنسية نهر كبير له عدة فروع وله انسياب طويل يصب في بحر، وتستخدم في الأدب دلالة الوفرة والانسياب "(١) وقد عرفها أحد الدارسين الفرنسيين " انها رواية حديثة ترتبط بتقليد فني طويل وقديم هو الفن الملحمي، وتتخذ من الشكل الدائري إطارا لها ، وداخل تعرجات النهر الروائي تقدم دلالة شاملة وتحليلا نفسيا للطبائع وتصويرا تاريخيا واجتماعيا عظيما"(٢). كشف عن جوهرها الناقد الفرنسي رينه لالو Rene Lalou في قوله " أنه ارادة تصوير الناس وبيئة اجتماعية في حركة تطور تحتوي على واحات هادئة نسبيا ، كما تحتوي على لحظات اضطراب وتأزم، وليس المهم فيها هو ذلك الشخص او تلك المأساة بل المهم هو مصير جماعة بشرية في فترة من التاريخ الوطني،فهي قطعة من المصير الانساني معادة في استمراريتها الحية "(٣). فالأزمنة التي يركز عليها الروائي في رواية الأجيال هي ازمنة" تحول في تاريخ مجتمع ما تجمع بين مرحلتين . وقد شاع مصطلح رواية الأجيال "الى جانب مصطلح "الرواية النهرية"ومصطلح " رواية الحقبة" لدى الدارسين العرب ، واستخدم الدكتور محمد غنيمي هلال مصطلح "الروايات النهرية " وقال : "انها تلك الروايات التي تؤرخ لأجيال متعاقبة وردها الى المنهج الواقعي الطبيعي ، وذكر بعض نماذجها لدى بلزاك Balzac وزولاE.Zola وجول رومان Jules Romains وجالسورثي Galswarthy و أرنولد بنيت Arnold Bennet(٤) وترجمه د . عبد الواحد محمد "الروايات النهر" Le Roman Fleuve (٥). واستخدم نجيب محفوظ مصطلح 'رواية الأجيال' ومصطلح 'رواية الأزمان' وذكر أنه قرأ عددا من نماذجها العالمية كقصةاسرة فورسايت The Forsyte Saga لجالسورثي وقصة آل بدنبروك لتوماس مان و قصة الحرب و السلام لتولستوي Tolstoi(٦) وعد محمد نجم ما ذكره نجيب محفوظ من بين روايات الأجيال ، و أضاف اليها ثلاثيته نموذجا

١- د. احمد سيد محمد الرواية الاسبانية وتأثيرها عند الروائيين العرب دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٧ .

٢-السابق ص ٣٣ عن La Garde et Michard : Collection LitteraireXXe Siecle . P : 413

٣-السابق ص ٧٦ عن : S. de Beauoir : Laforce de Lage 11 p.418

٤-د. محمد غنيمي هلال : المؤثرات الغربية في الرواية العربية،الآداب ، عدد ٣ آذار بيروت ١٩٦٣ص ٢٣.

٥- بول ويست : الرواية الحديثة ج١. ترجمة د عبد الواحد محمد ، دار الرشيد للنشر ، العراق ١٩٨١ ص ١٢٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣.

٦- جمال الغيطاني : نجيب محفوظ يتذكر ، أخبار اليوم ، إدارة الكتب و المكتبات ١٩٨٧ ص ١٠١.

٤٤٥٣٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عربيا لهذا اللون(١) .ويرى الدكتور عبد المحسن طه بدر أن رواية الأجيال تعنى بتجسيد التطور الاجتماعي لشعب من الشعوب مركزة على التاريخ النفسي والحركة الداخلية والنفسية اكثر من تركيزها على مظاهر المدينة الخارجية كما حاول نجيب محفوظ في ثلاثيته ، و هكذا اخرج روايته ،" كفاح طيبة " من روايات الأجيال ، على الرغم من أنها قامت على أجيال عديدة . لتركيز الكاتب على المظاهر الخارجية ، ولهذا انتفى وجود رباط حتمي بين أجزاء الرواية فجاء خارجيا"٢" ، وهو تعريف وافٍ لرواية الاجيال تقدم على غيرد يبعد الرؤية ونضجها فكان احد معاييرنا الفنية في التمييز بين رواية الأجيال من غيرها . وهي من الروايات ذات النفس الطويل في الآداب الغربية متتابعة الأجزاء"٣" . وبوجه عام فإن رواية الأجيال هي رواية مجتمع وأمة ،ويبدو فيها أثر الزمان واضحا في تغيره وتحوله .

بعض نماذجها

ظهرت بواكير هذا اللون في القرن التاسع عشر. وكانت "الملهاة البشرية" La Comedie Humaine لبلزاكBalzac و "الحرب والسلام" لتولستوي Tolstoi من ابرز النماذج"٤" وشهدت اعوام ما بين الحربين"الرواية النهر في فيض وفير" "٥" وصار هذا اللون تيارا عالميا يعني بالنزعة الانسانية وبالمصير الجماعي. وكان الأدب الانجليزي من أثرى الآداب به"٦" فكتب ارنولد بينت في مطلع هذا القرن "المدن الخمسة Tales of five Towns " وسلسلة قصصه Clayhange وكتب جالسور في قصة اسرة فورسايت The Forsyte Saga"٧" ومن النماذج الفرنسية نذكر "آل تيبو" Les Thibault للكاتب روجيه مارتان دي جار Roger Martin du Gardاذ صور مجتمعه من خلال حياة افراد اسرتين : اسرة آل تيبو واسرة فونتانين . وهي في ثمانية اجزاء أهتم فيها بتحديد المصائر . وكتب يوميات جيل عمره ثلاثون عاما . "تيبو" رب اسرة برجوازية متمسك بالتقاليد ومحافظ عليها. له ولدان هما "جاك" و"انطوان" يمثلان نمطين مختلفين لأبناء الطبقة البرجوازية الفرنسية اوائل هذا القرن. يمثل "جاك" القلق والتمرد على الأوضاع السائدة و آراء والده و تصرفاته . و "انطوان" طبيب يشق طريقه الى المجد و لا يحب معاملة والده لأخيه "جاك" . أما أسرة "فونتانين" فتتكون من الزوجة المتدينة الصبورة

١- فن القصة : ط٥ ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٦ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

٢- الرؤية والأداء : نجيب محفوظ ط٣ دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

٣- سيزا قاسم: بناء الرواية ، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ .الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٤. ص ١٧

٤- د. محمد سيد محمد : الرواية الانجليزية ص ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤.

٥- بول ويست : الرواية المعاصرة ترجمة د. عبد الواحد محمد ج١ ص ٢١٣.

٦- د. محمد سيد محمد : الرواية الانجليزية ص ٤٩ - ٥١.

٧- د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث : دار العودة ، دار الثقافة .بيروت ١٩٧٣ ص ٥٠١ و انظر كتابه الأدب المقارن ط ٣ نشر مكتبة النهضة المصرية . و القاهرة . ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتسامحة، والزوج "جيروم" الذي يجسري وراء ملذاته ونزواته، والابن "دانيال" صديق "جاك" الذي هرب معه في سن المراهقة،والابنة "جيني" التي نشأت بينها وبين "جاك" علاقة غرام فحملت منه ووضعت مولودها في نهاية الرواية رامزا بذلك الى استمرارية الحياة وتعاقب الاجيال"١"، وأرخ اميل زولا E.Zola في عشرين قصة لأفراد متعاقبين من اسرة سماها "روجون ماكار" Rougon Maquart وأرخ جول رومان رولان jules Romains Rolland للحياة الباريسية والاوربية في قصصه المسماة "جان كريستوف Jean Chrustaphe" وجمعها في عشرة أجزاء ، وفي "ذوو الارادة الخيرة Les hommes de bonne volonte " التي اصدرها في سبعة وعشرين مجلدا"٢" . فقد أرخ جول رومان رولان في روايته ثلاث مراحل زمنية : مرحلة شباب كراستوفر كرافت في المانيا ومرحلة نضجه في باريس والمرحلة التوفيقية مع الحياة ومن أجود الأجزاء"الفجر" عن طفولة كراستوفرو"المراهق" عن علاقاته الغرامية والتمرد على الانفصام عن الاقليمية الالمانية "٣" بطل جان كريستوف موسيقار المانى عاش فيها اوائل القرن العشرين وهرب الى فرنسا وانخرط في الحياة العامة واختلط بمختلف الطبقات والشخصيات ، ومن خلال ذلك قدم لنا صورة كاملة عريضة عن الحياة الاجتماعية والسياسية . ويرى المؤلف ان بطل روايته هو نهر الراين الذي يصب في البحر"٤" ، ويقصد بذلك مفهوم الزمن الانساني وعلاقته بالزمن الطبيعي ومسيرة الاجيال عبر الزمن المطلق . وقد وضعت رواية هذه الانموذج لأسلوب رواية النهر LeRoman -Fleuve ، فظهر بعدها عدد من المسلسلات الروائية . وفي رواية رومان رولان "رجال المشيئة الطيبة" Les hommes de bonne volonte"اكثر من مئة شخصية لا توجد فيها شخصية مركزية لأن المجتمع نفسه هو البطل ، وبدت فيها وجهات نظر متباينة متضادة"٥" . واقام المؤلف روايته على فلسفة ذات نزعة انسانية انتشرت في الغرب باشكال مختلفة منذ االقرن الثامن عشر ، وضمن عمله فلسفته الانسانية المتمثلة بتمجيد الصداقة بين الرجال ، وعرضت الرواية لوحة زمانية امتدت خمسة وعشرين عاما"٦".

عرضت رواية "اباء وابناء" Fathers and Sons لتورجنيف Turgenev Ivan وجهتي الجيلين المتعاقبين وكشفت عن تصادم عالمين من الاراء والاتجهات والنزعات . ووفق المؤلف في تصوير هذا الصراع الدائم بين عالمي الشيوخ والشباب ،او بين

١- احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية ص ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ .
٢- د. محمد عنيمي هلال : الادب المقارن ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
٣- بول وبست : الرواية الحديثة ج١، ترجمة د.عبد الواحد محمد ، ص ٢١١ ، ٢١٢.
٤- د.احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية ص ٦٠.
٥- بول وبست : الرواية الحديثة ج١، ترجمة د.عبد الواحد محمد ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥.
٦- د. احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجيل السابق والجيل اللاحق،فجاءت الرواية مرآة صادقة لصراع الاجيال الذي يتجدد في تاريخ البشرية والحركات التاريخية العالمية . ووصفت حركة الافكار الجديدة التي سادت روسيا بين ١٧٦٠-١٨٧٠،وحلل الكاتب نفسية الجيل الروسي الجديد ودوره في المسرح السياسي،ولفت المؤلف انظار قومه الى الافكار الجديدة التي يحملها هذا الجيل الجديد،وآثار ظهورها عاصفة من الجدل في وقت كان المجتمع الروسي يشهد صراعا بين القديم والجديد،بعد وفاة القيصر نيقولا الأول تولى العرش ابنه القيصر الاسكندر الثاني الذي لم،تتملكه نزعة الاستبداد التي ميزت نفسية والده. ووصف عهد الابن بعهدالاصلاحات،اذ حرر المزارعين الروس من العبودية . واتخذ الرجعيون من شخصية" بازاروف " الثائرة على آداب المجتمع وتقاليده دليلا على خطر الافكار الثورية المختلجة في نفوس الشباب . ولقد أغضب الابناء اسراف الاباء في نقد شخصيته وتحاملهم عليه. وهكذا تعرض تورجنيف لهجوم المعسكرين:الشيوخ والشباب،ومثل بازاروف روح النقد الثائرة التي ترى في الهدم سبيل الاصلاح،وكان ظهوره فاصلا بين عهدين:الماضي القائم على المعتقدات واليقينيات والعهد الجديد القائم على العلم،ورفض بازاروف ان يخضع لتقاليد الماضي فمثل الجيل الجديد في حين مثل "بول بتروفتش" الجيل القديم[١] وركز تورجنيف على تغير المجتمع الروسي المستمر ونتائجه واسبابه وعلاقته بحياة الانسان الروسي العقلية والروحية وأحس ان افكارا جديدة تقتحم الواقع وان عقلية جديدة تشق طريقها للسيطرة والتأثير، وسخر الاحداث و المشاهد لالقاء الضوء على عقلية بازاروف"[٢].

رواية الأجيال : ظواهر و سمات

الزمان في رواية الاجيال ابرز الظواهر حضورا وامتدادا ، انه يظل الرواية الفعال .تبدو فيها آثار الزمان الطبيعي الفلكي الذي يلف في احشائه تطور العالم منذ بدء الخليقة حتى يوم الناس هذا ، وسيستمر بعد فناء الاجيال ، من غير ان يتأثر بأفعال البشر وعواطفهم . فهو يمثل حركة الحياة في دورتها الطبيعية المستمرة ، حركة الولادة والنمو اوالموت فالولادة مرة اخرى،ويمثل انسياب الحركة الكونية الجبرية .فالزمان في رواية الاجيال حقيقية مسيطرة يؤثر في الاحداث والشخصيات فتتغير وتتقلب .وينضوي في هذا الزمان المطلق زمان آخر انساني حضاري نسبي ذاتي يحسب فيه حساب الحياة الانسانية عامة ، في تطورها وتغيرها عبر مسيرة الاجيال المتغيرة"[٣] .

١- على أدهم : صراع الاجيال الفكر المعاصر عدد ٧٠ د يسمبر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة ١٩٧٠ ص ١١ ، ١٤ ، ١٧.

٢-: محمد يوسف نجم : فن القصة ص ٢٠ .

٣- السابق : ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتخذ نجيب محفوظ من الزمان مرتكزا اساسيا في ثلاثيته وهذا واضح في تضاعفيها وفي تسميته لها برواية الازمان واكدت قصة "الحرب والسلام" تاثير الزمان في اضمحلال الاجيال. فاظهر تولستوي الناس وهم يهرمون ويكبرون برتابة الحياة المنسابة ، وذلك انه وخلال انسياب الزمن تنطبع آثاره في وجوه البشر وافكارهم وعواطفهم وحركاتهم ، فموضوع الرواية الرئيس هو مسيرة الحياة وتغيرها عبر مسيرة الاجيال . ومثلت شخصياتها القصة الأزلية قصة الميلاد والنمو والموت"[١].

يرتبط التاريخ الانساني بالزمان الطبيعي . فالتاريخ هو ذاكرة الخبرة البشرية في اطار الزمان المطلق . والزمان الانساني متحول متغير يتجه الى الامام في اتجاه واحد لا رجعة فيه ويسير نحو المستقبل مؤكدا بذلك حتمية المصير البشري ، الى الموت حيث المآل الانساني المحتوم وبسبب هذا المصير تصطبغ النظرة الى الزمان برؤية تشاؤمية ترى فيه عنصر هدم يقضي على قوى الانسان . واخذت هذه النظرة التي سادت التراث العربي بالتغير فظهرت رؤية ايجابية لمسار الزمن على انه مسار تصاعدي فالزمان يتجه الى الامام صعودا نحو التقدم والتطور ويتجه ايضا الى الهبوط نحو التدهور والانحطاط وصورت روايات الاجيال في القرن التاسع عشر في مجملها حركة الانحلال. وابرزت الطابع المأساوي ، فصورت روايات زولا E.Zolaالتي تناولت اسرة "روجون ماكار" Rougon Macquart مأساوية المصير الانساني ونهايته المحتومة فمثلت اسطورة السقوط ، ذلك ان الابطال مسوقون عبر الزمان نحو نهاية تحددها الوراثة والبيئة واللحظة التاريخية . وظهرت هذه الصورة المأساوية في روايات الاجيال الروسية في القرن التاسع عشر، واستمرت في بداية القرن العشرين ممثلا في رواية توماس مان "البودنبروكس" ١٩٠١ التي صور فيها اسرة برجوازية في منتصف القرن التسع عشر ، ويلاحظ في هذه الروايات وطأة القدر وفعله في هذه الأسر العريقة التي انتهى الى التفكك الذي تسرب اليها من داخلها من جراء فساد الأجيال الناشئة وانحرافها لانحراف المجتمع"[٢].

وتبدو في رواية الأجيال فكرة المصير الانساني واضحة ، اي المآل والمنتهى الذي تؤول اليه الشخصيات والدول والافكار والحياة بوجه عام فقد عالجت رواية "الحرب والسلام" فكرة المصير الانساني امام الزمن وعلاقة التاريخ بالفن الروائي ، فجسد التاريخ من خلال بعض المصائر الفردية . وبين ان الانسان يتأثر بما حوله وانه تتدخل عوامل كثيرة في صياغة

١- بيرسي لوبوك : صنعة الرواية . ترجمة عبد الستار جواد : دار الرشيد للنشر العراق "بدون تاريخ" ص ٣٨ ، ٥٦ ، ٥٧.

٢- سيزا قاسم : بناء الرواية ص ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصيره وانه يمضي حتما الى مصير محتوم"[١]" وتجلت في "آل ثيبو" Les Thibault فكرة المصائر الفردية والجماعية والوطنية والعالميه ، وتحكم الاب في مصير ابنيه مما دفع بالابن "جاك" الى الثورة والتمرد على سلطة الاب والمشاركة في المنظمات الثورية وتحدد مصير الاخوين بمصير الجماعة سواء منهم من رفض فكرة الحرب وقاومها بالدعوة الى السلام مثل"جاك" او من استجاب لدعوة الوطنية ولبى نداء الجبهة والمشاركة في الحرب مثل"انطوان" . ولقي كلاهما حتفه وانقادا نحو مصير محتوم"[٢]".

تنحو رواية الاجيال نحو الدائرية في سير الاحداث والشخصيات،فشخصيات رواية "الحرب والسلام" تمثل دائرة الميلاد والنمو والموت ثم الولادة من جديد، وتمثل القصة الازلية في كل زمان ومكان.وبدت في الرواية نبضة جيل في مرحلة تحول وكانت فكرة الشباب والشيخوخة،والمد والجزر،مادة الرواية الاساسية، والامل في الرواية يزدهر ثم يذوي ليعاود الظهور مرة اخرى،والشيخوخة في وهنها تتطلع الى الشباب مرة اخرى،والشباب يتدافعون ليأخذ كل مكانه بوصفه جيلا"[٣]".ان عجلة الزمان تحمل معها ثورة الحياة التي يتمخض عنها ظهورجيل واختفاء آخر، وبدا في الرواية تقدم الزمن وارتفاعه وسقوط المنحنى.في القصة روح الشباب وطموح مثلما فيها عجوز يحس انه يعيش في عزلته وانه عائق ولا جدوى من وجوده.في وقت اقتحم عليه ابناؤه مكانه.فكان الوقت مناسبا لظهور جيل جديد يتولى المبادرة وتكون فيه الكلمة الاخيرة له.وصاحب غد متفتح من اجله يستغرق في التفكير والتأمل"[٤]" .

رواية الاجيال وطيدة الصلة بالواقع ، فهي رواية واقعية وفي طياتها ما يشير الى تاريخ مجتمع ما بأبعاده المختلفة من افكار وعادات ومعتقدات وتقاليد ونظم سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . غير انها ليست واقعية تسجيلية ، واذا بدا في بعض نماذجها نزعة تشاؤمية فسببها الخوف على المصير البشري"[٥]" . ومن مظاهر واقعيتها الاغراق في التفاصيل والأعتماد على الوثائق . فهم الكاتب موجه نحو الصدق الموضوعي"[٦]" وهي واقعية تتخذ من الطبيعية منهجا وتطبق النظريات العلمية على القضايا الاجتماعية والانسانية .ان التشاؤم الذي

١- د.احمد سيد محمد الرواية الاسبانية ص ٤٥ . ٤٧ ، ٤٨ عن

Georges Jean : Le roman - Editions du sauil - paris 1971 :P.III

٢- د.احمد سيد محمد : الرواية الاسبانية ترجمة عبد الستار جواد . ص٧٢.

٣- بيرسي لوبوك : صنعة الرواية - ترجمة عبد الستار جواد- ص ٣٧ - ٣٩

٤- بيرس لوبوك : صنعة الرواية. ترجمة عبد الستار جواد ص ٥٥ - ٥٩ .

٥- د.احمد سيد محمد : الرواية الاسبانية ص ٧٩.

٦- ادوين موير : بناء الرواية : ترجمة ابراهيم الصيرفي . مراجعة د.عبد القادر القط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر . الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة بدون تاريخ ص ١١٦ - ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدو لدى أصحاب المذهب الطبيعي هو نتيجة لرؤيتهم الكونية و شفقتهم على البشر و الإهتمام بمصيرهم كاهتمامهم بالحتميات البولوجيه والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والكونية [١] .

وقد اتجه كثير من كتاب القصة الاوروبيين في مطلع العصر الحديث الى دراسة الانسان في القصة بوصفه نموذجا يمثل جيلا من الاجيال ، فيها تتجلى اتجاهاتها الفكرية ومثلها ، وخضعوا في ذلك لنظرية تين Taine في اثر البيئة والجنس في قوله [٢] " في كل مجتمع انواع من الناس،وفي كل نوع الناس متشابهون فيما بينهم : يتحدون في احوال ميلادهم ونشأتهم ويتفقون في مصالحهم وحاجاتهم وأذواقهم وعاداتهم وثقافاتهم كما يتفقون في بواطنهم . فاذا راى المرء واحدا منهم فقد راهم جميعا" [٣] فالبيئة هي مجموعة القوى والعوامل المحيطة بالفرد المؤثرة في تصرفاته،وهذا الاهتمام بالبيئة في الروايات صدى لما ظهر في القرن الماضي واوائل هذا القرن من تساكيد لأثر البيئة في الحياة الانسانية ، ذلك ان الانسان ليس معزولا عن اسبابها ونتائجها ، وهو عضو في اسرة تؤثر فيها يد القدر او يد المجتمع ،ويمثل هذا الاتجاه كتاب المدرسة الطبيعية بوجه عام . وفي هذه القصص يتأثر مصير البطل بعوامل الوراثة والتربية والبيئة وبهذا يكون مصيره اشبه ما يكون بالمحتوم المقدر[٣] .

لقد ابرز تولستوي Tolstoi الواقع واتخذ من التاريخ الواقعي اطارا لروايته، وتتبع الاحداث التي عاشت فيها كل اسرة ورصد التطورات التي اثرت في مواقف الافراد. وارتسمت صورة المجتمع الروسي في مطلع القرن التاسع عشر على لوحة كبيرة من خلال حركة افراد اسرتي : رستوف وبولكونسكي الجنرال في عهد الامبراطورة كاترين . وكانت ابنته ماري تعيش معه وعانت الكثير من استبداده بالرأي وتفكيره المادي وشدة عناده ،فكانت تتوق الى الأستقلال بحياتها الخاصة حتى تحقق لها ذلك حين تزوجت احد ابناء روستوف نيكولا. اما شقيقها الامير اندريه فلم يجد الفرصة لأن يبرز كفاءته،وخطب ناتاشا ابنة روستوف الجميلة لكنه اصيب بخيبة أمل حين اكتشف انها على علاقة مع غيره،فعاد الى القتال ليسقط صريعا [٤] .

وأعتمد مؤلف "ال تيبو Les Thibault" على الوثائق . وتعد هذه الرواية من بين الروايات التي حاولت التقريب بينها وبين التاريخ في مظاهرها التفصيلية ففيها بيانات

١- رالف الفيريس : تاريخ الرواية الحديثة . ترجمة جورج سالم . ط ١ ،ك ٢ ، منشورات عويدات بيروت ١٩٦٧ ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ .

٢- د. احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية ص ٥،٤٦- رالف الفيريس : تاريخ الرواية الحديثة . ترجمة جورج سالم . ط١، ك٢ ،منشورات عويدات بيروت ١٩٦٧ ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦.

٣- محمد غنيمي هلال : النقد الادبي الحديث ص ٥٤٠ عن
Francois Mauriac : Le Roman . Paris . 1928 P: 38 - 39.

٤- د. محمد يوسف نجم : فن القصة ص ٢٢ ، ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجتماعية مختلفة مصورة بدقة (١) و جاءت رواية رومان رولان Romain Rolland جان كريستوف Jean Chrustaphe صورة واقعية عن المجتمع الفرنسي . إذ قدم المؤلف صورة كاملة تشبه لوحة عريضة للحياة الاجتماعية والسياسية خلال تلك الحقبة مع الاهتمام بتحليل النماذج البشرية ، وركز فيها على تمجيد الابطال والبطولة. وروايته الأخرى "الرجال ذوو الأرادة الخيرة" Les hommes de bonne Volonte واقعية ايضا اذ احتوت بعض اجزائها على دراسات موثقة تصلح ان تكون وثائق تاريخية . اعتمد فيها المؤلف على منهج الطبيعيين من حيث الاهتمام بالوثائق واجراء التجارب والقيام بالتحقيقات الجادة . وورد فيها ذكر لأسماء بعض الشخصيات السياسية الحقيقية , وفيها لوحات مثيرة وحقيقية لواحدة من معارك الحرب العالمية الأولى , وتشاهد في احد اجزائها وصفا ليوم في باريس "٢" . غير ان الاغراق في الاستعانة بالتاريخ او الواقع في رواية الاجيال والتركيز على الصدق الموضوعي وعلى تفصيلات حقبة تاريخية ما كلها امور تضعف بناء الرواية وربما تفقد اهميتها بمرور الزمن وتقلب الاجيال وتغير المقاييس النقدية"٣".

اما موضوع رواية الاجيال فهو مجتمع في رحلة انتقال وتغير وشخصيات حقيقية تمثل المجتمع وترتبط بحقبة زمنية معينة وبمرحلة حضارية . وهي أكثر تعلقا بفترة زمنية معاصرة , يحاول كاتبها ان يعرض قطاعا من الحياة المعاصرة في مرحلة تحول وانتقال . غير انه لا يحاول رسم صورة مجتمع لكل زمان ومكان وتكتسب شخصياتها انسانيتها من تمثيلها لهذا المجتمع في هذه الحقبة . اي انها تجعل الاشياء نسبية وخاصة ومحدودة بتاريخ . ويعني كاتبها بالصدق الموضوعي اكثر من عنايته بالصدق الفني "٤".

ويرى إدوين موير ان حديث الناقد الفرنسي "رومان فرناندیز Roman Fernandis" في مقالات له بعنوان "رسائل" عن بلزاك Balzac في موضوع السرد ينطبق بدقة على رواية الحقبة. ويستفاد من حديثة ان احداث رواية الحقبة قد وقعت حقيقة والراوي في هذه الرواية يصور المجتمع ويصور افكاره عنه"٥".

وفي رواية الاجيال يجتمع بعدان ومحوران معا يسيران في خطين متوازيين في

١- السابق ص ٧٤.

٢- السابق ص ٦٠ ، ٦١، ٦٥ .

٣- ادوين موير : بناء الرواية ترجمة ابراهيم الصيرفي ، ص ١١٦ ، ١١٧ وانظر :د. محمد يوسف نجم : فن القصة : ١٥٦.

٤- إدوين موير : بناء الرواية ترجمة إبراهيم الصيرفي ص ١١٤ -- ١١٦ .

٥- أودين موير : بناء الرواية ترجمة ابراهيم الصيرفي ص ١١٧ ، ١٢٠ عن Roman Fernandis " Messages . Librairri Gallimard . paris. Als Translated by Montpgomry 13 elgion cupe

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرواية . قد يجتمع العام مع الخاص . او هموم مجتمع معين مع هموم الانسانية عامة وتتحدد المصائر : مصير الفرد ومصير المجتمع ومصير الانسانية ففي قصة تولستوي Tolstoi بنيت قصتان : قصة الحياة الازلية غير المحددة بتاريخ وبجنس وبمكان انها قصة عالمية واسطورة العصور يحكيها نقولا وناتاشا، فالشباب هنا يمثلون شباب العصور كلها والامكنة كلها ، اما القصة الثانية فتركز على هموم المجتمع الروسي وما عصف به من احداث جسام . ففي الاحداث يكمن تاريخ العصر وأثر التاريخ في حياة الافراد[١] ، ولهذا فاننا نلمس في هذا اللون بعدا انسانيا ونزعة انسانية، كما انه ينزع الى الطابع الملحمي في تمجيد البطولة وتكبير ملامح العظمة من أجل مواقف أخلاقية وغايات انسانية . وقد تستوحي بعض شخصياتها من الشخصيات الأسطورية . ويمتاز هذا اللون ايضا بطولها الواضح لاغراقها في التفصيلات والتحليل والاستقصاء (٢) ومما يجدر ذكره أن روايات الأجيال في الآداب العالمية والادب العربي جاءت على شكل روايات متسلسلة أو متعددة الأجزاء. ومن خلال علاقات اسرية ، ذلك انه يجتمع في الأسرة الواحدة في الغالب أكثر من جيل ، جيل الأب والابن وجيل الحفيد ، وغالبا ما تكون الأسرة رمزا للمجتمع .

ويتميز هذا الشكل من الروايات بالبعد عن الحبكة المحكمة المتماسكة (٣) فليس لرواية تولستوي مثلا حبكة مركزية (٤) وكذلك الواقع بالنسبة لرواية جيل رومان Romain Rolland (الرجال ذووالإرادة الخيرة 'Les hommes de bonne volonte) إذ تعتمد على حبكة تتوزع في سائر أجزاء الرواية . وقد انتقد (رومان) التقنية التي تقوم على حبكة مركزية لأن ذلك يترك انطباعا أن وحدة المسلسلات وحدة خارجية وأن الترابط بينها مصطنع غير طبيعي (٥). ورواية الأجيال بوجه عام طويلة واسعة مسهبة تمتد الى آفاق عريضة وسنوات عديدة ، كثيرة الشخصيات والأحداث .

بعد أن عرضت ظواهر رواية الأجيال الفنية ومفهومها أتوقف الان امام الروايات المتسلسلة في الرواية العربية ، بعد ان شاع انها رواية اجيال . غير انه تبين لي انه ليس كل رواية متسلسلة ومتعددة الأجزاء رواية أجيال ، وان ليس كل رواية موضوعها الأجيال هي كذلك . وخلاصة الأمر اننا ومن خلال تطبيق ظواهر رواية الأجيال الفنية نستطيع ان نحكم على رواية ما انها من هذا اللون ام لا. ومن اجل تعميق مفهوم رواية الأجيال في ذهن القارىء

١-بيرسي لوبوك : صنعة الرواية ترجمة عبد الستار جواد ص ٤٠ - ٤٥

٢- د أحمد سيد محمد الرواية الأسيايية ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١.

٣-ادوين موير بناء الرواية ترجمة ابراهيم الصيرفي ص ١٥٤وانظر : د محمد يوسف نجم فن القصة١٥٣.

٤- بيرسي لوبوك صنعة الرواية ترجمة عبد الستار جواد ص ٤٥.

٥- د احمد سيد احمد الرواية الأسيايية ص ٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتوقف امام عدد من الروايات المتعددة الأجزاء التي تبين انها لا تنتمي الى هذا الجنس .
ثلاثية محمد ديب[١] رواية متعددة الأجزاء . واقعية. غير انها ليست رواية أجيال فقد عرضت واقع البؤس والجوع والفقر في المجتمع الجزائري ونضاله في سبيل الحرية والاستقلال وطرد الاستعمار الفرنسي . امتد زمنها الروائي ثلاث سنوات ١٩٣٩-١٩٤١ . برزت فيها شخصيتان رئيسيتان: الطفل عمر ابن العاشرة وحميد سراج الشاب، فقد عاش الطفل عمر مع اسرته التلمسانية الفقيرة المكونة من امه عيني واختيه مريم وعكاشة. ورسمت الرواية من خلال الطفل عمر الصراع مع طبقة غنية من كبار الملاك والتجار للحصول على لقمة الخبز ، مما يشير الى واقع الطبقات الحاد . عرض المؤلف واقعه في صورة مرايا تعكس جميعها واقع البؤس والجوع من خلال صورة الأم وهي تحتال على ابنائها وتلهيهم حتى يناموا بجوعهم و واقع المرض من خلال الجدة المريضة وسوء معاملة ابنتها لها والعجز البشري ازاء الأخطار المحدقة الى حد عجزت عن ان تدفع عن نفسها الكلاب وهي تنهش قدميها . وواقع الألم من خلال صورة الأم ومعاناتها لتحصيل قوت غذاء اسرتها ، وصورة الذل من خلال صورة الأم وهي تركع امام صاحب المصنع قائلة (انت رب نعمتنا. انت المحسن الينا) لتوفر لابنها عمر عملا في مصنعه على الرغم من صغر سنه . مما حدا بها ان تخاطب ابنها (لعلك تحسب ان ليس في قلبي الكفاية من الجروح) (٢) و(على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار. . وتركنا كما يترك المنبوذون. حتى خبز اسود كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه)(٣) . وعرض المؤلف واقع البؤس في صور الشحاذين والمتسولين الذين كانوا يندفعون بصمت نحو المدينة ويعيقون حركتها وتزداد الصورة بشاعة في سوء ممارسات السلطة لترحيلهم . وتبدو صورة الفقر واضحة في حياة الاسرة من خلال صورة الطفل عمر وهو يفتش في الفضلات عن غذاء له، وقد فجر هذا الواقع الحزن الذي احال دار سبيطار الي سجن كبير والى جانب المرض والجوع والفقر جهل وبطالة وطبقية حادة واستغلال أصحاب العمل وتضليل الاستعمار لأبناء الوطن من خلال برامج التعليم وتدريس الأطفال . وقد عرض المؤلف الواقع المؤلم في مناطق مختلفة من الجزائر . في تلمسان المدينة وبني بوبلان القرية . وفي الجبال والقرى. ورسم لنا تفتح الوعي في نفوس الفلاحين من خلال شخصية حميد سراج . اذ بدأ الفقراء يعون واقعهم وأسباب تخلفهم . وصور المؤلف حياة المستعمرين

١- أ - الدار الكبيرة : ط٣ ، دار الوحدة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١
ب - الحريق : ط٣ ، دار الوحدة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١
جـ - النول: ط٣ ، دار الوحدة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١

٢- الحريق ص ٣٣

٣-السابق ص ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمستوطنين الفرنسيين مقابل حياة الجزائريين. وقد مثل حميد سراج الوعي الثوري الجزائري الذي بدأ بوعي أسباب التخلف والدعوة الى تغييره. ودفع هذا السلطات الفرنسية الى ان تودعه السجن مثلما أودعت قبله زوج زينة.

ويلاحظ الدارس المدقق ان أحداث الثلاثية تدور في جيل واحد ، زمنها الروائي قصير قياسا لزمن رواية الأجيال الطويل تتبدو فيه آثار التغير واضحة ، مما يكون مرحلتين مختلفتين. وفي الحقيقة فاننا لم نطلع سوى على صور البؤس في الجزائر . وذلك هدف الكاتب : ان يرسم لنا صورة الواقع البائس. وعلى الرغم مما اشار اليه من تفتح وعي جديد في شخصية حميد سراج غير ان هذه الصورة المشرقة قصيرة لم تكتمل لأن السلطات أودعته في السجن ، لم تكن شخصيته ممتدة في جيل آخر ولم يحمل رسالته نفر غيره ، مما اضطر عمر ان يفكر في حميد المسجون ، كما أن تفتح الوعي الذي بدا في شخصية حميد سراج لم تنعكس مظاهره على المجتمع ، فظلت المرحلة التالية قائمة كما كانت سابقتها . ولم يتح قصر الزمان الروائي مجالا لمعرفة مصير الشخصيات. فظل الواقع كما كان عند دخولنا الرواية. كما اننا لانستطيع ان نعد الطفل عمر ابن العشر سنوات رمز جيل له دوره الواضح في حركة المجتمع التحررية ،اذ ليس له فكر خاص يميزه من غيره بل كان صورة للبؤس ولم يكن امتدادا لشخصية حميد او متطورا عنها او متفرعا منها على الرغم من انه تأثر بها بعض التأثر . ورواية محمد ديب قليلة الشخصيات قياسا بشخصيات رواية الأجيال ، كما ان حركة الزمان في الرواية بطيئة وآثارها قليلة لاتعكس سوى صورة عامة كلية واحدة وان اختلفت المشاهد ، فضلا عن اننا لم نتلمس مرحلتين متمايزتين في حياة الجزائر تشكلان سمات جيلين. وعلى الرغم من انتقال الطفل عمر الى العمل في مصنع النسيج فان ذلك الانتقال لم يكن سوى نقلة من بؤس الريف الى بؤس المصنع . وظل الجوع هو البطل المسيطر لا الزمان. وعلى هذا فالثلاثية ليست رواية أجيال على الرغم من اطارها التاريخي الواقعي.

ثلاثية سهيل إدريس"١" ليست رواية أجيال كذلك تؤرخ "الخندق الغميق" للطفولة والحداثة ، في حين ان " الحي اللاتيني " تؤرخ للشباب ومدخل الرجولة عند انتقال المؤلف الى فرنسا . فالرواية سيرة ذاتية مكتوبة باطار روائي."٢" دارت أحداث الرواية في بلدة المريجات اللبنانية من خلال اسرة مكونة من سامي واخيه فوزي واخيه الأصغر وسيم واخته هدى ووالديه. وقد التزم سامي بأفكار والده الدينية وكان يراقب باهتمام حلقات الذكر ، ولبس الجبة

---

١ – أ– الخندق الغميق : ط٣ ، دار الاداب و بيروت ١٩٧٧ .
ب– الحي اللاتيني ط٧ ، دار الآداب بيروت ١٩٧٧
جـ – اصابعنا التي تحترق : ط٣ ، دار الاداب و بيروت ١٩٧٧ .

٢ – جورج طرابيشي : عقدة اوديب في الرواية العربية ط١ ،دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ، ٢٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعمامة والتحق بالمعهد الديني هو صغير السن وبعد مضايقات اقرانه ودخوله في مغامرات الغرام خلع الجبة والعمامة . وهو لم يبلغ العشرين بعد . بعد ان قضى اربع سنوات سجين البيت، فأحسن بعدها بخفة حركته وانه تحرر ، فضربه والده وحاول ان يلبسه واياهما قسرا . ونزعت شقيقته هدى الحجاب بعد ان تعرفت على صديق سامي وأحبته فهددها والدها باخراجها من المدرسة ،فناصرها سامي ودافع عنها . وانتهت الرواية بمرض الأب بالفالج .واخيرا خطب رفيق هدى وسط موافقة الاب والاسرة . جاءت الروايه في معظمها على لسان سامي. سرد خلالها سيرة حياته الذاتية بدءا من حياته الاسرية مرورا بدراسته ورحيله الى حلب ، من غير ان نحس بحركة المجتمع خارج الاسرة ، فلم نلمس آثار الحرب العالمية الثانية على حياة الاسرة جذريا. لاسيما ان الاحداث الاولية للقصة وقعت في ما بين الحربين وهي فترة تغيرات حاسمة أثرت في الوطن العربي . لكن اثار ذلك لم تنعكس في " الخندق الغميق" مكتفيا بالقول ان الحرب العالمية الثانية قد بدأت منذ ثلاث أعوام وتلك أحداث لم تنعكس على الاسرة الا في نطاق ضيق ولم يبين لنا انعكاساتها على شخصيات الرواية وعلى عواطفهم وافكارهم ومصائرهم ، كما ان أفراد الأسرة لا يشكلون تيارات او اتجاهات ولم يحمل اي منهم هموم جيله وطموحاته وافكاره وممارساته ، بل هم أفراد اسرة عادية لا سر فيها سوى الخاص، وحتى "رفيق" صديق سامي كان كغيره من افراد الأسرة لم يمثل جيلا له افكاره الخاصة . ولم تظهر في الرواية عادات المجتمع اللبناني . واغفل المؤلف تسجيل الأفكار التي تقوم عليها معتقدات الجيلين ليتضح الفرق بينهما ، و لا تقوم الرواية على الصراع بين جيلين ذلك ان سامي الشاب الذي يفترض ان يمثل الجيل الجديد ينطوي على كثير من روحية الجيل الذي يقاومه . وتقاليد الجيل السابق متأصلة فيه وهو نفسه الذي طلب ان يلبس الجبة والعمامة . وهو نفسه الذي خلعهما . ولم يفلح الأب في اجباره على ارتدائهما مرة اخرى ، مثلما لم يستطع الأب اجبار ابنته على ارتداء الحجاب ، فكان سامي يتحكم في ارادته وتصرفاته(١) فالرواية تركز في المقام الأول على حياة سامي واسرته ، وليس فيها تناغم للعام مع الخاص اي توازن بعدي : الأسرة والمجتمع معا او الداخل والخارج . ولم تتواءم حركة الأسرة مع حركة المجتمع . وظلت الرواية حبيسة الأسرة .

في (الحي اللاتيني) نلتقي بتجربة سهيل ادريس في باريس وعمره خمسة وعشرون عاما وقد لفت انتباهه -شأن كل شرقي -- صورة المرأة وعلاقته بها . التقى بعدد من الشبان العرب الذين يتفقون معه في السن والتفكير (صبحي وعدنان وصالح وسعيد وربيع)

١- نزيه شلاش الخندق الغميق ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٠ ص ٢٢٠-٢٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعرفوا الى فتيات فرنسيات مثل سيمون وجانيت وسوزان وهيلين ، غير انهم لم يرتقوا ليحملوا هموم جيل عربي جديد التقى بثقافة اجنبية . كما ان عقلية ساسي لم تتغير ولم تتطور وسط هذا الوسط الجديد ، وظل رهين خوف والدته ان تسلبه نساء الغرب قلبه . غير اننا لم نر العام ولا قضايا الامة الحضارية بهذا التماس . ولا نحس بأثر الزمان ولا بدوره في التغير وفي حركة الحياة عامة ولا نحس بمراحل في حياة المجتمع تتجسم مع حركة الأسرة والبطل .وهكذا انتفى ان تكون ثلاثية سهيل ادريس رواية اجيال من خلال جزأيها الأولين . و لا يتجاوز الجزء الثالث ما عرضته سابقا .

رباعية اسماعيل فهد اسماعيل (١) ايضا ليست رواية أجيال . وقد رصدت الفترة الواقعة بين ١٩٦٠-١٩٧٠ وقدمت عدة وجوه رافضة وعدة وجهات نظر ورؤى خاصة للبطل الرافض ، ورصدت اساليب الرفض :الرفض المتمرد والرفض الثوري الجماعي المنظم . قدم الجزء الأول وجه الرفض الأول وادانته و عدم جدواه ، والبطل هارب مطارد سلبي يرفض الحياة بأسرها والانسانية جمعاء ، حاول الانتحار مرارا (٢) وجاء الجزء الثاني بضمير الغائب ، بطله حميدة السجين لقتله اخوين قتلا اختيهما دفعا للعار ، وهو لا يحمل هموم جيل معين و لا يمثل حقبة تاريخية معينة .وهو ثائر فردي على تقاليد المجتمع العامة التي دفعت الاخوين الى قتل اختهما ، والرواية تركز على الشخصية لا نرى فيها العام ولا الخاص ولا المجتمع . وليست شخصيته امتدادا لما قبلها ولا لما بعدها، ولا يمكن ان تكون هذه الشخصية رمزا لجيل معين . وفيها جانب كبير من التركيز على اللاوعي والحوار الداخلي ، إذ يدخل البطل في حوار داخلي اكثر من الصراع الخارجي . وقدم الجزء الثالث "الحبل" وجه البطل الرافض الثالث ، وهو خارج من توان السياسة منذ هاجمه رجال الشرطة يوم زفافه فاحس بالجرح، وفكر في اتباع أسلوب الرفض الفردي بالانتقام من ضباط شرطة . اما الوجه الرابع فقد قدمه الجزء الرابع " الضفاف الاخرى" ، وكتب المؤلف في مقدمته "...الروايات الثلاث السابقة قصيرة .... اما الضفاف الاخرى فهي محاولة لمتابعة بعض شخوص الروايات الثلاث السابقة ضمن خط زمني واحد متطور ....." وهو يجسد الرفض الجماعي من خلال اضرابات العمال ومطالبتهم بحقوقهم وتحديد ساعات العمل والأجور وتخفيض اسعار المعيشة . والشخوص لا تمثل هموم الجيل ولا تمثل مرحلة معينة من التاريخ الاجتماعي او الفكري أو الحضاري . ويبدوفي هذا الجزء الرفض الجماعي وقد تبناه العمال . اذ قاموا بالاضراب في مصنع تحتشد فيه سائر

١- أ- كانت السماء زرقاء : دار العودة بيروت ١٩٧٠

ب- المستنقعات الضوئية ، دار العودة بيروت ١٩٧٠

جـ- الحبل ، دار العودة بيروت ١٩٧٢

د- الضفاف الأخرى ، دار العودة بيروت ١٩٧٣

٢- احمد محمد عطية : البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ ، ١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات الرافضة . فأدانوها وقاموا بتعريتها . واكد اسماعيل دور الطبقة العاملة القيادي وكشف زيف الواقع بما فيه من عبث وقمع وتخلف . وفي هذا الجزء جمع الروائي شخصيات اجزاء روايته امام حادث اضراب المصنع وهو يدعو الى الممارسة والتضال الفعلي ، المحك الرئيسي . لكن تنأي هذه الرواية عن ان تكون رواية اجيال . اذ لا تتوفر فيها ظواهرها الفنية ، وهدفها ان تعرض علينا عدة رؤى في موضوع بعينه. وشخصياتها لا تحمل هموم جيل معين ، كما انه لا يبدو للزمان دور واضح في الرواية كما في رواية الأجيال .

رباعية فتحي غانم"١" ليست رواية اجيال ايضا ، وقد سميت اجزاؤها باسماء شخصيات رئيسية جاء الحديث على لسانها . تحدث الجزء الأول عن "مبروكة" ارملة عبد الحميد السويفي وحقدها على إبن زوجها يوسف الذي حرم ابنها من حقه الشرعي في الميراث وتركها تقع في الرذيلة وكانت قد حملت ابنها ابراهيم بطريق غير مشروعة من العجوز عبد الحميد السويفي الذي كان يغار من شباب ابنه يوسف ، وارادت مبروكة بعد زواجها من عبد الحميد ان تهدم الحاجز بينها وبينه :حاجز الخادم والسيد وأن يتعاملا بوصفهما زوجين لا خادمين ، في وقت كان يوسف يعترف بها خادمة لا سيدة . وهذا سر حقدها عليه. وبعد ان أحب يوسف ممثلة جميلة اسمها "سامية" احست مبروكة ان سامية هزمتها لا سيما بعد ان تقدم بها الزمن. فالرواية رواية شخصية رصدت تجربتها ، لا ترى فيها صورة المجتمع بابعاده . بدا اثر الزمن في حياة مبروكه ، الزمن الذي جعلها تخدم في بيت عبد الحميد السويفي ويتزوجها اخيرا ، الزمان الذي جعلها تغار من سامية الجميلة بعد ان تقدم بها،الزمن لم يبرز في الرواية واضح الأثر في حياة جيل او مجتمع ، ولا يشير هذا الجزء الى حقبة معينة من تاريخ مجتمع معين ولا يتعرض الى هموم عامة سوى اشارة عابرة الى الحرب العالمية ، من غير وقوف ولا بيان لاثارها في الحياة . انه رصد لتجربة شخصية فردية لا تحمل هموما عامة عاناها جيل معين. وجاء الجزء الثاني "سامية" على لسان سامية الجميلة التي كان جمالها نقمة عليها في عالم الفن والسنما ، وقد حقدت على يوسف الذي خطيها وسافر ليلة الزفاف، ولانه وصولي ورخيص القلم كان يهاجم اعداء شهدي باشا ، وكان شهدي هذا عدو محمد ناجي ، فمثلا الصراع بين الرأسمالية والشيوعية اما اسرة"سامية" فاسرة فاسدة اشبه بالغرباء انزلقت في عالم الرذيلة . و في الجزء الثالث "ناجي" من الرباعية برز امامنا فجأة دور الزمن واضحا الزمان الطبيعي ودورد في صياغة المصير البشري من غير ان نحس ان هذا الجزء مرحلة مكملة للسابقين او انه حلقة من بين عدة حلقات ، فالرباط بين هذا الجزء وما قبله ليس متينا ولا يحمل هذا الجزء ملامح جيل في حياة المجتمع المصري ولا يكشف امامنا

١- الرجل الذي فقد ظله : "مبروكة ، سامية ، ناجي ، يوسف" الشركة القومية - للتوزيع بمصر . (بلا تاريخ)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الحياة العامة . فالشخصيات ليست رموزا لاجيال و ليس لديها فكر او معتقد او رؤيا بل يكشف بعضها عن عالم التذاق وعالم السينما وعالم التجار والاغنياء الذين يستغلون الفقراء والمحتاجين . ولا نتلمس في هذا الجزء مرحلة حضارية او تاريخية تكمل الحلقتين السابقتين . تزوج محمد ناجي الغني وعمره ستون عاما من سامية الجميلة ابنة العشرين وسافر الى باريس وتذكر ماضيه حين كان رئيسا للوزراء يسعد بلقائه الآخرون اما الآن وبعد تقدم الزمن فقد احس بالكبر وتراجع مكانته وتذكر شبابه في قوله متحسرا "منذ خمس سنوات فقد كنت ادير الطاحونه الكبيرة اطحن الناس استحقهم . اعجنهم في الحبر والورق ،كنت خباز البشر وصانعهم . الخبزالجيد من صنعي ، الخبز المعروق من صنعي ، حسنا، سقطت من مكاني ، اصبحت مثل بقية الناس ، ارتدي نفس البيجاما التي يرتدونها ، مهدد بلا حراك، تطحنني الطاحونة . يوسف هناك يدير الطاحونة" [١] . وطحنته الطاحونة وهو هزيل الجسم زائغ البصر مشتت العقل بفعل الزمن وقال"لا احد يواصل الصعود ، كل من وصل الى فوق لا بد ان يتدحرج الى تحت" و "لا تزاحموني ، هذا الشارع يلفظني ، ينظرون الى شزرا لا مكان لشيخ عجوز" [٢] وعلى الرغم من احساسه بأن الزمان هو الذي حدد علاقته بيوسف وسامية الشابين الا اننا لا نحس بصراع بين جيلين ولا بفكر نابع من هذا الاختلاف بين الجيلين ، ولا يحمل اي منهما فكرا يمثل جيلا يدافع عنه . وصرحت سامية انها تضيع شبابها مع زوجها العجوز ، فأحس بالسقوط و الضعف وان يوسف يرتفع ، وصار يرى النهاية في كل شئ ، وحين عادا الى مصر احس العجوز بخيانة سامية من خلال علاقتها بيوسف ، وقد المته في قولها"انت ناسي انك عجوز، متجوزتك على ايه ، مستحملاك على ايه ، مضيعة معك شبابي "[٣] . و لا يخرج الجزء الرابع الذي يرويه "يوسف" عما سبق ، وبوجه عام ، لا تتوافر في هذه الرباعية سمات رواية الاجيال الفنية .

١- الرجل الذي فقد ظله "ناجي" ص ٦٣
٢- السابق ص ١١٨
٣- السابق ص ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول
أجيال في ثلاثية نجيب محفوظ

"أوسعوا الطريق للأبناء فقد شبوا"

السيد أحمد

قصر الشوق "١٢"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الاول

أجيال في ثلاثية نجيب محفوظ *

تصور الثلاثية من خلال حياة اسرة من الطبقة الوسطى , اسرة السيد احمد ثلاثة اجيال متعاقبة مرت في مرحلة تحول خطيرة في تاريخ الفكر المصري السياسي منه والاجتماعي. دارت احداثها في ثلاثة احياء قاهرية حملت اسماء اجزائها الثلاثة في ما بين ١٩١٧-١٩٤٤,نهض كل جزء بتقديم جيل معين , فقد قدم جزء الرواية الاول ."بين القصرين" الجيل الاول من خلال شخصية الاب السيد أحمد وعلاقاته بأسرته وبمن اتصل بها وبأصدقائه ابناء جيله, في حين قدم لنا الجزء الثاني (قصر الشوق) الذي دارت احداثه فيما بين ١٩٢٤- ١٩٢٧ جيل الابناء (ياسين , فهمي , كمال, خديجة,عائشة) ومن اتصل بهم, حيث يصبح دور الجيل الاول ثانويا قياسا لدوره في الجزء الاول . ويسلط الضوء على امل الامة الاحفاد الذي عاش اصطراع القيم والتقاليد والافكار. وعكست الرواية قضايا الحياة المصرية العامة وما كان يشغل كل جيل من قضايا , ورسمت لنا صورة واضحة عن حياة المجتمع العربي , عاداته وعلاقاته وافكاره وطباعه وتقاليده وآماله والامه, وبينت اثرالزمن ودوره في الحياة وما كان يسود المجتمع من تيارات فكرية .

اتخذ المؤلف من عام ١٩١٧ بداية الزمن الروائي , ولذلك دلالته الخاصة ، اذ اقترن بوعد بلفور و بالثورة الروسية و انفتاح مصر على الثقافات و التيارات الوافدة و اقتراب نهاية الحرب العالمية الأولى و ما خلفته من أزمات , وتوجه وفد مصري يطالب بالاستقلال فجاء رد بريطانيا باعتقال سعد و نفيه .

و قد تأثر نجيب محفوظ بالقصص النهرية التي تؤرخ لأجيال متعاقبة , و اتخذ بعض شخصيات قصصه نماذج أجيال مصرية متعاقبة في ثلاثيته (١) هذه التي ارادها أن تكون رواية أجيال عربية .

---

* اعتمدت هذه الدراسة على ثلاثية نجيب محفوظ :
١- بين القصرين , نشر مكتبة مصر , الفجالة (بلا تاريخ).
٢- قصر الشوق , نشر مكتبة مصر , الفجالة (بلا تاريخ).
٣- السكرية , نشر مكتبة مصر , الفجالة (بلا تاريخ).

١- د. محمد غنيمي هلال : الادب المقارن ص ٢٤٦ وانظر كتابه : النقد الادبي الحديث ص ٥٤٠ , ٥٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما جوهر الرواية الرئيسي فهو صراع الحرية بمختلف أشكالها ؛ السياسية منها و الوطنية و الفكرية و الإجتماعية مع التقاليد ، أو بين الجيل القديم و الجيل الجديد أو بين العادات الموروثة و التقاليد الثابتة و بين التيارات الوافدة من انتشار التعليم بين أبناء الجيل الجديد.

عرض محفوظ حركة المجتمع المصري ومشكلات العصر على امتداد ثلاثة أجيال مستخدما روافد مستخدما روافد نهرية أعانت المجرى الرئيسي على السير . و أبرزت الثلاثية أسرة السيد أحمد رمزا إنسانيا صادقا لتطور المجتمع المصري من مختلف الإتجاهات.

تتألف أسرة السيد أحمد من ثلاثة أجيال :

١- الجيل الأول : جيل الأب (السيد احمد و أمينة)

٢- الجيل الثاني : جيل الأبناء (ياسين ، فهمي ، كمال ، خديجة ، عائشة)

٣- الجيل الثالث : جيل الأحفاد (أحمد ، عبد المنعم ، رضوان)

سنتعرض في حديثنا القادم الى حوار الجيل مع نفسه ومع غيره، وأهم القضايا التي شغلت كل جيل وموقفه ازاء القضايا العامة والخاصة ، وطبيعة هذه العلاقات ، هل هي علاقات اتصال وامتداد ام انفصال وصدام ؟ وتبين أثر الزمن ودوره في تغيير الأفكار والسلوك والمواقف ، وتنطلق من الأسرة الصغيرة الى الاسرة الكبيرة ونرصد تحولاتها العامة ، ذلك ان اسرة السيد احمد هي رمز المجتمع المصري.

الجيل الاول ١- ماض ثابت

شغل هذا الجيل جزء الرواية الاول (بين القصرين) الذي دارت احداثه في ما بين ١٩١٧-١٩١٩ ، عرض المؤلف فيه الشارد ومواقفه . والسيد احمد حلقة من حلقات متصلة ممتدة وجيل في مواكب الاجيال متطور عمن سبقه ، تمرد على جيل والده الذي كشف عنه حديث الشيخ متولي الى السيد احمد حول ولع الاخير بالنساء .

١- د. عبد المحسن بدير: الاتجاه الواقعي في الرواية العربية الحديثة في مصر .ط١. دار المعارف القاهرة ١٩٨١ ص ٢١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كشف المؤلف عن شخصية السيد احمد حين سلط الضوء على رفقائه ابناء جيله من مثل محمد . عفت وعبد الرحيم وابراهيم الفار وغيرهم . ويرى يوسف الشاروني فيه نموذجا لرب الاسرة في المجتمع الابوي الذي يحرم على اسرته اي لون من الحرية (١) . وهو صورة صادقة حية دقيقة لرجل اول القرن العشرين في المجتمع المصري(٢) . وحضوره الواضح في بين القصرين " هو حضور للقيم والمعتقدات التي يمثلها .وتتمحور حول التمسك بالقديم ورفض محاولات تغييره . فكان السيد يحق جماع مرحلة اختزلت في شخصيه . اراد المؤلف من خلاله ان يحلل مفاهيمها وتقاليدها . في شخصية اجتمعت متناقضات قيم عصروتقاليد اكتسبت صفة الثبوت عبر الزمن . مما دفع الجيل الجديد الى الثورة على الثوابت والموروثات الراسخة. فطرحت شخصيته مفاهيم سائدة ومقبولة في جيله شملت الدين والاخلاق والعادات الاسرية والاجتماعية (٣).

اول ما يطالعنا في شخصية السيد احمد تناقضها وازدواجيتها : صرامة وعبث . تزمت وانفتاح. داخل الاسرة وخارجها . فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته ,ولا اهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس . وبدت شخصيته(٤) كلوحتين عكستا جوانبها. شخصية حكمت الاسرة بخوف ونظام صارمين . وقد اثر هذا الانقسام على تصرفاته. فعكس صورة جيل عاش في مجتمع اسلامي بدأت تغزوه طلائع الحضارة الاوربية . فتردد بين حضارتين متصارعين. وراى بعض ابناء ذلك الجيل النهضة في العودة الى الماضي والتراث . في حين راى اخرون بضرورة الاخذ بكل ما هو غربي شالص(٥) وهكذا فإن شخصية السيد احمد المتناقضة عكست موقف جيل متردد عاش مرحلة تناقض.فقد وقف السيد احمد عند المشاركة العاطفية واكتفى بالتوقيع على التوكيل الشعبي وتقديم المال . وعندما تفى الزعماء تملكه الجزع .

١- يوسف الشاروني : الروائيون الثلاثة: نجيب محفوظ . يوسف السباعي. محمد عبد الحليم عبدالله. الهيئة المصرية .العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٠ ص٣٩

٢- د. ماهر حسن فهمي : ثلاثية نجيب محفوظ . حولية كلية البنات. عدد٤. جامعة عين شمس ١٩٦٤.ص٦

٣- د. سليمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ط ١ . ١٩٧٦ ص ١٥١ . ١٥٢،١٥٦

٤- د.ماهر حسن فهمي : ثلاثية نجيب محفوظ ص٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يساعدنا في الكشف عن شخصية الأب أن نقف على علاقته بزوجه أمينة وبأبنائه وبناته.

تمثل امينة الطاعة والضعف والانصياع والارادة المفقودة . فكأنها لم تخلق إلاّ لخدمته . و امتلأت مخيلتها بأحاديث العفاريت والشياطين التي روتها لها العجائز وهي صغيرة مما جعلها تألف معاشرة الأرواح مع تقدّم الزمن ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود السيد احمد على الرغم من قسوته واستبداده . وتبدو علاقته بزوجه القائمة على القهر والاستكانة فيما صوّره المؤلف في مفتتح الجزء الاول إذ يقول " ولكي يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة معها خادمتها مادة يدها بالمصباح امامها فتلقي في اركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بأحكام ، واحدة بعد الأخرى مبتدئة بالطابق الاول مثنية بالطابق الاعلى وهي تتلو ما تحفظ من سور القران دفعا للشياطين . ثم تنتهي الى حجرتها فتغلق بابها وتندس بالفراش ، لسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم ، ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الاول بهذا البيت ، فلم يغبْ عنها - هي التي عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الانس - أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وان الشياطين لا يمكن ان تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل ان تحمل هي الى البيت ، بل قبل ان ترى نور الدنيا ، فكم دبّ الى اذنيها همساتهم! وكم استيقظت على نفحات أنفاسهم وما من مغيث إلاّ أن تتلو الفاتحة والصمدانية او ان تهرع الى المشربية فتمدّ بصرها الزائغ من ثقوبها الى انوار العربات والمقاهي وترهف السمع لالتقاط ضحكة او سعلة تسترد بها انفاسها .... وقد خطر لها مرة ، في العام الأول من معاشرته ، ان تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدّب على سهره المتواصل فما كان منه ! لا ان امسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة : أنا رجل ، الآمر الناهي ،، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة فحاذري أن تدفعيني الى تأديبك فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شئ حتى معاشرة العفاريت-الا ان يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرها . ووقر في نفسها أنّ الرجولة الحقّة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرها أويحزنها وظلت على جميع الأحوال الزوجية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحبة المطيعة المستسلمة"[١] . هذه العلاقة القائمة على الذل من جانبها هي استمرار لتقليد راسخ جعلها ترى في كل ذكر سيدا لها، وتتكس علاقته بها موقفه من المرأة عامة و لم ير فيها سوى جسد ولم ترتفع رؤيته لها الى مستوى المشاركة . اذ قال لها ذات مرة " ما انت الا امرأة ... وكل امرأة ناقصة عقل "[٢] وقال " ان غواني اليوم هن جواري الامس" "[٣]" . فالمرأة تابعة منقادة تحقق وجودها في " التلاشي في ارادة الرجل الحصين الذي قسمته الاقدار" فأمينة ليست حالة فردية بل نموذج لاداب مجتمع الطبقة الوسطى . وما تقوم به هو نمط سائد في تلك البيئة . والعيب ليس فيها بل في الظروف الفكرية والاجتماعية السائدة "[٤]" . وقد اختلت القيم واضطربت نتيجة هذه العلاقة . فصار الكذب طبيعيا في اسرة السيد .

وهكذا مثل السيد احمد وزوجه جيل ما قبل ثورة ١٩١٩ اذ بدا الخلل في علاقة الجيل مع نفسه . مما يعني عدم التوازن في ميزان الحياة العامة فسيطرة الاب وقوته وبطشه تقابلها استكانة الام وقهرها وذلها .ولذلك انصب الهدم والتخريب على القيم التي مثلها السيد احمد . في حين استمرت قيم الام عبر الاجيال فمثلت الاستمرار والامتداد "[٥]"

تعكس علاقة السيد بأمينة قضية المرأة التي كانت مطروحة .تطالب بحقوقها المشروعة وبتحررها من شتى صنوف الهيمنة . وحققت ما أرادت عبر الزمن مما سنجد اثاره واضحة في الجيل الثاني والجيل الثالث من خلال طالبات الجامعة ونموذج سوسن حماد وعلوية صبري . وظلت المرأة في الجيل الأول بوجه عام اسيرة البيت لا سيادة لها الا في مطبخها ! تتفانى في خدمة زوجها لتنال شكره "[٦]" . وهي تدين بالولاء والطاعة لذكور الاسرة كافة . وترى في ابنها الصغير كمال" سيدها الصغير" "[٧]". مما يعكس واقع المرأة ودورها في المجتمع المصري . تلمس ذلك في اسلوب خطاب امينة لزوجها الذي يعكس الحواجز العالية بينهما وثقل وطأة الرجل على امرأة الطبقة الوسطى المصرية حين تقل اليها فهمي رغبته في خطبة مريم قالت لزوجها باسلوب طويل وبصيغة من الاحترام والتحوط والحذر " سيدي . اذا اذنت لي حدثتك عن شأن رجا في فهمي ان ابلغك ايادا. فهمي يسأل يا سيدي هل يجيز له والده ان يخطب مريم كريمة جارنا السيد محمد رضوان لتبقى

١- بين القصرين ص ٧ ، ٨
٢- بين القصرين ص ١٤٩
٣- السابق ص٤٢
٤- صوفي عبدالله المرأة المصرية في ثلاثية اجيال عند نجيب محفوظ . الهلال عدد ٦، يونيو ،القاهرة ١٩٧٤ ص ١٢٠، ١٢٥
٥- د. سليمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ص ١٥٩
٦- بين القصرين ص١٨
٧- السابق ص١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على ذمته حتى يصير اهلا للزواج؟"[١] وفجأة علا صوته صائحا لا عهد لي ولا له بهذا التذلل المائع . لا ادري ما الذي اكلف تلميذا حتى يتمادى في مطالبة الى هذا الحد ؟ لو كنت انا كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح. وسيذ عن لاوامري . انك ام ضعيفة . هل رآها ؟ لاحسب ان لي ابناء يسترقون النظر الىحرمات الجيران . معاذ الله يا سيدي , قولي له ان يتأدب ويلزم حدوده وان من الخير ان يتفرغ لدروسه"[٢] . فهو يعتقد ان الابوة الحقة تفرض ارادتها على الابناء وتحول بينهم وبين المطالبة ببعض حقوقهم واي تجاسر انما يدخل في دائرة الهذر وضعف الاب والام . غير ان مطالب فهمي خطوة متطورة جريئة في ان ياخذ الجيل دوره وحقوقه . ويعكس موقف السيد بعض القيم الاجتماعية والاخلاقية والادبيات التي تحكم علاقته بجيرانه ، على ما تنطوي عليه دخيلته من فساد . ويبرز هذا شخصيته المزدوجة المتناقضة مثلما يبرز اثر البيئة ودورها في توجيه سلوكه وممارساته. ويتضح لنا ان معيار علاقته بابنه يستند الى خبراته في الماضي التي نبعت من واقع علاقة والده به ايام كان طفلا . على الرغم من اختلاف الجيلين والمرحلتين .مغفلا دور الزمن في التغير الاجتماعي والفكري والسلوكي .

ومثلما كانت الام رسول فهمي الى أبيه لتخطب له مريم كانت رسوله ايضا لتبلغه رغبة ضابط قسم الجمالية في خطبة عائشة. وبالنظام القاسي نفسه " سيدي حدثني فهمي قال : ان صديقا رجاه ان يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة" "٣" فثارت ثائرته اذ وجد في هذا تهديدا لمعتقدات جيله وتقاليده . ولهذا ايضا رفض ان يزوج ابنته الصغرى عائشة قبل الكبرى خديجة .قال يؤكد ذلك "قررت منذ زمن ان هذا سابق لاوانه" ... من يستهين بخديجة فكأنما استهان بشخصه ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته وصاح : ما رأيك ؟ قالت : رأيي رأيك . فقال : ما انت الا امرأة وكل امرأة ناقصة عقل . والزواج يفتنكن عن الرشاد ... لم تقع عينا احد على ابنتي, ولن تنتقل الى بيت رجل الا اذا ثبت لدي ان دافعه الاول منها هو رغبته الخاصة في مصاهرتي... انا ... انا "٤" . وهكذا فان ارادة الاب ارادة طاغية مستبدة مقابل الام المطيعة المسكينة . انها علاقة احادية يحكمها رأي واحد وارادة واحدة. غير أن الام كانت تطمع الى شئ من حريتها الانسانية بعد ان طال مكوثها في البيت مما أنساها العالم الخارجي فأبدت الاسرة رغبتها وارادتها حين قررت مجتمعة الخروج لزيارة الحسين اثناء غياب السيد ادراكا منها ان ذلك من حقوقها الطبيعية . فكان خروجها طفرة

١- بين القصرين ١٢٣
٢- السابق ص ١٢٤
٣- السابق ص ١٤٨
٤- السابق ص ١٤٩- ١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزعت اليها الام لتكسر نظام حياتها وتطالب ببعض حريتها والقيام ببعض واجباتها "١" . كانت ارادتها تلك ثورة جماعية على ارادة الاب الغائب . ويشاء القدر ان تتعرض الام الى حادث اقعدها الفراش . مما يشير الى ان محاولات المرأة المصرية لنيل حقوقها قد تعثرت وترددت خطواتها فكانت حركة غير واعية وغير مدروسة في بدايتها . وكان الزمن كفيلا بتحقيق ما تصبو اليه اخيرا . وتحولت قضية الاسرة- بهذا الجنوح عن الارادة - الى البحث عن كيفية مواجهة الاب. وابتعدت عن البحث في القضية الرئيسية . قضية واقع المرأة ومصيرها . وتوهمت الام انه ربما يؤدي ما آلت اليه الى ان يشفق على ضعفها . لكن خاب ما توقعت اذ طردها "غادري بيتي بلا توان" ولم ينفع توسلها واعتذارها فقال : الزمي فراشك حتى يأخذ الله بيدك . وأحست الاسرة ان في هذا الحوار تطورا في النظر والمعاملة . ذلك ان حسن الاستماع والامتناع عن التهكم تكريم لها. مما حدا بخديجة ان تعزو ذلك الى بركة الحسين التي شمل بها الاسرة . واطمأنت الام ورغبت لو ان سيدها يعدل عن سيرته غير انها التمست له عذرا حين اطمأن عليها . وأحست انها بهذا احتلت مكانة محترمة لديه . لكنها فوجئت بقرارد الجبار العاصف بعد ايام، قرار الطرد من البيت "٢" . ذلك انه ادرك ان في نزوعها نحو الحرية تحديا لارادته وجبروته وكبريائه. ووجد انه حين لبى نداء العطف والعفو أضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده "لا أحب ان اجدك هنا اذا عدت ظهرا". وهكذا فان سيرة المرأة سلسلة من القهر والذل يتحكم في مصيرها الرجل مثلما يتحكم في مصير مصر الاستعمار الاجنبي . وغادرت امينة البيت حزينة . مزمنة متفائلة بعودة كل شئ الى أصله "٣". وحين عادت الى بيتها مارست مهماتها المعهودة وأحست انها تسترد أعز ما تملك في الوجود ولعل في السماح لها بالعودة وسؤاله عن حال والدتها وابلاغها ان زوج شوكت طلبت يد عائشة ما يشير الى ان تحولا طرأ في علاقته بالمرأة . فاكتسبت عنده بعض سمات الآدمية حين خاطبها مخاطبته لكائن حي عاقل . وينهض دليل آخر على تطور معاملته لها عندما ابلغ أمينة بما دار بين ياسين وام حنفي . فكان ذلك ارتقاء بها وانها احتلت لديه مكانة جديدة اذ صار لها دور ورأي. وظلت امينة مخلصة في واجباتها .

كان زواج كل من عائشة وخديجة عهدا جديدا من الحرية في تاريخ الاسرة . فالاختلاط الاجتماعي وكسر الحواجز الطبقية والثقافات الجديدة عوامل دفعت المرأة الـــى

١-بين القصرين ص ١٥٨

٢- السابق ص ١٧٩- ١٨١

٣- السابق ١٨٨و١٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطالبة بحقوقها بعد ان ازداد وعيها، فزواجهما ادخل الحرية الى بيت السيد احمد مثلما ان الاطلاع على خبرات الاخرين وثقافاتهم زاد من بصيرة المرأة ووعيها . لكنها لم تتحرر كليا، اذ جاء تحررها تدريجيا عبر الزمن . وحدثت النقلة الكبيرة حين جاءت عائشة مع زوج شوكت لتطلب يد خديجة من امينة ، مما يبشر بدور متطور للمرأة ، وسرعان ما زفت البشرى الى زوجها الذي عاد ليلا ، فتلقاها بسرور بالغ وأخبرته ان الخاطب رآها اثناء زيارتها بيت عائشة فخافت امينة وناجته مناجاتها لمقدس ، ذلك ان مصيرها مربوط بوالدها مثلما ان مصير مصر مربوط بالاستعمار . وترى امينة أن طاعتها لزوجها عقيدة تؤمن بها وتنصارع لها ، مثلما ان على الابناء – حتى من تزوج منهم – الانصياع لارادته فذلك معيار رجولته التي تحدرت اليه من أجيال سابقة فحين خرج ياسين وزوجه ليلا احتجت امينة ، مما يشير الى ان الجيل الاول " الرجل والمرأة " قد حرص على حماية تقاليد المجتمع الراسخة امام محاولات التغير التي أبداها الجيل الثاني، مثلما يشيرالى انه في الوقت الذي كانت فيه حركة المجتمع ترنو الى التغير والتقدم كانت تحافظ فيه على القديم وترعى اصوله. واستنكرت امينة ما فعله ياسين " ألم يعد يعمل حسابا لأبيه"؟ "١" . وتطورت علاقتها بزوجها عبر الزمن . فتقدمت له بالنصح حين أبدتعدم ارتياحها لمرافقة رجال العائلة السيد الى مسجد الحسين وباحت له بذلك , لكنه لم يستسلم لخوف . ونلمح تطورا في اسلوب خطابه اذ تحولت صيغة الكلام من المفرد الى الجمع . مما يشير الى انه ادرك ان المصير واحد وأن عوامل الاتفاق اكثر من عوامل الانفصام والاصطدام.

وبزواج ياسين زادت مساحة حرية الاسرة .. اذ لعلعت الزغاريد لأول مرة في ارجاء البيت, وعلى مسمع من سيده الجبار , على الرغم من قرار الحظر الذي قضي ان تمضي ليلة الفرح كغيرها من الليالي(٢) . وهكذا فان اختلاط الدماء والاختلاط الاجتماعي والثقافي وازدياد الوعي والتجربة ومرور الزمن عوامل ساهمت في تغير المجتمع المصري الاجتماعي منه والفكري والثقافي ، وفي اسلوب حوار الجيل مع نفسه.

وقد حملت الاسرة هموم السيد وقضاياه الخارجية . وقفت معه امام الخطر الأجنبي فحين اعترضه جنود انجليز اجتمعت الاسرة في مجلس الام التقليدي وحزنت على ما أصابه من ذل وهوان, وهو مثال الرجولة الحقة (٣) , وكانت هذه الحادثة منعطفا هاما في معاملته لأسرته اذ احس ,وهو القوي بالضعف امام قوى أقوى منه , فكانت درسا

١- بين القصرين ص ٢٩٤
٢- السابق ص ٢٨١
٣- السابق ٤٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعظه له, وأدرك ان هذه القوى أحلته في موقع اسرته منه , فقد ذاق الخوف الذي يذيقهم اياه كل يوم . ومثلما كان للفرح الذي ساد جو الأسرة بزواج كل من عائشة وخديجة وياسين ونجاة السيد من الجنود اثر في شيوع الحرية في الاسرة فقد كان لخبر الافراج عن سعد اثر في شيوع جو الفرح والحرية في المجتمع الاكبر .مما يعني انه في الوقت الذي نالت فيه الاسرة قسطا من حريتها فان مصر نالت جانبا من حريتها . وهكذا يتناغم العام مع الخاص , فرقصت الاسرة وزغردت النسوة وهتفن, ذلك ان الحرية اهزوجة الحياة وسر بقائها وامتدادالاجيال وتعاقبها , وكان لقوله (مضي عهد الخوف والدماء الى غير رجعة , سعد حر طليق)(١) نهاية مرحلة مرت بها الاسرة والمجتمع المصري .

وفي الجزء الثاني (قصر الشوق) شمل عهد الحرية الابناء , فلم يجد السيد غضاضة في ان يستجيب لآراء ابنائه(٢)واتسعت دائرة الحرية التي تمتعت بها الاسرة باتساع حرية مصر , ذلك ان الثورة حققت بعض مكتسباتها , فاستشهاد فهمي زاد من افاق حرية الاسرة بزيارة قبره الاسبوعية اذ مضي مع ابناء جيله لتخليص البلاد من الاستعمار والرجعية . وساهمت المرأة بما حققته من حرية بحل مشكلات الاخرين , فشاركت امينة بحل مشكلات نشبت بين خديجة ووالد زوجها"٣" وبزغ فجر وعي جديد بين جيل السيد احمد حمل طابع الاحتجاج على اسلوب السيد اذ قال محمد عفت للسيد مداعبا انه يصر على حكم اسرته بالحديد والنار في عهد الديمقراطية والبرلمان , فرد السيد احمد " الديمقراطية للشعب لا للأسرة "وقال له علي عبد الرحيم ايضا "اتظن انه يمكن التحكم بالطريقة القديمة في شبان اليوم ؟ اولئك الذين اعتادوا الخروج للمظاهرات والوقوف في وجه الجنود ""٤" لكن السيد احمد لا يقبل ان يجمع ابناءه ويستشيرهم في قضية ما , مما يشير الى ما كان يعتمل داخل المجتمع المصري من توجه نحو الديمقراطية والحرية . وكان الزمن هو الذي منح الحرية للعائلة بسخاء , وتحول السيد احمد من رجل قوي مستبد الى رجل عاجز حنون يعاتب ابناءه اذا تخلفوا عنه بالزيارة .

١- بين القصرين ٤٥٧
٢- قصر الشوق ص ٢٣ -٢٤
٣-قصرالشوق ٢٣٩
٤- السابق ٤١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الجزء الثالث السكرية بدا عجز السيد وانحداره وضعفه بوضوح , كان حريصا على الالتقاء بالاحفاد في اجتماع يعقد كل يوم جمعه , حيث تعود الفروع الى الاصول وكان السيد مسرورا بذلك ويزداد تعلقا كلما امتد به العمر وتقدم"١" ووظبت امينة على وفائها لزوجها , اذ ظلت تنتظره ريثما يعود والمصباح في يديها , وانقلب الوضع عبر الزمن اذ صار يمضي في اثرها بهدوء وهالة من وقار الشخوخة البيضاء عند عودته من السهر"٢" .

وهكذا اقعد الزمن السيد وكلبه بقيود حتمية لا يستطيع انفكاكا ذلك انه ليس لادمي اراده فيه , واذا كان فرض ارادته وجبروته وسطوته على اسرته فقد فكها الزمان منه وخلصها رغما عنه , وصار عاجزا ان قضية هذا الجيل الاساسية هي قضية الحرية والنضال من اجل الاستقلال.

٣- السكرية ص٢١
٤- السابق ص١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢-حوار جيـــلين : الماضي والحاضر

بعد أن قدمنا حوار الجيل مع نفسه ومثله التي يحرص على ترسيخها نقدم الآن حوار جيل الآباء مع الأبناء ، لالقاء الضوء عليهما وعلى شكل علاقتهما وتطورهما عبر الزمن نرحل معهما عبر أجزاء الرواية المتوالية.

ا- الصراع الاجتماعي (أحمد وابنه ياسين)

يطالعنا ياسين في (بين القصرين) وعمره احدى وعشرون سنة ، والدته فاسدة الأخلاق ، علاقة السيد بابنه ياسين لها طابع خاص ، فهو موظف وأكبر اخوته سنا مما أهله ان يتمتع بصفات رجولية لم يتمتع بها باقي اخوته (١). كان ياسين رجلا فحلا ادرك ان والده يعامله معاملة تختلف عن اخوته ،وان زخرت ذاكرته بصور شتى من قسوته ايام كان تلميذا .فقد منحه الزمن مزية الاحترام لم يكن يتمتع بها في صغره .في شخصيته جوانب مزدوجة ومتناقضة كشخصية والده ، فسلوكه امام والده غيره في غيابه ،(٢) وكان السيد يعطف على ابنه ياسين خاصة ، لما ورثته له سيرة والدته من الام شديدة جعلته كسير النفس ، فوجد الوالد في العطف والحدب عليه رحمة لضعفه , وتلك قضية التقى حولها الجيلان يتبادلان الرأي والمشورة , فأحس بالقرب من والده . ذات مرة زار ياسين والده زيارة غير مألوفة , وخاطبه بتأثر" السلام عليكم يا أبي جئت لاحدثك في أمر هام ", رد عليه ." خير إن شاء الله" وأمره بالجلوس(٣) وبدأ ياسين متأثرا وزفر ثائرا وقال :" المسألة ان امي شارعة في الزواج "ولعل ضعف ياسين امام والده اعتراف بقدرة السيد على مواجهة المشكلات وحلها، ولقد عز على الاب ان يرى ابنه ضعيفا , ووجد نحوه رثاء وعطفا مثلما عز عليه ان يقف من آلامة عاجزا وهو الذي يقصده الناس في الملمات , وكأن زفرة الابن تقول لوالده"إنك ابي الجبار القادر فمد لي يدك"(٤) وتحاور الجيلان حوارا نديا فقال السيد احمد اعذرك على غضبك لكن قليلا من العقل حري ان يردك بلا عناء , سائل نفسك ماذا عليك من زواجها ؟(٥) وكان هذا الحوار الهادئ العاقل المتزن هو اليد التي مدها الجيل الأكبر الى الابن , مثلما كان اعترافا بوجود الجيل الأصغر , واخيرا اخذ ياسين برأي والده في محاولة اقناع والدته بالعدول عن الزواج لأن ذلك يخالف الأعراف والأداب التي نصب السيد نفسه احد حراسها المحافظين عليها وكلاهما احتـــــــــــل لـــــــــــدى الاخـــــــــــر مكانـــــــــــة

١- بين القصرين ص ٥٦
٢- السابق ٦٧ , ٦٨
٣- السابق ص ١٠٠
٤- السابق ١٠٢
٥- السابق ص ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرضاها، قال السيد لابنه بود"أراك على حق يا بني فيما تقول"(١) وعندما اقتنع ياسين برأي والده قال" كما ترى يا أبي"(٢) وقد قدمت لنا هذه القضية نموذجا في اتصال الأجيال وفي انفصالها في الوقت نفسه ,ذلك ان موقفه من والده يختلف عن موقفه من والدته ، فالأم القاسية – كما يقول –خليقة ان تلد ابنا قاسيا "٣" وخاطبها يقوله 'يا لك من امرأة مجرمة' "٤" بعد ان عرف انها عقدت عقد الزواج .

وكان لدى هذا الجيل افكار لا تتفق وافكار جيل الأب ، فلم يقتنع ياسين بوجاهة الرأي الذي يحتم زواجا قبل زواج ، لكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رايه أمام والده الذي يزمن بكل ما انحدر اليه من الماضي وتقاليده وعاداته ."٥" وكان ياسين هو صاحب فكرة الثورة الجماعية على ارادة الأب الغائب بزيارة الأسرة للحسين "٦" ، وامتلك ياسين من الحجة ما جعله يحتج على سلوك والده وكان معيارة منطقيا واقعيا ينسجم مع قيم عصره فكثير من اصدقاء والده الغياري لا يرون بأسا في السماح للنساء بالخروج .ولماذا يقيم هو سجنا مؤبدا في البيت ؟ "٧" وحين أكتشف سيرة والده الخفية وعلاقته بزبيدة تمتع بقسط وافر من الحرية ، اذا التقيا في بيت زبيدة بحضور زنوبة، "٨" فسار على خطا والده ، واستأنس الى الشبيه ، الى ابيه قدوته ، لكنه – وعلى الرغم من هذا الكشف ظل يحترم والده ويحبه ، فهما روح واحدة على ما بينهما من فارق في السن والتجربة هنيئا لك يا والدي . اليوم عيد ميلادك في نفسي ، يا له من يوم ويا لك من أب . لم أكن قبل الليلة الا يتيما ... اني فخور بك ، هل تقني ايضا يا ترى ؟ "٩" وجعله هذا الكشف ينحو نحو التهكم والاحتجاج على تصرفات هذه الشخصية المتناقضة "الى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تغني في بيتنا ،اسرة عريقة في الطرب، ليتني اسمعك مرة واحفظ لك في ذاكرتي سوى الزعيق والنهر غنوتك الوحيدة المشهورة يا ولد يا ثور يا كلب " "١٠" وعلم ياسين ان جليلة هي مغامرة اخرى في حياة والده . وراى في هذا جانبا من الرجولة

١- بين القصرين ص١٠٤
٢- السابق ص١١٣
٣- السابق ص ١١٣
٤- السابق ص ١١٤
٥- السابق ص ١٤٧
٦- السابق ص ١٥٨، ١٥٩
٧- السابق ص ١٨١
٨- السابق ص ٢٣٨
٩- السابق ص ٢٤٠
١٠- السابق ص٢٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي أعجب بها "١"، وتتبع خطاه في لهوه وعبثه . لكن جيل السيد لا يهادن ولا يستسلم لزاء سلوك ينتهك تقاليد البيئة وثوابت الماضي ورواسخه حتى لو صدر من ابنه ياسين . فقد عنفه حين انتهك واحدا من مبادئه ومعتقداته التي ترى في الحفاظ على حرمة جيرانه عنوانا من عناوين الشهامة والكرامة والسمعة الطيبة . والرجولة معيار من معايير علاقة ياسين بوالده . فمن الرجولة ان لا يتحدى والده . مثلما ان منها ان لا يعرض والد رجولة ابنه لمساءلة قاسية لا سيما انه عرفه في بيت زبيدة . وأخيرا قرر السيد ان يزوج ياسين دون استشارته . وحنق على الظروف التي جعلته يلقاد بجانب دمث فما كان من ياسين الا الانصياع لارادة الاب حفظا لكرامة والده . وقال "الراي رايك يا بابا ؛ وما دام انها ارادتك فاني موافق "٢" ولعل في استخدامه كلمة "بابا" ما يشير الى انصياعه وسيرد في اثر خطى والده. ووقف السيد الموقف نفسه من ياسين حين تعرض لجارية زوجه "نور" في غيابها ، اذ عنفه واحتج على سلوكه بالألفاظ والصمت الموحي المغني عن الركل واللكم ، ومنعه منه تقدمه في العمر واستواؤه رجلا ، ذلك انه بفعله هذا انما يتحدى والده وجيله" أنت تتحداني تحت سمعي وبصري ! اذهب انت وخزيك الى جهنم ، هيهات ان يتطهر بيتي ما دمت فيه ، اي عذر لك بعد الزواج "؟"٣" ونسي السيد انه يحرم على غيره ما يحله لنفسه . وان تاريخه صورة مطولة متكررة من سيرة ياسين، وانه ما زال على دأبه على الرغم من انه حل في العقد الخامس وشب ابناؤه . وذنب ياسين انه تحدى ارادته واستهان بوجوده وشوه صورته امام ابنائه "٤" وقد شكلت سيرة ياسين ، من بعض الجوانب وفي مرحلة زمنية تالية تهديدا لقيم السيد احمد وهي شكل من أشكال الخروج والتغيير التي لا ترضي الآباء إذ اهتزت صورة والد امام والد زينب الذي طلب من السيد احمد ان يطلق ابنته من ياسين . فاستغرب السيد ان يأتي الطلاق من جهة الزوجة . فالدنيا قد انقلبت راسا على عقب "٥" ،وصار موقفه يتراجع. وكان بين امرين: بين المحافظة على الصداقة ورفيق العمر وكرامته وصونه لما يعتقد . وبين ابنه ياسين . انه الموقف بين قطبي الماضي والحاضر . وانحاز اخيرا جانب الماضي فدافع عنه وضحى بابنه "٦" . وأخيرا ثار ياسين

١- بين القصرين ص ٢٦٣
٢- السابق ص ٢٧٠
٣- السابق ص ٣٦٦
٤- السابق ص ٣٦٧
٥- السابق ص ٣٨٣
٦- السابق ص ٣٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على والده بعنف "تزوجني وتطلقني وتميتني وتحييني لست هنا ، خديجة ، عائشة ، فهمي ، ياسين ، الكل واحد ، الكل لا شيء ، انت كل شيء ، كلا ، لكل شيء حد ، لم أعد طفلا ، رجلا مثلك ، انا الذي اقرر مصيري ترابك حذائي محمد عفت وزينب وصداقتكما " "١" واستمر يقول "امرك يا ابي ، أي عيشة ، وأي عيشة ، وأي بيت واي بابا ، زجر وتأديب ونصح ، ازجر نفسك وأدبها ، السيت زبيدة وجليلة والغناء والشراب وتطالعنا بعمامة شيخ الاسلام ، لم أعد طفلا ، اعتن بالقصر ، ودعني وشأني ، تزوج ، طلق ، امرك يا افندم ، يلعن ابوك " "٢" فثورة الجديد على القديم تشير الى اخطاء القديم وثغراته ، ولكي يتحقق القديم في الجديد وليسلم الصغير يده للكبير، يهديه الى الطريق السليم ،على القدوة ان يتخفف من العيوب والنقائص ، وعلى الرغم من هزات السيد فقد ظل ياسين معجبا بوالده ، نظر اليه في المسجد فرآه جوادا كريما جميلا بين الجالسين المتطلعين الى المنبر ، مما جعله ينسى حنقه وغضبه وموقفه من طلاق زينب ، وهكذا فان الجديد لا يجد غضاضة في ان يرى في الجيل القديم الصورة الأبهى والأجمل احيانا بصرف النظر عما يعتورها من عيوب ، ولعل احساس ياسين بكرامته ، وانه رجل، ينبغي ان يعامل معاملة الرجال ما دفعه الى مخاطبة فهمي" لقد خرب ابوك بيتي وجعلني اضحوكة بين الناس" "٣".

وامتدت سلطة السيد احمد الى اسرة ياسين ، لا سيما في التصرفات التي تمس التقاليد والآداب الاجتماعية ، فقد احتج على ياسين حين ذهب وزوجه الى ملهى و انبهما. على الرغم من ان زينب من بيئة منفتحة قياسا بأسرة السيد ، وأبى ان يزايل مجلسه حتى يعود هؤلاء "الضالان " "٤" وخاطبه خطاب الرجولة" ألم تعلم اني احرم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين ؟ "٥" وظل ياسين ذاهلا صامتا لم يشفع له قوله كان والدها يعاملها بشيء من التسامح ، فقال السيد مؤكدا احترام آداب الأسرة وتقاليدها انها" الآن في بيتك . عليها احترام آداب الأسرة التي صارت عضوا فيها انت زوجها وسيدها وبيدك وحدك ان تصورها في اي صورة تشاء ، لا يفسد النساء الا الرجال . كان الجواب الخليق بها لطمة ، ولهذا البيت قانون انت تعرفه ، فوطن نفسك على احترامه ، ما رغبت البقاء فيه " "٦" وكان الزمن هو الذي أجبر السيد على ان يعامل ياسين بأسلوب افضل من

١- بين القصرين ص ٣٨٨
٢- السابق ص ٣٨٨
٣- السابق ص ٣٩١
٤- السابق ص٢٩٨
٥- السابق ص٢٩٩
٦- السابق ص ٣٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اخوته ، فقد منحه تقدمه في العمر مزية الاحترام والحوار الهادىء في بعض القضايا . غير ان الهدوء يستحيل الى ثورة شديدة في القضايا التي تشكل تحديا للجيل القديم وتنتهك معتقداته وتقاليده ، ولكن الزمن كفيل بتغيير كل شيء على الرغم من قوله "هيهات ان تتعرض الرابطة بيني وبين ابنائي لتغيير الزمن "١" في وقت نصح فيه محمد عفت السيد احمد ان يغير من اسلوب معاملته لابنه ياسين الذي صار رجلا مسؤولا . وهي نصيحة خبير واع والظاهر انك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يبتهر ابنائهم بالثورة عليهم " "٢" يدرك السيد احمد أثر الزمن في التغير . اذ يذكر ان والده عاملة بقسوة فاقت معاملة السيد لابنائه ثم استحالت علاقتهما صداقة أبدية عند زواجه من ام ياسين . وورد في ذهن السيد المثل "اذا كبر ابنك آخه "٣" واحس بتعقد مهمة الابوة لاول مرة . "٤"

وتطورت معاملة السيد احمد لابنائه في الجزء الثاني وخفت سطوته عبر الزمن . فانبرى للدفاع عن ياسين في المسجد حين اتهمه ازهري بالجاسوسية وأعجب ياسين بوالده الذي دخل في عراك مع الأزهري ، وأحس السيد ان ذاته جريح وان الشاب الأزهري لم يرع له حرمة سن او مهابة "٥" : وفي هذا الجزء بلغ السيد الخامسة والخمسين وياسين الثامنة والعشرين . فمنحه ذلك امتيازا جديدا من امتيازات الرجولة وضمانا ضد الاهانات الجارحة . وبعد استشهاد فهمي تطورت معاملته لأبنائه ، اذ جنحت الى اللين لتقدمه في السن . ولان جرحه قد تعمق باستشهاد ابنه . وصار مألوفا ان يتحدث الأبناء وهم يتناولون الطعام في حضرة والدهم دون خوف"٦"ومن مظاهر جرأة ياسين انه طلب من والده موافقته على الزواج من مريم ، تلك التي رفضت ان يخطبها لابنه الشهيد فهمي. فوافق السيد وهو كسير الفؤاد "٧". ذلك ان المسألة عنده مسألة كرامة . فقد تجرأ ياسين على عقيدة امن بها السيد . لكن الزمن جعله يتراجع عن موقفه ، وكان ياسين طلب الاهتداء برأي والده يطلب رضاه وموافقته فقال " لا تتعجل الامر . المسألة هامة . مسألة كرامة وسعادة ، وعلى استعداد ان اختار لك بنفسي اذا وعدتني وعد رجل صادق . الا تجعلني اندم على تدخلي لما فيه صلاحك . فما رأيك ؟"٨" وقال ياسين "شكرا يا بابا . غاية المنى ان احظى بموافقتك

١- بين القصرين ص ٣٧٣
٢- السابق ص ٢٧٢
٣- السابق ص ٢٧٣
٤- السابق ص ٢٧٢
٥- السابق ص ٣٩٦
٦- قصر الشوق ص٢٣ ، ٣٠
٧- السابق ص ١١٦
٨- السابق ص ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورضاك ، دعني اجرب حظي "١" وهكذا تغيرت نبرة الحوار واسلوبه فصار حوارا هادئا يحترم الرأي الاخر ، وغادر ياسين والسيد يدعو له بالتوفيق "اني راض عنك... ربنا يوفقك "٢".

لقد صار هذا الجيل صاحب قرار ومصير من غير ان يغفل الاستئناس برأي الجيل الماضي ، وسارت الامور على غير المشيئة الابوية ، وجارى الاب ابنه حرصا منه ان لا يتصدى بخصام يؤدي الى قطيعة "٣" .

وشكل زواج ياسين الثالث من زنوبة قمة التمرد على الأب . اذ تزوج هذه المرة من غير مشورته او حتى ابلاغه . كان تمرده متدرجا ، ففي المرة الثانية خطب مريم بعد استشارة والده ، اما في المرة الاولى فقد فرض عليه والده الزواج فرضا وبعيدا عن معرفته . وتبدو قمة التمرد في هذا الزواج الأخير. في ان المرأة "زنوبة" ذات سيرة خلقية فاسدة . وترك ذلك اثارا نفسية جسيمة في ذات السيد ، وادرك ان الزمام قد افلت من يده وان جيلا جديدا يتقدم ليحل محله ، وقال بنبرة حزينة حين علم بالخبر من بعض اصدقائه "حتى في هذا لا يشاورني كأني غير موجود ...يخيل الي انني يجب ان آخذه بالحزم مهما كانت العواقب"" ٤" وقال يرثي نفسه "هذه عاقبة تربيتي لك ؟ اني في حيرة شديدة ، ياسين المصيبة اننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم في الوقت الذي تستوجب مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا ! انهم بتكم العمر يتحملون مسؤولية انفسهم ، لكنهم يسيؤون استعمالها دون ان نستطيع تقويم ما يعوج منهم . نحن رجال ولكننا لن نلد رجالا "٥" تلك مشاعر جيل فقد السيطرة وأحس بالحيرة ، فقد حزينا كسيرا يلوذ بالعتاب والحديث الهادئ يستدر العطف ، وبعد ذلك جمعت الصداقة بينهما. "٦" ولقد أساء ياسين توجيه هذه الحرية . ففي سبيل شهواته ضحى بسمعة ابيه واسرته . حين اقحم على الأسرة عوائد لتكون هي ومن بعدها ذرية واجيالا معتدة . وقرأ مصير ابنه الأيل الى الانهيار والتدهور والخراب وطلب منه ان يطلقها قبل ان تنجب مولودا "٧" ، وجنحت نبرته الى التصـــــح والـــــتودد " يا ياسين اسمع كلامي ، أنا أبوك . احترس و غير مسيرتك أنت نفســـــك أب الا تـــــفكر فـــــي ابـــــنـــــك و مـــــتقـــــبلـــــه ؟ "٨"

١- قصر الشوق ص ١١٧
٢- السابق ص ١٧٣
٣- السابق ص ١٧٣
٤- السابق ص ٣٣٦
٥- السابق ص ٣٣٦
٦- السابق ص ٣٣٨
٧- السابق ص ٣٤١
٨-السابق ص ٣٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وراح الأب يدقق في مصير ابنائه ، ولاذ بالله بعد ان احس بالضعف والعجز ، فهمي مات كمال: ابله او مجنون . ياسين لا امل فيه. المحزن انه اعز الجميع لدي،دع الأمر لله "١" وواصل تقديم النصح والارشاد وحثه ان ينقذ نفسه من الحالة التي وصل اليها ، من الحياة المنبوذة التي لا تتفق وتقاليد الواقع ، ومد له يد العون لصياغة مستقبل جديد "٢" ولكن ياسين واصل دربه وقدر رغبة والده في اصلاح شأنه . وشيعه بنظرة رثاء وازدراء من غير ان يخفي اعجابه بمظهره الذي ورثه عنه . اما دخيلته فقد ورثها عن والدته فاودعته طبيعتها القذرة التي نزعت به الى الحضيض "٣" وهكذا فشخصية ياسين جماع شخصيتين متناقضتين : والده ووالدته ، ساهمتا في تدهوره وصياغة واقعه ومستقبله، مثلتا قانوني البيئة والوراثة . وتساءل ياسين عن سر المكانة التي يتمتع بها والده . وكلاهما في الجمال والعيوب سواء ؟ "٤" وتمنى لو انه كوالده بعد ان تساءل عن السر الذي جعل اثار الزمن تحل فيه مبكرا قبل والده. وثار ياسين على ارادة والده . وتمرد عليه مثلما تمرد على الانجليز "الزمن الاول . اللهم ارحم ابي شد ما ضربني ليمنعني من الاشتراك الدموي في الثورة ، ولكن الذي لا ترهبه قنابل الانجليز لا يرهبه الزجر "٥"اما علاقة ياسين بوالدته فهي علاقة النفور والانفصام والتصادم لتاريخها المؤسف ، فالدم ليس دوما سبيل تواصل وامتداد ، اذ تطغى عوامل في البيئة والتاريخ مثلما طغى تاريخ والدته المزري واخلاقيات البيئة الاجتماعية وحددت علاقته بوالدته ، فبدأ موقفه منها بنفور غريب -ابن من أمه- ثم قدر له ان يستفحل وينمو وينقلب مع الزمن الى كراهية "٦" وأنزلها منزلة حيث أنزلتها افعالها فتقم على المرأة عامة "انها امرأة . وكل امرأة لعنة قذرة "٧" وقال "يالك من امرأة مجرمة "٨" ويبدو لنا موقف شائع لدى الآباء بوجه عام وهو حرصهم على ان لا يظهروا امام ابنائهم ضعفاء .فلقد احس السيد ان نفسه جريح حسين لم يراع الأزهري الشباب حرمة لسنه كما أنهم يتوقعون الى ان يتمتع ابنائهم بصفات رجولية حتى لو كانوا صغار السن .

١- قصر الشوق ص ٣٤١
٢- السابق ص ٣٩٥
٣-السابق ص٣٦٩
٤-السابق ص٤٠٤
٥- السابق ص٢٨٩
٦- بين القصرين ص ٧٣
٧- بين القصرين ص ٧٩
٨- السابق ص ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- فهمي وروح الوطن

عاش في أسرة قام تكوينها النفسي على التناقض والخوف ، مما دفعه ان يلوذ بوالدته لتنقل رغباته الى والده ، وحين ثار على والده وحنق عليه لم يوجه غضبه اليه مباشرة بل خاطبه في شخص والدته "هذا تعسف قاتل لا مبرر له من عقل او حكمة . ألا يعرف الرجال اشياء كثيرة عن نساء محذرات عن طريق الغمزيات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامراة في الحلال ؟" [١] وظهرت بوادر ثورته في قضية خطبة عائشة قبل خديجة ، اذ قال "لا اوافق على الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها ، "الحق" غيب لا يعلمه الا الله،ولعل الله يدخر للمتأخرين خطأ اوفر من المتقدم" [٢] وهي ثورة على تقاليد الواقع والبيئة الاجتماعيةوالجو الفكري انسائد .

يعتقد السيد أحمد ان مخالفة ابنائه له تهديد لرجولته ، فعدم تقدير فهمي خطورة الطلب الذي تقدم به صديقه هو تهديد لهذه الرجولة . ذلك انه امر يتعلق بالارادة الابوية "٣" وفهمي الذي قال "وددت لو تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة في نفسي" [٤] قد وقع على الحقيقة حين تكشفت له حقيقة شخصية والده الذي كان من أركان عقيدته ومثاليته فعاني عند هذا الكشف معاناة من ينتقل من حياة البساطة الى مضطرب الحياة ، فاصيب بالدهشة،ووقع في دوامة من التفكير النفسي افصح عنه في حديث نفسي داخلي "٥" وزاد من حيرته وجوده في بيئة متناقضة الوالدين : اب قاس وام حنون ، فبين قسوة الجبار المستبد وحنان الام عاش "٦". وهو يقدر دورالأم الهام الممتد في عدد من الأجيال، دورا يتعدى الانجاب الطبيعي "ليست ام على هامش الحياة هي التي أنجبته ، والابناء وقود الثورة وهي تغذيه." [٧] وفي المظاهرات ظلت صورة والده تطارده وتخيفه اكثر من خوفه من الاعداء وقد وضع فهمي يديه على مواضع خلل الاسرة غيرانه لم يستطع الجهر بها، فكان الوحيد الذي وقف المتشكك من معتقداتها وايمانها بالاحجبة والتعاويذ والرقى . [٨]

١- بين القصرين ١٤٥
٢- السابق ١٥١
٣- السابق ١٥١
٤- السابق ٢٦٣
٥- السابق ٢٥٩
٦- السابق ٣٤٣
٧- السابق ٣٤٢
٨- السابق ٣٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، ووطن جديد، وبيت جديد وأهل جدد ، ينتقضون جميعا حماسة وحيوية "١" .

حقا لقد مثّل فهمي جيلا غير جيل والده . وانتقلت الثورة الى اسرة السيد احمد وتحول مسارها على يد الجيل الجديد . فكانت الثورة اختيارا لا بد منه وكان فهمي

واذا مثّل ياسين الثورة الاجتماعية والصراع الاجتماعي وكمال الثورة الفكرية والعقلية والصراع الثقافي والفكري فان فهمي يمثّل الثورة الوطنية التي حملها طلبة المدارس والجامعات . فقاوموا الاستعمار بالمظاهرات والاضرابات ومختلف صنوف التحدي . واختال فهمي على والده اكثر من مرة ليتمكن من مشاركة زملائه الطلبة في النضال الوطني . غير انه لم يكن كأقرانه اقداما وشجاعة وجرأة ، لما تركه واقعه الأسري في نفسيته كان طلبة مصر هم الفئة الثورية الناضجة ، لعبوا دورا فعالا في قيادة الحركة الوطنية ، واسقطوا بعض الحكومات .ومنهم تكونت الجمعيات السرية التي قامت بتصفية بعض المتعاونين مع الانجليز، وكان دورهم قياديا في اشعال ثورة ١٩١٩ "٢" انغرط فهمي ابن الثامنة عشرة في السياسة وانتمى الى "الحزب الوطني" وطالب بالاستقلال في ظل الخلافة التركية ، أراد أن ينتصر الألمان ، وتوهم ان الألمان سيحققون بانتصارهم الحرية المفقودة في مصر وابتهج بالهدنة في الحرب العالمية الاولى ، لكنه حزن لنهايتها التي حملت في طياتها هزيمة الألمان "٣" وضياع الأمل بعودة الخلافة التركية والخديوي عباس وازدياد موقف الانجليز صلابة ، وتحدث عن قادة الحزب الوطني واهتم بتشكيل الوفد المصري لمقابلة المعتمد البريطاني للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال والنضم الى ثورة ١٩١٩ وهو يهتف بشعارات الثورة الوطنية "يحيا الاستقلال " . لتسقط الحماية يحيا سعد وصاح فهمي مع زملائه في وجه المستشار البريطاني " ان اباءنا قد سجنوا ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون "٤" ونجحت الثورة في الافراج عن سعد . وشارك فهمي غيره من الطلبة في الاعراب عن الفرحة بعودة سعد فتقدم الصفوف ليقود المظاهرة للمرة الاولى . وكان ان قتل . وصدم والده الذي ظن ان عهد القتل قد ولى . كان فهمي متقدا حماسة . شغل بأمور السياسة ..كان مع غيره من الطلبة يقظة مصر الواعية كان أمله ان تحقق النائبات والحوادث الجسام وحدة المصريين ، وحدة لا يأتي عليها الزمان ولا يفرقهم كما فرق امرؤ

١- بين القصرين ٣١١

٢- احمد محمد عطية : مع نجيب محفوظ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧١ ص ٦٧، ٦٨

٣- بين القصرين ٣٠٤

٤- بين القصرين ٣٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيد احمد فانفضوا من مجلس القهوة ، قال متحديا وهو يرنو الى صباح جديد من الحرية سيان ان احيا او ان اموت . الايمان اقوى من الموت . والموت أشرف من الذل فهتفنا الامل الذي هانت الى جانبه الحياة،أهلا بصباح جديد من الحرية وليقض الله لما هو قاض "١" وأثارت الأحاديث الوطنية اوسع الأحلام في دنياها الساحرة " تتراءى لعينيه دنيا جديدةاختيار المستقبل فعلا لا شعورا "٢". كانت شخصيته ثورة مزدوجة : ثورة على الاستعمار وثورة على سلطة التقاليد الضاغطة عن طريق الاب الذي كان يحدد مصيرهم . وليس الزمن ولا الثورة ولا الناس . ومع الزمن تراخت قبضة الأب . مما يشير الى ان حركة فهمي الثورية تعني بداية تسلم الجيل الجديد لكل مقادير الحياة . وحقا مثل الانتفاضة العقلية المتوثبة التي حملتها وتبنتها الشبيبة المثقفة .

تطورت ثورة فهمي على والده الى ان مست بعض قضايا الفكر والمعتقد وحين علم والده انه ينتمي الى " لجنة " توزع المنشورات ويتحدث اعضاؤها في الشؤون الوطنية طلب منه الانسحاب ، وحاور فهمي والده وبرر أفعاله بأقوال من العقيدة " الله حث المؤمنين على الجهاد يا بابا ، وهذا جهاد في سبيل الله " فرد عليه أحسبتني دعوتك لتناقشني . لا جهاد في سبيل الله الا الجهاد الديني واريد ان اعرف هل امري ما زال مطاعا ؟ اذن اقطع صلتك بالثورة "٣". وطلب منه ان يقسم على القرآن ، فتراجع فهمي . وقال له :" اذن انت تكذب علي . انا لا اسمح لمخلوق ان يضحك علي ...الكلمة هنا كلمتي انا .. انا .. انا ..أمرتك ان تقسم . توهمت انك رجل ؟ وان تفعل ما تشاء" "٤" وأحس فهمي بالضعف والرهبة . وصار يبكي . وقال متضرعا سامحني يا بابا ، أمرك مطاع لكني لا استطيع . لا أرضى ولا ترضى ان اتخلف عن زملائي ، ليس هناك خطر . ولست افضل من الذين يستشهدون "٥" فهو يخاف على أولاده ولا يكره المجاهدين ، ولكن اذا صدر اي فعل من اولاده فالأمر مختلف . وكأنه قام بذاته خارج التاريخ . هو الذي يرسم الحدود والمصائر لا التاريخ ولا الزمان ولا الناس "٦" فتوزيع المنشورات في راي السيد احمد

١- بين القصرين ٣١١
٢- سليمان التطلي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ١٥٧، ١٥٨
٣- السابق ٣٩٩، ٤٠٠
٤- بين القصرين ٣٩٩
٥- السابق ٤٠٢
٦- السابق ٣٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تهلكة ، والله يأمرنا ان لا نزج بأنفسنا . ومما ضاعف من احساسه بالخوف ما وقع له من اذى عندما تعرض له جنود انجلوز في الليل . فقال يتحدث نفسه " اللهم اهزم المشركين بقوتك . نحن ضعفاء ، هل يتصور فهمي اي خطر يتهدده ؟... انه يدرس الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، اللهم احفظنا من شر هذه الأيام "١" ، فالثورة اذن تهدد ابنه " العاصي " كما اطلق عليه "٢". وآلمه قول الشيخ متولي " انت أبي حازم وما كنت اتصور ان يرد لك ابن امرا " "٣" وحاول ان يهون من حجم العصيان ليدفع عن نفسه تهمة الضعف امام الشيخ قائلا لم يجرؤ ذلك سراحة ، ودعوته ان يقسم على المصحف كي لا يشترك بالثورة فبكى دون أن يجبر على قول "لا" . لا استطيع ان احبسه او اضربه ، لا يجدي التهديد مع شخص يعرض نفسه للموت "٤" وهكذا اقترنت ثورة فهمي على والده بالثورة على الاستعمار ، وعلى الرغم من ان فهمي خالف ارادة والده حين امتنع عن القسم ، وتمسك برأيه في ما يتعلق بالعمل السياسي والوطني فقد صمم على استرضائه من غير ان يضمر له العصيان او التحدي . وفي ظروف ملائمة للتفاهم ، وفي جو الفرح الذي يعيشه الوطن بعودة سعد دخل فهمي خجلا ولثم يد والده فنهره السيد ، وتحول الى التهكم الذي رحب به فهمي ، اذ هو أول خطوة للصفح عنه ، ذلك ان غضبه الحقيقي صفح او ركل او سب او جميعها معا . وغادر فهمي للاجتماع بلجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية .وعلى الرغم من قسوة السيد احمد فقد اعجب ببلاغة فهمي في صياغة الكلام فقال في سره الولد سر أبيه ودغدغ ذلك اعجابه بنفسه ، فقد قيل قديما عنه انه لو اتم مراحل التعليم لكان ابلغ المحامين ، ويعتقد انه ابلغهم بغير المحاماة وحين انتهت الثورة وكتبت السلامة لفهمي تمنى لو انه اشترك بالأعمال الكبيرة ، لكن قلل يعتز في نفسه امتناعه عن القسم . وحين ابلغ السيد امينة خبر استشهاد فهمي قلت صورته في ذهنها فقالت له ابننا قتل اتأمر بمنع الأصوات كما امرت بمنع الزغاريد من قبل؟ ام تصوت بنفسك ام تدعو النائحات "٥"

١- بين القصرين ٤٣٦
٢- السابق ٤٤٠
٣- السابق ٤٤٠
٤- السابق ٤٤٠
٥- السابق ٤٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا مثّل ياسين الثورة الاجتماعية والصراع الاجتماعي،وكمال الثورة الفكرية والعقلية والصراع الثقافي والفكري،فانّ فهمي يمثّل الثورة الوطنية التي حملها طلبة المدارس والجامعات ، فقاوموا الاستعمار بالمظاهرات والاضرابات ومختلف صنوف التحدي . واحتال فهمي على والده اكثر من مرة ليتمكن من مشاركة زملائه الطلبة في النضال الوطني ، غير انه لم يكن كأقرانه إقداماً وشجاعة وجرأة ، لما تركه واقعه الأسري في نفسيته،كان طلبة مصر هم الفئة الثورية الناضجة ، لعبوا دوراً فعالاً في قيادة الحركة الوطنية ، وأسقطوا بعض الحكومات ،ومنهم تكوّنت الجمعيات السرية التي قامت بتصفية بعض المتعاونين مع الانجليز، وكان دورهم قيادياً في اشعال ثورة ١٩١٩ "١" انخرط فهمي ابن الثامنة عشرة في السياسة وانتمى الى "الحزب الوطني" وطالب بالاستقلال في ظل الخلافة التركية ، أراد أن ينتصر الألمان ، وتوهّم أنّ الألمان سيحققون بانتصارهم الحرية المفقودة في مصر، وابتهج بالهدنة في الحرب العالمية الاولى ، لكنه حزن لنهايتها التي حملت في طياتها هزيمة الألمان "٢" وضياع الأمل بعودة الخلافة التركية والخديوي عباس وازدياد موقف الانجليز صلابة ، وتحدّث عن قادة الحزب الوطني واهتمّ بتشكيل الوفد المصري لمقابلة المعتمد البريطاني للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال،وانضم الى ثورة ١٩١٩ وهو يهتف بشعارات الثورة الوطنية "يحيا الاستقلال " ،"لتسقط الحماية" "يحيا سعد"،وصاح فهمي مع زملائه في وجه المستشار البريطاني " ان اباءنا قد سجنوا ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون "٣"،ونجحت الثورة في الافراج عن سعد ، وشارك فهمي غيره من الطلبة في الإعراب عن الفرحة بعودة سعد فتقدّمَ الصفوف ليقود المظاهرة للمرة الأولى ، وكان أنْ قتل وصدم والده الذي ظن ان عهد القتل قد ولّى . كان فهمي متّقداً حماسة ،شُغل بأمور السياسة ،كان مع غيره من الطلبة يقظة مصر الواعية،كان أمله ان تحقّق النائبات والحوادث الجسام وحدة المصريين ، وحدة لا يأتي عليها الزمان ولا يفرّقهم كما فرّق اسرة السيد احمد،فانفضوا من مجلس القهوة ، قال متحدياً وهو يرنو الى صباح جديد من الحرية "سيان أن أحيا أو أن أموت ، الايمان اقوى من الموت ، والموت أشرف من الذل فهنيئاً الأمل الذي هانت الى جانبه الحياة،أهلاً بصباح جديد من الحرية وليقض الله بما هو قاض "٤"،وأثارت الأحاديث الوطنية أوسع الأحلام في دنياها الساحرة " تتراءى لعينيه دنيا جديدة ووطن جديد، وبيت جديد وأهل جدد ، ينتفضون جميعاً حماسة وحيوية " "٥" .

حقاً لقد مثّل فهمي جيلاً غير جيل والده ، وانتقلت الثورة الى اسرة السيد احمد وتحوّل مسارها على يد الجيل الجديد ، فكانت الثورة اختياراً لا بد منه،وكان فهمي

١- احمد محمد عطية : مع نجيب محفوظ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧١ ص ٦٧، ٦٨
٢- بين القصرين ٣٠٤
٣- بين القصرين ٣٤٠
٤- بين القصرين ٣٤٣
٥- السابق ٣١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اختيار المستقبل فعلاً لا شعوراً "١".كانت شخصيته ثورة مزدوجة : ثورة على الاستعمار وثورة على سلطة التقاليد الضاغطة عن طريق الأب الذي كان يحدّد مصيرهم ، وليس الزمن ولا الثورة ولا الناس . ومع الزمن تراخت قبضة الأب ، مما يشير الى انّ حركة فهمي الثورية تعني بداية تسلّم الجيل الجديد لكل مقادير الحياة ، وحقاً مثّل الانتفاضة العقلية المتوثبة التي حملتها وتبنّتها الشبيبة المثقفة .

تطوّرت ثورة فهمي على والده الى ان مسّت بعض قضايا الفكر والمعتقد، وحين علم والده انه ينتمي الى " لجنة " توزّع المنشورات ويتحدّث أعضاؤها في الشؤون الوطنية طلب منه الانسحاب ، وحاور فهمي والده وبرّر أفعاله بأقوال من العقيدة " الله حثّ المؤمنين على الجهاد يا بابا ، وهذا جهاد في سبيل الله " فردّ عليه" أحسبتني دعوتك لتناقشني ، لا جهاد في سبيل الله إلاّ الجهاد الديني وأريد أنْ أعرف هل أمري ما زال مطاعاً ؟ اذن اقطع صلتك بالثورة "٢". وطلب منه أنْ يقسم على القرآن ، فتراجع فهمي ، وقال له :" اذن أنت تكذب علي ، أنا لا اسمح لمخلوق أن يضحك علي ...الكلمة هنا كلمتي أنا .. أنا .. أنا ..أمرتك أن تقسم ، توهمت انك رجل ؟ وان تفعل ما تشاء" "٣" وأحسّ فهمي بالضعف والرهبة ، وصار يبكي ، وقال متضرّعاً "سامحني يا بابا ، أمرك مطاع لكني لا استطيع ، لا أرضى ولا ترضى ان اتخلف عن زملائي ، ليس هناك خطر ، ولست افضل من الذين يستشهدون "٤"،فهو يخاف على أولاده ولا يكره المجاهدين ، ولكن اذا صدر اي فعل من اولاده فالأمر مختلف ، وكأنه قام بذاته خارج التاريخ ، هو الذي يرسم الحدود والمصائر لا التاريخ ولا الزمان ولا الناس "٥"،فتوزيع المنشورات في رأي السيد احمد تهلكة ، والله يأمرنا ان لا نزج بأنفسنا ، ومما ضاعف من احساسه بالخوف ما وقع له من اذى عندما تعرّض له جنود انجليز في الليل ، فقال يحدّث نفسه " اللهم اهزم المشركين بقوّتك ، نحن ضعفاء ، هل يتصور فهمي أيّ خطر يتهدّده ؟... انه يدرس الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، اللهم احفظنا من شر هذه الأيام "٦" ، فالثورة اذن تهدّد ابنه " العاصي " كما اطلق عليه "٧". وآلمه قول الشيخ متولي " انت أب حازم وما كنت اتصور ان يرد لك ابن أمراً " "٨" وحاول ان يهوّن من حجم العصيان ليدفع عن نفسه تهمة الضعف امام الشيخ قائلاً "لم يجرؤ ذلك صراحة ، ودعوته ان يقسم على المصحف كي لا يشترك بالثورة فبكى دون أن يجسر على قول "لا" ، لا استطيع ان أحبسه او اضربه ، لا يجدي التهديد مع شخص يعرض نفسه للموت "٩" وهكذا اقترنت ثورة فهمي على والده بالثورة على الاستعمار. وعلى الرغم من ان فهمي خالف إرادة والده حين امتنع عن القسم ، وتمسّك برأيه في ما يتعلق بالعمل السياسي والوطني فقد صمّم على استرضائه من غير ان يضمر له العصيان والتحدي

١- سليمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ١٥٧، ١٥٨
٢- السابق ٣٩٩، ٤٠٠
٣- بين القصرين ٣٩٩
٤- السابق ٤٠٢
٥- السابق ٣٩٩
٦- السابق ٤٢٦
٧- السابق ٤٤٠
٨- السابق ٤٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ظروف ملائمة للتفاهم ، وفي جو الفرح الذي يعيشه الوطن بعودة سعد دخل فهمي خجلاً ولثمَ يد والده فنهره السيد ، وتحوّل الى التهكم الذي رحّب به فهمي ، إذ هو أول خطوة للصفح عنه ، ذلك ان غضبه الحقيقي صفع او ركل او سبّ او جميعها معاً . وغادر فهمي للاجتماع بلجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية .وعلى الرغم من قسوة السيد احمد فقد أعجب ببلاغة فهمي في صياغة الكلام فقال في سرّه "الولد سرّ أبيه "، ودغدغ ذلك اعجابه بنفسه ، فقد قيل قديما عنه انه لو اتمّ مراحل التعليم لكان ابلغ المحامين ، ويعتقد انه ابلغهم بغير المحاماة،وحين انتهت الثورة وكُتبت السلامة لفهمي تمنّى لو انه اشترك بالأعمال الكبيرة ، لكن ظلّ يحزّ في نفسه امتناعه عن القسم . وحين أُبلغ السيدُ امينةَ خبرَ استشهاد فهمي ظلّت صورته القاسية في ذهنها فقالت له" ابننا قُتل اتأمر بمنع الأصوات كما امرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ أم تصوّت بنفسك أم تدعو النائحات "[١]

١- بين القصرين ص ٤٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج- الصراع الفكري : احمد وابنه كمال

حوار كمال مع والده هو الحوار مع العقلية التقليدية والفكر التقليدي وامتزجت صورة هذا الجيل لدى كمال بالخوف والرعب ، فكانت قضيته الكبرى هي قضية القهر والحرية . وقد زادت البيئة العقلية القائمة على الأساطير والخرافات وبيئة والدته وعقليتها في تضخيم هذه الصورة، وانطبعت في ذهن كمال ابن العشر سنوات . صورة مرعبة لوالده "١" فاق خوفه من العفاريت ، لم تنقذه طفولته البريئة منه ، اذ كثيرا ما انزل به عقابا قاسيا اذا علم انه لعب بدون علمه مخالفا بذلك اوامره وارادته "٢" . ومثل له في احد وجوهه صورة "الله" القادر على كل شيء ، مجسدا بذلك فكرة الألوهية ، وكان لصورة الاب هذه دور هام في تطور كمال العقلي والروحي "٣" وتساءل كمال ايخاف ابي الله ، لا أتصور ان ابي يخاف شيئا "٤" وتصور ان والده قادر على كل شيء ، لا احد يضارعه في قوته "٥" وظلت امنياته حبيسة ذاته ، فعند ذهابه برفقة والدته كان يتمنى لو يغلق الباب على نفسه يبوح بأمانيه بعد ان فقد من يبوح اليه بسره أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، ان تغير طبع ابي الى الأبد ان يمد عمر ابي الى مالا نهاية ، ان آخذ من المصروف كفايتي "٦" ويعكس هذا واقع الظلم والكبت الذي يعيشه هذا الجيل وتوقه الى الحرية ، واعجبت العائلة بمظاهر رجولة كمال الطفولية المبكرة المتمثلة في جرأته وشجاعته ، ولهذا كلفته ان يطلب من والده اعادة والدته امينة بعد ان طردها اذ تقدم كمال من والده خائفا ، وحين تمالك نفسه ويخطى غير ثابته فجر قضية العائلة وصاح بلا شعور رجع نينة الله يخليك"٧" واطلق ساقية للريح ، ولعل هذا الموقف في مواجهة القضايا يرسم لنا مسيرة الجيل واسلوبة في معالجة القضايا المصيرية . وصاح السيد في وجهه صيحة كانت اشد

١- بين القصرين ٢٣
٢- السابق ٤٩
٣- د.غالي شكري : المنتمي . ط٤. دار الآفاق الجديدة . بيروت "بلا تاريخ" ص٣٠
٤- بين القصرين ٦٥
٥- السابق ٥٠
٦- السابق ١٦٢
٧- السابق ٢٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عقوبة وأقساها لا يقف كالصنم وقل ما تريد "١" وكان كمال اخيرا امل الاسرة وحامل بشرى عودة الام ، وقال يمازحها البسي ملاءتك وهيا بنا "٢" مبشرا ان عهدا من الحرية قد بدأ ، وقال وهو يمضي مع فهمي جاء الفرج "٣" وكان بحق أثير الحاضرين في حفل زفاف عائشة بما أثاره من ملاحظات ووضع يده على قضايا ذات اهمية . منها تساؤله عن سبب ذهاب عائشة الى رجل غريب ، وعن سبب زينتها في بيتها على غير ما بدت عليه في بيت والدها الذي يختلف عن البيئه الاجتماعيه الجديده ، بعد ان قضت (الشوكتيه) بذلك (٤) . وقد سر السيد احمد كثيرا بسماع كمال وهو يغني (يا طير اللي على الشجر) ولذ له ان يرى نفسه من جديد في حياة ابنائه على الاقل في ساعات الهدوء والصفاء ، اذ يحقق بذلك خلوده ووجوده (٥) .

وفي الجزء الثاني من الروايه نلتقي بالسيد احمد وابنه كمال شابا" في السابعة عشر من عمره ، وقد صار الصراع بينهما فكريا" ، اتخذ طابع القديم والجديد او العلم والدين اوالتطور والتخلف . وتجاوز خوفه من والده مع مرور الزمن ، وصار مؤهلا ان يطرح قضيته دون خوف ، اذ منحه الزمن و تفوقه في الدراسة نوعا من الضمان خفف من أسلوب البطش و الارهاب بدرجة ملموسة ، و تذكر كمال آخر شتيمة وجهها اليه والده حين رجا والدته أن ترجو والده أن يزيد مصروفه اليومي "٦" . و من ظواهر أزمة كمال الفكرية تمرده على رغبة والده في الحاقه بمدرسة الحقوق و اصراره على الإلتحاق بمدرسة المعلمين حيث يجد فيها متنفسا لأشواقه الروحية و الفكرية التي حلق فيها و هو يقرأ الفلسفة و قد أدرك أن حياة الفكر أجل حياة ، و أن الفكر يتعالى على الحياة و الألقاب و أن مدرسة المعلمين تدرس علوما جليلة كتاريخ الإنسان الحافل بالعظمات ،غير أن السيد أحمد حط من شأن التاريخ أمام القانون و القضاء "٧" .و بذلك خرج الإبن عن ارادة الأب و ارتاد آفاقا فكرية تختلف عن آفاق الجيل الأول و اهتماماته و تمنى الأب لو يقول له كمال "الرأي رأيك يا أبي " "٨" لكن أنى له ذلك ! و يرى السيد أحمد أن مهنة المعلم لا تحظى

١- بين القصرين ٢٢١
٢- السابق ٢٢٢
٣- السابق ٢٢٣
٤- السابق ٢٧٧
٥- السابق ٣٦٨
٦- قصر الشوق ٢٣ ، ٢٤
٧- السابق ٥٤
٨- السابق ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالاحترام و التقديس ، و تخلو من معاني الحياة والعظمة و أن بعض الأعيان لا يزوجون بناتهم من معلمين و أن هذه المهنة لا تقترب في مستواها من مهنة القضاء ، و يؤمن السيد أن لا علم حقيقيا بغير مال أو جاه "افهم يا جاهل قبل التدم ، هناك علوم لا علم للصعاليك علومهم " "١" و لكل زمان رجال . فمواقف الجيلين متباينة إزاء حرية الإختيار في صياغة المستقبل ففي حين ينطلق الجيل الأول من معتقدات حكمت حياته و صاغتها في الوقت الذي تختلف فيه منطلقات الجيل الثاني ، وخلال احدى حلقات الحوار قال لابنه كمال ينصحه "اني افهم الحياة خير منك , اريدك ان تكون واحدا من عظماء الرجال , انت طفل احمق ...لقد اخلصت لك النصيحة وأنت حر في اختيارك وتذكر انني لن اوافقك على رأيك" ولم يتردد كمال عن تخطئة راي ابيه ، على الرغم من مكانته في نفسه , لجناية المجتمع المتخلف ، أثر الجهلاء من اصحابه عليه , وان حياة الفكر أسمى غاية ، ويطمع في دراسة الفلسفة والروح والخلق ويؤمن ان لا عظمة حقيقية الا في حياة العلم والحقيقة ، ولقد ادرك كمال ان حواره مع والده يوحي بوجود عقليتين متناقضتين وجيلين مختلفين مثلما وضع يده على لمسات توحي بجو من الحرية قياسا الى حلقات في الحوار سابقة "٣" .

وصراع في نفس كمال بين التراث الديني ومعتقدات القديم وبين ما تلقاه من ثمار الفلسفة العلمية الحديثة وفي دوامة هذه الأزمة كتب كمال نظرية التطور وتساءل عن أدم والخالق والقرآن وقال لنفسه" القرآن اما ان يكون حقا كله او لا يكون قرانا " "٤" وهرست قلبه الآلام : الم الحب الخائب والم الشك والم العقيدة , آلمه الموقف الرهيب من الدين والعلم ، و احتج السيد على ثقافة هذا الجيل التي تنزع الى العلمية ووصم داروين بالكفر, ونصح السيد ابنه بعد ان انتشر الظلام وبعد ان كان اجداده العلماء يضيئون الدنيا بنور العلم والله وأن يكون موقفه من علم الانجليز كالموقف من الاحتلال وهو عدم الاقرار بشرعيته ولو فرض بالقوة الجبرية "٥" وصمم كمال ان يكرس حياته بنشر نور الله مثلما وعد امه بذلك في سرد اليس هو نور الحقيقة ؟ بلى و سيكون في تحرره من الدين اقرب الى الله مما كان في ايمانه به فما الدين الحقيقي الا العلم . وهو مفتاح اسرار الكون وجلاله ولو بعث الانبياء ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم "٦" وعلى هذا النحو استيقظ من

١- قصر الشوق ٥١
٢- السابق ص٥٢ , ٥٤ , ٥٨
٣- السابق ٣٤٥
٤-السابق ٣٤٦ , ٣٤٩
٥- السابق ٣٥٠
٦- السابق ٣٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك الجيل يركّز على المظاهر وعلى طريقة التعامل ، وذكر قول والده (أهمية القبيلة بعدد أفرادها وأهمية الشيخ بعدد مرافقيه وأهمية الموظف بحجم الطاولة التي يجلس وراءها)(١).

وقد جرّت ممارسات هذا الجيل البلادَ الى حروب تركت آثارها الواضحة في مستقبل أجيال قادمة ، وخلّفت أحداثاً داخلية استنزفت خيرات البلاد وأفسحت الطريق لتدخل القوى الأجنبية في صياغة مستقبل الأمة فضلاً عما خلّفته من موجات الفقراء والجوعى واللاجئين والمرضى وانقسم الناس الى طبقتين : أغنياء وفقراء ، وازداد الأمراء غنى، وكان الخير الذي وعد السلطان به الناس مزيداً من السجون والمخبرين والبطالة وضيق الدنيا وعنتها واعتقالات واسعة و مزيداً من الاعدامات ، وقد لعب الاعلام دوراً هاما في قلب الحقيقة عن الناس،فمع موجات الحياة كانت تندفع موجات من الوفود الى شيوخ العشائر ومناطق الحدود للدعوة لحضور الاحتفالات وزيارة سوران على الرغم مما تعانيه ، مما دفع فريقاً الى الارتداد الى الصحراء وحياتها البدوية سعياً وراء العشب والماء وفضّلوها على حياة سوران في تلك الحقبة،وتركوها تعاني وتتطلع نحو المستقبل وتترقّب الخلاص على يد جيل جديد،وكان السلطان في ممارسته هذه يطبّق بعض ما قرأه في كتاب (الامير)،ورافق هذا الواقع سلب مقدرات الأمة الاقتصادية وثرواتها،فقد شُغل السلطان بتغيرات شكلية ، فأطلق على زوجه لقب (صاحبة الجلالة الملكة) (٢) وقال عمير (ابن الخي صار كالقياصرة والأكاسرة صار عندنا ملوك وملكات) (٣)

ووصف المسنون هذه الحقبة بأنّها آخر الزمان ، في حين قالت النسوة : لابدّ ان يأتي المهدي ومعه الخضر، أما العقلاء فقد حثّوا على الصبر اذ هو مفتاح الفرج ، وقال عبد الله البخيت : في نهايات العصر تكبر الآذان وتصغر العقول ، ورأى سائح انه من الصعب فهم هذه المدن ولا معرفة مستقبلها ، وقال المسنون وهم في المساجد منذرين وواعظين (اذا زاد الفساد وفسق العباد واستبدّ الحكام ، فلا بد من العقاب) وقالوا (اذا نام الراعي أوجار خربت الديار ، وقالوا من يوم ما جاء بلّشت السبع العجاف) (٤).

١- بادية الظلمات ٢٥٤ .
٢- السابق ٣٦٥
٣- السابق ٣٦٧
٤- بادية الظلمات ص ٥٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - موران ونيران الأزقة الخلفية

كشفنا فيما سبق عن وجه موران من خلال سلطة الحكم ، نكشف فيما يلي عن عالم موران السفلي : نبض الشارع العام ، الطبقة المحكومة وضميرها العام .

فقد واصلت موران رحلتها في التغير ، تعاقبت فيها الحركة والصمت ، رافق حركتها تغير اجتماعي احس به المتقدمون بالسن الذين عمدوا الى مقارنة واقع حياتهم في الماضي مع واقعهم المعاصر في موران ، واحسوا أن العلاقات الاجتماعية المتينة هي التي جعلت حياتهم مستقرة وفيها كل الخير ، وتساءلوا عن السر الذي طرأ في حياة الأجيال المعاصرة ، فقد قال بعض المسنين من مثل مفلح المطوع (كنا يا وليدي نسأل عن الغريب والبعيد ، والناس كانت بخير ... ما الذي حدث هذه الأيام ؟) (١) وانتقلت موران من حياة الصحراء الى حياة المدن ، وبعد أن كانت تفتح عينها كل صباح على أمل أو خبر عندما كانت تستقبل القوافل والغرباء ، كانت تمتلىء بالفرح والأهازيج والقصص ، اما الآن فقد تغيرت فأصبحت مقبرة ساكنة . وهكذا ارادها مسؤول الأمن حماد ان تنقطع علاقات الناس معا ، من غير ان يدرك أن الضغط يدفع الى التحدي والثورة ، ولهذا لجأ الجيل الأول الى الارشاد والنصح والتحذير فقد نصح شداد ابن اخيه حمادا (لا تدوسوا على ذيل الناس اكثر مما يتحملون ، ولا تظنوا ان السكوت رضا، لأن الديرة التي انتم فيها أسمها موران) (٢) فهي متغيرة خادعة ، الكراهية في العيون ، وتميز المشاعر والمواقف ، الزائف من الحقيقي ، وركز شداد في نصحه وتحذيره على كشف الحقائق والتبصير بها والنطق بلسان ضمير المجتمع العام ، فعندما اشتريت الخيول والناس يشكون من الفقر والجوع قال (كسرتم أعراضنا ونكستم عقلنا ، الناس جاعت ، اطعموا العباد بدل رمي الفلوس في الأرض اعرفوا حدودكم) (٣) اما مصدر الشكوى والمعاناة فيكمن في النظام السياسي وممارساته الذي جر البلاد الى ويلات عانى منها الجيل المعاصر ، في الوقت الذي كانت تمارس فيه السلطة ، خنق الحريات وكم الأفواه. فتستجيب موران وتلوذ بالصمت ، دون ان يدرك ان وراءه ذلك ثورة متاججة ، فاذا صمتت موران نهارا يسمع لها في الليل ودي يترافق مع نكات ساخرة وتعليقات نقدية مؤلمة) (٤)وهكذا اصبحت موران مثل حمال الملح.

١- بادية الظلمات ٢٢٤
٢- السابق ٣٢٢
٣- السابق ٢٧٣
٤- السابق ٢٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس له همّ إلاّ التخلص من حمله. وقال بعض المتقدمين بالعمر ان الغرباء والأجانب هم سبب بلاء موران ، فعندما جاءوا (تزّ البول الأسود من الأرض) (١) وقال آخرون مشيرين الى واقع موران في ظل حكم ذلك الجيل (القحط وحده يكفي ، واذا ترافق مع حرب وسلطان غشوم فالدنيا بآخرتها ولا بدّ من أن تقوم القيامة ويأتي المهدي) (٢)واذا كان من طبيعة المدن ان تتسمّر على أبنائها الفقراء ، فان موران بدت قاسية لا رحمة لديها ، كأنها مدينة أخرى ، لا يطيقها أحد ولا تطيق أحدا ، فارتدّ قسم من الفقراء الى الصحراء،مجموعات صغيرة كي لا تنتقل المدينة معهم لاعتقادهم ان الوباء غضب السماء على المدن وان النجاة منه في الصحراء، واعتمد الناس على النقد الشعبي العام الذي استند الى النكتة اللاذعة والأغنية الناقدة والتعليق الساخر والكلمة الحادة أسلحه ممزوجة بالسخرية والتهكم ، أشارت الى مكامن الداء ومواطن العيب وأسرار المعاناة (٣)،ولجأوا الى المثل الشعبي ، بل ان بعض التعليقات الساخرة راحت أمثالاً يرددها الناس، كان هذا الموقف موقفاً عاماً عبّروا فيه عن أنفسهم حين لم يستطيعوا المواجهة والتحدي العلني ، وهنا يكمن سرٌّ من أسرار دراسة الأجيال في فترة معينة ، اذ هي مناسبة للوقوف على عادات ذلك الجيل وأمثاله التي تومىء بقيم ذلك الجيل وامتدادها عبر أجيال لاحقة . ولجأ بعض الناس الى الدعاء الى رب العالمين بزوال ذلك الجيل ، وإلى وصمه بالكفر وقلة الشهامة ، ولعل في ما سبق فيما واضحا لدور الكلمة وأهميتها ، فالكلمة لها فعل السيف ، واذا كان المال يداوي الجروح فإنه لا يداوي القلوب ، اما موران الأرقة الخلقية وموران الفقراء فقد أعتبرت ملاحقتها للسلطان ودولته وأقاربه ومقربيه جزءاً من حربها : أنْ ترفض ظلمهم وتشير الى نقائصهم. فحين تحول مدخل موران الجنوبي الى مقبرة للسيارات ومكبٍّ لها ، قال أحدهم ساخراً ينقد هدر ثروات الأمة ويسخر من هذا الجيل (من يرى هذه السيارات يظن انها راحت بالحروب أو بالمناورات) (٤) ووصف ذلك ابن العليان بأنه كفر وحرام (٥) وقال مالك (حرام علينا الفسق والفجور ، وأن ندوس النعمة . وان الذي نراه هو فسق وفجور وقلة دين ، ولا يرضي الله ورسوله) (٦) واكتسبت موران بتحديها للسلطان قدرة خفية على المواجهة ، ووجدت في قصة الأمير مساعد الذي صار وزير الدفاع تسلية ، لا سيما ما يروى عن شرهه وفقدانه توازنه وهو يستعرض الجيش السلطاني بأسلوب تصويري ساخر . مما يشير

١- بادية الظلمات ٥٦٧ ٢- السابق ٥٦٧
٣- السابق ٥٣٨، ٥٤٠، ٤٠٠-٤٠٧ ٤- السابق ٣٣٣
٥- السابق ٤٩ ٦- السابق ٣٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى الداء الذي ينخر عصب هذا الجيل ، وقد سخر أبناء هذا الجيل من وعد السلطان اياهم ببدء مرحلة جديدة أهم مقوماتها : الدستور,ذلك انهم وُعدوا به بعد تنحية خزعل (١)

وكانت حرب الدواحس مثاراً لولادة نكت جديدة لاذعة ،انتقلت انتقال النار في الهشيم ، كانت ملاذ موران وسلاحها تتباهى بنشرها وتفتخر بها افتخار الحامل بحملها،ولم ينجُ راكان من سخرية أهل موران والناس يهنئونه بالوزارة الجديدة مما دفعه الى التهديد في قوله (والله لأطلع حليب امهاتهم من خشومهم) (٢)ومثلما لجأت موران الى النكتة في رفضها فقد لجأت الى الصمت ، لكنها وهي ترقب الأحداث والأمل بالخلاص تنفجر فتجهر بالسخرية والنكتة مرة أخرى معبّرة عن موقفها ، فبعد لجوء الأمير سند الى الدواحس وبعد أحداث الاعتداء على الاذاعة ، وهرب صفاء ومعه أموال راكان الطائلة قال : أهل موران (رزق المهابيل على المجانين ، واذا كان راكان لصّ الدنيا فقد جاء من حمَّل وشال،وحلال عليه)(٣) وقالوا عن لجوء سند واخوته الى الدواحس (اذا أبرقت فلا بد ترعد ، وبعدها المطر إمّا علينا او حوالينا) وقالوا (دود الخلّ منه وفيه) وحين هرب الطيارون الى الدواحس فرحوا وقالوا (الشباب حاجزين ذهاب وعودة وعودتهم قريبة) (٤) وظلت موران قلقة ، ترائب، وتتلفّت تلقت الخائف، وكأنها تنتظر شيئا, ويبرز نقد ايجابي انبعث من حاشية السلطة الحاكمة ، فمالك الفريح المسؤول عن الإدارة المالية احتجّ على توقيع عقد بناء المدينة الجديدة ، وعدّ ذلك جنوناً وحراماً ، بل وحثّ الآخرين على الاحتجاج ، ويظهر في الحوار التالي بين ابن العليان ومالك ما يشير الى شرخ وخلل في الدولة ، يقول ابن عليان (والله لو قطعوا ايدي ، لو صلبوني ، ما أوقّع ولا اقول الله يبارك لكم ، قالوا له تتوب عن عمك ،وزير المالية وتوقّع هنا وتختم هنا . وما كذب خبر قال لهم : هاكم الأختام وهذا توقيعي) وضحك مالك بسخرية ، ويضيف ..(وتقوم مدن الملح وكأنه ناقصنا مدن ترتفع وتكبر , اذا جاها الماء : فشّ , ولا كأنها كانت !) وتحول الحديث بينهما الى سخرية ....، سأل ابن العليان : شنهو راح يسمونها ....؟

- مدينة العفاريت والجان

- منين راح يلقون لها او ادم ؟

١- بداية الظلمات ٥١٤

٢- السابق ٣٩٦

٣- السابق ٥٣٥

٤- السابق ٥١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- من إرم ذات العماد

- هذي الله سخطها ، وخلصوا رجالها

- الخويا يدورون لهم بشر ،ويستأجرونهم

- يلزم يتبضعون لمدينة من هذا الشكل او ادم مخصوصين : طوال جهامة ، بطرابيش سوداء وعيون زرقاء ، ويحملون كل واحد منهم جرس بالنهار وفانوس بالليل ، ويقولون لهم : شقوا البحر وانتظروا او افتحوا بطن الفلاه ، لان اهل موران ماتوا ، وانتم اللي رايح تدفنوهم بليا غسيل ، وبدون صلاة وعسى الله يوفقكم - وسيسمونها مدينة فنر لقد حضروا السرج قبل القرمن) (١) وحقا انها مدن ملح لانه بنيت في غير زمانها ومكانها ، فانتفخت وتضخمت على غير الطبيعة ، موتها اسرع من بقائها . والى جانب التكتة ولدت الأغنية الناقدة الساخرة التي تعبر عن ضمير المجتمع العام قال مغني العوالي عمر زيدان حين علم بلجوء الطيارين (ليست شغلتي الطرب فقط . فانا اكبر قارىء للتاريخ بالعوالي) (٢)وغنى عباس الواثلي البصري في لحظات من العذاب واليأس غناء ينضح بالسخرية والهزء (٣) ولم يسلم هذا الجيل من الحكام من نقد شمران مثلما لم ينج الجيل الذي قبله ، وظل كعهدنا به في موقفه الرافض للسلطة وللجديد ، أطلق كلاما نقديا رمزيا ينضح بالسخرية والتحدي والهجوم وعدم الرضا جوابا عن اسئلة بعض الشباب الجامعي عن موران واحوالها فقال ساخرا (موازن ما مثلها هذه الايام بالعلالي ، نحر وزمر ، وغناء ورقص ، ودق قهوة وشم هيل ، والشيوخ طالت اعمارهم وكثر الله امثالهم . مربعين بموران : يستعرضون ويقسمون سوالف ، وطويل العمر يطف بهم حتي يحارب بهم ...) (٤) واتجه صوب السوق القديم تعبيرا عن رفضه لهذه الحقبة مثلما بدت عليه اثارها القاسية ، وآثار الزمن وبدأ اكبر من عمره بفعل عوامل الوراثة والأمراض وسوء التغذية والهموم ، وشعر واحد من جيل الشباب بمشاعره فقال (الله يعين موران ويساعد اهلها وواحد من الأسباب تكفي) (٥) ورحل شمران الى الماضي : الزمان والمكان . الى الصحراء حيث الطبيعة ، لم يستطع الأنسجام مع هذه المرحلة كغيره من الفقراء الذين رحلوا الى الصحراء لعدم قدرتهم على التكيف ولاحساسهم بالظلم ، بعد ان ضاقت الحياة بهم ، وحين علم شمران بموت صالح على يد السلطة خاطبه خطابه لعصر مضى وجيل رحل لا يعرف الخوف والمداهنة ، وتذكر مواقفه واهتدى

١- بادية الظلمات ٣٨٥

٢- السابق ٤٩١

٣- السابق ٥٤٣

٤- السابق ٤٠٠

٥- السابق ٤٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بها واسترشد , ومثل صالح نهاية عصر مضى اتسعت الهوة بينه وبين الجيل المعاصر , فقال (كان صالح اشجع منا وأصدق وهذا الذي خوفهم منه ، لو كنا نملك شجاعته ولو أنه يعرف خوفنا لما كنا هنا ولما كان هناك , والى ان نفتك العقول من عقالها والشجاعة من حبالها سنظل نصيح عتابا ويردون علينا بالليل الى أن يفرجها مجنون عاقل او عاقل مجنون) وقال بعض الفقراء: (صارت موران سجنا) وقال آخر (سجن وجوع وقلة دين)(١) ولقد كان رحيل شمران وحوله مجموعة من الفقراء رحيلا الى الماضي في الزمان والمكان , رحيلا الى الصحراء التي طبعت اجيالا عديدة بسماتها , فكانت البداوة مرحلة حضارية عاشتها اجيال عربية مثلما ان المدينة هي مرحلة حضارية أخرى صنعتها ظروف في المكان والزمان والحياة فطبعت اجيالا عديدة بسمات ايضا , وهكذا فالبداوة مرحلة حضارية تشكلت في الصحراء مثلما ان المدينة مرحلة حضارية, وانطبعت الأجيال التي عاشت في كل منها بطوابعهما , وهكذا يقف المكان الى جانب الزمان في صياغة مفهوم الجيل , ولهذا احس شمران ومعه الفقراء بالفرح في الصحراء والامتزاج والتكيف , وأدركوا ان الحياة ليست مجرد رحلة الجوع بين مكانين , بل هي اكثر من ذلك ما دام الانسان قادر على صياغة مستقبل جديد مع غيره , فكان شمران ما زال قويا ويتطلع كل صباح الى الشرق، وكان لا ينام قبل ان يجهز بندقيته ويستفيظ ويرفع يده الى جنبه يستطلع الأفق والرياح وأحتج شمران على استيراد خيول الى صحراء العرب من بلاد الأجانب في الوقت الذي يدرك فيه أن الاصالة تبعث من الصحراء العربية , وقال (ابشروا يا أهل موران الدنيا بأخرتها) (٢) (والمهبول من يحضر العلف قبل الفرس , وستأتي الخيل ولا تجد العلف , وستشرب السراب والناس بحاجة الى الماء) (٣) وعاد شمران الى المقهى بعد أن طلب لإبداء رأيه في الخيول مهزوما . وبعد ان تعرف الى بعضها كان باعها في سوق الحلال وأشار بأسى الى ان هذا الجيل أضاع اصالته في وقت نحن اجدر ان نعلم غيرنا وتنشر الحضارة الا ان نمكن غيرنا من تصدير حضارتنا الينا فقال(آخر ما قل للعرب خيلها . ضيعوا الأرض والعرض وقلنا الخيل تعيد الأول والثاني لان صارت خيلنا تأتينا من الخارج وغيرنا والاغراب هم الذين يعلمون الخيل الأصيلة من المضربة فكيف اسكت ؟ وقال الحصان الذي طلع من عندنا حمداني رجع السينا صقلاوي)(٤) لقد كان حديث شمران يتعلق

١- بانية الظلمات : ٢٤٣.
٢- السابق : ٢٦٨
٣- السابق : ٢٦٩
٤- السابق : ٢٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحين هلّت بوادر خلاص هذا الجيل نظّف شمران سلاحه وأطلق عدة عيارات وهو يهتف فرحاً ومما يميّز هذا الجيل ولادة بذور وعي جديد بادر اليه بعض أبناء الأسرة الحاكمة . ففي الوقت الذي انهارفيه هذا الجيل على يد واحد من أبنائه هو الأمير ضاري فانّ واحداً آخر كان يبشر بولادة جيل واع جديد هو الأمير سند . لقد بادر هذا التيار الواعي الى الاشارة الى الأخطاء والتنبيه اليها والرفض والتحدي وصولاً الى المواجهة والانشقاق والانفراد بتكوين تيار جديد فكان ان طلب سند ومعه خمسة من أخوانه الأمراء حقّ اللجوء السياسي في دولة الدواحس مع عدد من الطيارين ايضا(١)،فقد رفض الأمير سند حرب الدواحس واحتج على سلبية السلطان ، كان يرى ان تتوقف الحرب انسجاماً مع أعراف الصحراء العربية،وأدرك السلطان أنّ سنداً لا ينفع أن يكون وزيرًا وتذكّر بذلك قول هاملتون (عندما يفكر الوزير بنفسه اكثر من تفكيره بك فأن مثل هذا الوزير لا ينفعك ولا يكون وزيراً نافعاً)(٢) واحتج الأمير سند لأن الاجانب هم الذين يوجّهون السلطان،واستعان السلطان بالإعلام لتشويه صورة المعارضة وتطويقها . وآمن سند أنّ الأمل والخلاص حتمية كحتمية الانهيار . واذا أحرقت غارات الطيران (حومة الوادي) فأن شجرها وبيوتها ستُبني يوماً قبل بناء المدينة الجديدة (مدينة ارم ذات العماد . مدينة كبيرهم الذي علّمهم السحر قفر) (٣).ولعب الجهل دوراً بارزًا في هذه الحرب اذ أعتمدت السلطة على جيش غير واع يؤمن انه (مادام الخويا معنا . انا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب)(٤) فضلاً عن حملات التضليل وقلب الحقيقة وحجبها في ظل غياب الحرية . وفي ظل إعلام فكري موجّه لخدمة هذا الجيل من الحكام . فقد ابلغ البدو الذين شهدوا الدمار في حومة الوادي ان رجال الدواحس وطائراتهم هم الذين قاموا بذلك و قد أعدم بعض الذين وقفوا في وجه السلطة ، أُعدم برجس بن عمير وصالح الرشدان وعارض سند سياسة العنف التي نهجها قفر ، اذ أُعدم دون محاكمة ودون مراعاد لحقوق الانسان ، ويظهر الخلل واضحًا في هذا الحديث في مجلس الحل و الربط . فقد أوعز السلطان لراكان اعدام عشرين أو ثلاثين رجلاً كي تنتظم السلطنة وعدّ السلطان هذا اليوم من أكبر الأيام (ويجب أن تذكروه وتعلموه لأولادكم .

١- بادية الظلمات ٤٨٧ ؛
٢- السابق ٥٥ ؛
٣- السابق ٦٧ ؛
٤- السابق ٥١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن الناس الذين أعطيناهم صاروا يقولون لنا "هذا يصير وهذا ما يصير". و تدخل الأغراب و صارت حرب الدواحس ، واحتج سند على السلطان و راكان و مساعد لأن هذا العدد قتل بدون محاكمة و بدون أدلة ، و قال السلطان(حنا الذيب غايرعلينا،وسيحاكمون) و قال السلطان :(الإعدام هو الاعدام ، يجب أن يخاف الناس)(١) فالمهم هو هيبة الدولة و اختلف الأخوة حول الدستور . فقد أثار كلام السلطان حول الدستور استياء الناس و سخريتهم عقب الانتهاء من الاعدامات واحتجّ الأمير راكان على الوعد بالدستور لأنه و طبقاً للدستور سيشارك الشعب في الحكم مثلما احتج الأميرمساعد على ذلك ، و بالدستور ستغيب المزاجية و سيقضي على ذلك الجيل ويروز وعي جديد و قوى جديدة(٢)،و لم يكن السلطان صادقاً في ما قال استناداً لما تعلمه من استاذه هاملتون في (الأمير)(على الحاكم الذكي أن لا يحافظ على وعوده و أن يخلق عداوات ليقضي عليها لتتضاعف عظمته ، على الحاكم أن لا يخشى المؤامرات اذا كان الشعب راضياً ، اما اذا كان غير راضٍ فعليه أن يخاف من كل انسان) (٣) .و قال يخاطب راكان حول الدستور (ليس كل ما يقال ينفذ و أنه ليس مخلوقاً لبلادنا و هي كلمة قلناها منذ زمن طويل ، و أن هذه سوالفهم في أمريكا و أوروبا،اننا لا نملك دستور و لا نعترف بأية حقوق انسانية و للمواطنين و يجب أن لا تخاف ، تريدون دستور ؟: حلّت البركة وأنتم يا أهل موران ويا أهل العوالي ، نريد عونكم ، واذا تريدون دستور ما يخالف ، بغير لازم تقول ذلك دون خوف و أريد اذكركم في المثل شيّم البدوي و خذ عباته ، و الدنيا وين ما تلفّتّ كلها بدو ، يجوز يكون بدو غير دبرة يلبسون غير ملابس ، لكن العقل واحد،و قال الأمريكان بعد حرب الدواحس ، لماذا لا نأتي بأفندية ومعهم عساكر يحكمون السلطنة بدل الشيوخ و الأمراء و كان بينهم متحمّسون ، لكني رفضت ، و لهذا قلنا الدستور و الدولة الحديثة و غيرها من السوالف الجايغة) (٤) و هكذا فأن هذا الجيل خاف من جو الحرية والديمقراطية ، وان طرحه للدستور بهذا الشكل كان استجابة لرغبات الاستعمار وخدمة لمبادئه وتوجيهاته الفكرية ، ولم تكن أفكاره وانجازاته .وقد نطق السلطان بسمة هذا الجيل وهي أن عقليته ما زالت بدوية على الرغم من اختلاف المظاهر. وأخيراً أدرك الأخوة ان السلطان (فنر) قد ارتكب خطأ في هذه الحرب ، واختلف مع راكان وخشي السلطان ان يخرج عليه كما خرج سند من

١- بادية الظلمات ٥٢٤.
٢- السابق ٥١٩ .
٣- السابق ٥٢٠.
٤- السابق ٥٢١ . ٥٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبله ، واتسعت مساحة المعارضة الشعبية فبعد الاعدامات قتل رضا الجاوي يدور في الطريقة يجمع توقيعات الناس على عريضة احتجاجية ، موجهه الى سلطان المسلمين ، وبقية البشر ، الى الله ، ليفعل شيئا قبل قيام الساعة ولقد تعبت موران وتعب الجيل الذي عاش في ظل حكم السلطان قتر ، فتاقى الى الخلاص ، ظلت الأذان مصوبة نحو الريح ، سمعت خلافات الأخوة الامراء فكان بداية الوعي وبريق الأمل والبشارة (١) . وكان اكتشاف تنظيم داخل الجيش من امارات الفرج ، واول اشارات الحريق الذي يهدد هذا الجيل الحاكم تبعتها انفجارات قرب وزارة الدفاع ، وتلفت الناس وتساءلوا (...ها... وصلت البشاير ام هذي غيمة صيف كذابة ؟)(٢)واشارت حوادث الدواحس الى أن النار اقتربت ،وحقا كان الخطر قريبا وكان من داخل الأسرة فضلا عن الدوي الذي يصدره فقراء موران ضد هذا الجيل من الحكام . وكانت تجربة موران في الحكم ، وتجربة هذا الجيل في السياسة ، عبرة لأجيال لاحقة ، فقد قالت احدى النساء تنتقد ذلك الجيل من أهل موران (شنهو بلا الناس ، ما يشوفون ؟ ما يسمعون ؟ ما يمشون بين القبور ؟ ورد حمد الدولعي : الناس شايفين كل شيء ، بس يلزم غيرهم يشوف يسمع ويمشي بين القبور حتى يتعلم) (٣) مشيرا بذلك الى اهمية دراسة الاجيال من حيث كونها عبرة ودرسا لأجيال لاحقة وتابعت موران رحلتها مع التنصت والتلفت والترقب من جديد وكانت بشائر الخلاص في الثورة ولقد أحس السلطان نفسه بنهاية ذلك الجيل عندما تساءل عن رفوف طير سوداء وهو يطل من النافذة على أشجار النخيل دون ان يدري ان ذلك كان نهايته ونهاية حقبة من تاريخ الصحراء في المدينة ، فاغتال السلطان الأمير صاري (٤) . ومما يلاحظ في هذا الجيل غياب دور السحرة والمنجمين في الدولة وقارن عبد الله البخيت بين منهجي السلطان خزعل والسلطان قتر في ذلك الجيل بقوله :" ان قتر اكثر جنونا من خزعل اهلك البلاد والعباد اما خزعل فكان لاهيا بالنساء " (٥) .

١- بداية الظلمات ٥١٣،٥٥٩،٥٥٥
٢- السابق ٣٩٥
٣- السابق ٥٨٤
٤- السابق ٥٨١،٥٨٠
٥- السابق ٥٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- المدينة في الذاكرة

تكشف في ما يلي عن صورة موران لدى بعض الدارسين العرب والاجانب الذين عاشوا فيها او قدموا اليها عداد دراسات مختلفة عنها .

اما عمر الطريفي الذي درس القانون عاش في باريس بلاد الحرية والعدالة والمساواه فقد خرج عندما ولى عهد خزعل . واعتبر هزيمته هزيمة للبداوة امام الحضارة . وبدأ السلطان فتر عهده بالوعد بالدستور لكن عمر الطريفي غادر دون العمل به بل ساءت الامور اكثر (١) وفي وقت كان احصر معه عددا كبيرا من دساتير دول اخرى للاستئناس بها في وضع دستور بلاده . لكن السلطة واهمت بيته ووصادرت كتبه وداس على الدساتير وأدارت موران ظهرها لكل الدساتير وحكمت بحراج . عندها ادرك الصرايفي ان الذين يحكمون يكذبون كثيرا(٢) وان هذا الجيل حكم بغير دستور. وقد اكدت ذلك دراسة اعدها طالب حول(طبيعة شخصية الفرد في موران) . اذ لم يعد الناس اهتماما بالوعد الدستوري لانهم غير متأكدين من جديته وانهم لا يعرفون الفرح ليعتبرونه ممكنا وحقيقيا بل ويعمدون الى جلد انفسهم ويتلذذون بالاحزان(٣) وانتهى احد طلبة كان يعد رسالة دكتوارة عن أثر النفط في التنمية : النموذج السلطنة الهدييية . الى انه مدعو للتفكير بوصفه واحدا من المثقفين وانسانا بكل شئ من جديد. وان يحتل دورة وان يعرف واجبه ودوره لتكتسب الدراسات معناها واهميتها . وانتهت الى ان هذا الجيل يعاني من قسوة الحكام . تفوق مشاهد القسوة في اسبانيا(٤) وبين طالب يعد دراسة عن الاسس المعيارية في الشخصية الانسانية(٥) وتعطيا بعضا من سماتها . واشار دارس الى ان الحرب تركت آثارها على السلطنة . تمثل ذلك في غياب جيل من الرجال. وهم اما مجندون او مهاجرون . او انهم في حالة تبعث الاسى يتجه الى اتجاهات والعاهات . عدا عن الجنون والخبل . اما القسوة فاقرب الى الحزن الشديد الصفوف . والمسنون في حالة غياب كامل وذهول رغم وجودهم في المكان مما يشير الى تمزق هذا الجيل وغيابه عن الواقع واثر الحرب في نفسيته وسلوكه غير السوري . ويؤكد هذا تحقيق اعده صحفي بلجيكي عن موران بعد الحرب . اذ توصل الى ان المدينة تفتقر الى الشباب . ليس فيها سوى المسنين والاطفال كأنما مصح وان عدد المجانين والمعتوهين كبير(٦).

كتب رويرت يونغ في مذكراته يصف موران بعد غياب عشر سنوات عنها و ما أصابها من تغير و نمو ، كما لم تتغير مدينة اخرى .فلم يتعرف الى معالمها التي

١- بداية المكاشفة : ٢١٢ ، ٢١٣
٢- السابق ٢٤٠ ، ٢٤١
٣- السابق ٥١٤ ، ٥١٥
٤- السابق ٤٠٨
٥- السابق ٥٧٢
٦- السابق ٥٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ارتسمت في ذهنه ، وبدأ الحاضر فوق أنقاض الماضي وانقطعت الصلة بينهما . فلا شئ يجمعهما . فموران التي كانت حاضرة في ذهنه مضت وقامت مكانها أخرى ، واشار الى انه مما يحفظ المدينة ان تكون لها ملامح خاصة وشخصية خاصة، من خلال ما تخلفه معالم الطبيعة او مما يصنعه الانسان (١). وقد فقدت موران هذه التكهة الخاصة ، (موران ، وانا اراها ، الان ، بعد أن زالت معظم وربما كل معالمها القديمة وبعد ان اعيد بنائها من جديد ، لكن ضمن الف طراز ، اصبحت شبيهة ببعض الطيور الأفريقية : مزركشة جدا لكن دون جمال ، الطراز القديم الى جانب الحديث جدا ، اللبن الى جانب الزجاج العاكس ، الأندلسي الى جانب الياباني ، الهندي الى جانب ناطحات السحاب، اكثر من ذلك القصر الواحد مزيج من عدة عصور، ومن عدة أماكن) ويستمر في قوله (موران القائمة الان ، يمكن ان تنتقل او تزول ، بعد عدد من السنين وهذا العدد اذا تفاءلت او تشاءمت لا يتجاوز الثلاثين سنة،لان كل شيء ليس مكانه :الأبنية والبشر) (٢) ويتضمن قوله السخرية والنقد لهذا الجيل (..مدينة مثل التي اراها تصلح لان تكون معسكرا لجيش منتصر ، لجيش كان يراهن على تحقيق هدف معين وحين تحقق هذا الهدف بالغ هذا الجيش في التعبير عما افترضه نصره الخاص ، بغض النظر عما عدا ذلك ، أو ماذا يحمل المستقبل من مفاجآت بعد أ ن يبتعد النصر وتتغير مهمات الجيش ، سوف لن تجد هذه المدينة من يحرص عليها ، او يريد بقاءها ، لانها ولدت في غير مكانها وفي غير زمانها، حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها لانهم لم يتصوروها بهذا القبح وبهذا العداء . ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية اذا اصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها ؟ هل يريدون افرانا اضافية زيادة على الجحيم الذي يعيشون فيه؟ هل يريدون مزيدا من مصائد الغبار اذا راكموا ذلك الفرش والاثاث المصمم لمناطق باردة ؟ وماذا يفعلون بهذا الكم الهائل من الأجهزة اذا عجزوا عن اصلاحها ؟ الفقراء ، نعم الفقراء وحدهم الذين سيكونون مضطرين للبقاء . لكن كيف سيشقون طريقهم ضمن هذا الركام الهائل من الاسمنت والحديد والزجاج لكي يبدأوا حياتهم من جديد . الأمر لم يقتصر على شكل المدينة او طراز بنائها ، فان البشر خلال هذه الفترة تغيروا الى درجة لم يعد من السهل فهمهم او التعامل معهم ، صحيح اننا عايشنا

١- بداية الظلمات ٢٨٣

٢- السابق ٢٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكثير ونحن نقيم العلاقة من قبل كانوا يبدون لنا في حالات كثيرة غير مفهومين بالمقدار الكافي . لكن الآن اصبحوا طرازا مشوها من المخلوقات ، أو اشبه ما يكونون باحدى مراحل نمو الضفدع ، خاصة المرحلة المتوسطة ، حيث لم تعد تربطهم بما كانوا صلة ، وسوف لن يحملوا من ملامحهم الحالية شيئا للمستقبل ، وهذا لا ينطبق على الملامح وحدها دائما وتمتد الى النظرة والسلوك والعلاقات ايضا) (١) .ويرى يونغ أن امراء موران هم مفاتيحها وسبيل الوصول الى الأهداف , وموران ارض عذراء تبشر بالخير والمستقبل من خلال عقد عطاءات مجزية (٢)واشار الصحفي د. يفيد برادلي في رسالة ارسلها الى جريدته خلاصة زيارته الى موران مع وفد صحافي الى التغير الذي اصاب الأشياء والعلاقات والبشر في موران على عكس ما كان يحس به من ثبات في المرات السابقة ، وهو يشير بهذا الى اختلافات آراء الأخوة وتباينها والى وعي يبشر بولادة جيل جديد واع ، وبدت موران التي كانت تمثل القناعة والرضا في مرحلة اقرب الى الانتقال الى مرحلة اخرى فأعلن بعض المثقفين ان البلاد بحاجة الى دستور ينظم امور الحياة ويحكم سيرها وطالب آخرون بمشاركة الشعب في الحكم وان لا يقتصر على الأسرة الحاكمة والحاشية. ظلت ملامح حياة موران في الوجوه الى درجة لا تغيره مظاهر الحياة الجديدة من ابنية زجاجية عالية او حديدية ، والتي غالبا ما تكون فارغة ولا تلبي حاجات السكان العقلية على الرغم من التراكم العشوائي الهائل لآلات التبريد والمصاعد ، والأجهزة الكهربائية الى درجة تزيد عما في البلدان الصناعية ويقول (ويحس الانسان ان كل شيء غادر مكانه وكل ما يفترض انه باق راسخ لم يعد كذلك ، وأي زائر يقارن بين ما كان وما هو قائم ، يجد فرقا كبيرا ومن المؤكد ان الأمور لا يمكن ان تعود الى ما كانت عليه) وعلى الرغم من التغيرات الظاهرية في اساليب الحياة وأهميتها ودلالتها الا انها لم تغير في بنيته المجتمع الحقيقية والعميقة ، لكننا لا نعدم حصول تغير عميق ومؤثر في السنوات الأخيرة وسيترك آثاره في المستقبل ، تمثل في بروز قوى جديدة ووعي جديد لدى الكثيرين ، منهم اخود السلطان ، وعلى رأسهم الأمير سند، تلك قناعة برادلي . (٣)

١- بداية الظلمات ٢٨٤، ٢٨٥

٢- السابق ٣٣٨

٣- السابق ٣٥٠-٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار كثير من الصحافيين حتى العرب منهم الى أن المستقبل يحمل الخطر. وكتب برادلي ان بعض الممارسات والعادات والأخلاق ما زالت لم تتغير كالجلوس على قارعة الطريق وطرق التحية (واكثر من ذلك ، يخيل للانسان ، انّ أغلب المشاهد بما فيها الناس ، بالعيون الساكرة . وهي تتابع الصغيرة والكبيرة ، هي ذاتها او كأن الناس والأشياء لم يغادروا اماكنهم او وضعياتهم من ان رأيناهم في المرة السابقة)(١)وكتب صحفي انجليزي ان (موران مدينة عجيبة ، انها تشبه الصحراء بكل تفاصيلها واخلاقها ، او بالأحرى تلخّصها ، فهي قادرة على استقبال كل شيء ، وهضم كل شيء تماماً مثل النعام ، لكنها تعرف كيف تتظاهر بالصمت والسكينة) (٢).وبعد الأحداث الأخيرة غلّف المدينة صمت ثقيل شديد الوطأة عمّ الأسواق والبيوت فأحسّ الناس الذين وصلوها حديثاً بالحيرة والخوف ، وكتب زائر أجنبي (وأغرب شيء في هذه البلاد ان الناس لا يتكلمون، انهم كالسلاحف, يغرقون في قواقعهم ويصمتون. ووحدها عيونهم التي تتكلم ، وحين تتكلم العيون فانها تقول اشياء خطيرة ، اقرب الى الحرائق .... أمّا أن يمتنع البائع عن بيع سلعة موجودة لديه ، ويهز رأسه دلالة عدم وجودها وأنت تراها بعينيك . فان هذا لا يمكن ان تصادفه في غير موران)(٣) وذكر صحافي انكليزي كان يعدّ كتاباً عن السلطة ان صعوبة تكمن في تاريخ هذه الحقبة من الزمان،ورَسَمَ صورة ذلك الجيل . اذ تُروى الأحداث بأشكال شتى حسب قناعات الناس وعواطفهم ، وهذا يؤثر على دقة الوقائع وتفسيرها لا سيما ان ذلك الجيل لا يملك ضمانات لمواجهة السلطة. فالتغير الذي حصل في المجتمع هو شرخ وخلل كبير جعله متقطعاً عما مضى وغير قادر ان يشكّل امتداداً له،في الوقت الذي لا يجرؤ أن يكون فيه شيئاً جديداً ، إنه وضع انتقالي بين القديم والصيغ الجديدة . (٤) وسخرَ مهندس ايرلندي من ذلك الجيل حين شهد عدداً هائلاً من السيارات المتراكمة في المدخل الغربي لموران وقال (سوف يعيش ناس هذه الأرض في النعيم الكامل لأن لديهم كل ما يريدون ، نعمة النفط الآن ، ونعمة الحديد في المستقبل، وستجد الأجيال القادمة،وبعد أن ينضب نفط المنطقة الحديدَ قريباً من سطح الأرض)(٥) ولاحظ ليفي شاوات تغيرات شكلية في الناس والمدينة ،وان الأمراء يبذلون جهوداً ويركّزونها في العناية بأشكالهم وألبستهم أكثر من

١- بادية الظلمات ٣٥٢
٢- السابق ٤٩٦
٣- السابق ٤٩٨
٤- السابق ٤٨٩، ٤٩٠
٥- السابق ٣٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنايتهم بقضايا هامة . وانهم يحيون الاطراء والدلال والأخذ بأقتراحات الآخرين في اللباس والزينة (١) ، وحتى المفردات والمسمّيات التي يطلقونها على حيوانات الصحراء قلّت حاضرة في المرحلة الجديدة،اذ نقلوا استعمالها الى المخترعات الحديثة . بل لم يتجاوز آفاق تفكيرهم حيادّ الصحراء . لقد صلّى العجرمي على خمسة من الأمراء الذين ماتوا بحوادث سير وقال لعبد الله البخيت (أن ثلاثة من أبناء خزعل انذبحوا بالسيارات وهم سكارى ، وان الذين ماتوا وهم يتناطحون بهذي البلاوي . ويقولون ان السيارات مخرّبة ، وبعضها ماله رسن يوقفها)(٢) تلك هي سمات الجيل من خلال المدينة ذاكرة الأجيال وكتابها المفتوح .

١- بادية الظنمات ... د

٢- السابق ٣٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

ظواهر فنية

اولا : الزمان في رواية الأجيال

١- صـــورة الزمان

٢- الانسان والزمان

- جدلية الانسان والزمان

- اثـــر الـــزمـــان

- وعـــي الجـــيـل

٣- الخلود

٤- المصير الانساني

ثانيا : الواقعية في رواية الاجيال

ثالثا : تعـاقـب وتـــلاحـــم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

ظواهر فنية

نتعرض في هذا الفصل الى اهم ظواهر رواية الاجيال الفنية من خلال نماذجها العربية التي خضعت لهذه الدراسة.

أولا : الزمان في رواية الاجيال : رواية الاجيال رواية زمن في المقام الأول ،فهو المحرك والفاعل والسائد فيها . فقد أقام محفوظ في ثلاثيته (بناء فنيا) عبر فيه عن مفهومه للزمن مستمد من النظرية القائلة بحتمية التطور التاريخي(١) فالحدث الرئيسي في الثلاثية هو (سير الزمن) وتأثيراته المختلفة في عدة اجيال مصرية من خلال اسرة السيد احمد عبد الجواد(٢) ، وهي رمز كبير للزمن . تولى كل جزء فيها تقديم جيل بما يحمل من افكار ومعتقدات واسلوب حياه , مما يعني ان الانتقال عبر اجزائها يعني السير مع حركة الزمن عبر رحلة طويلة امتدت من جيل الآباء مرورا بجيل الابناء وانتهاء بالاحفاد . وقد استخدم الكاتب حركة الزمن لابراز حركة تغير الحياة ومأساة الانسان عبر الزمن الذي يسلبه شبابه وجماله وصحته مثلما ابرز لنا مصائر الشخصيات(٣).غير ان الثلاثية لا تكتفي بتسجيل سير الزمن واتخاذ الموقف منه حسبما يتطلب تيار الحوادث . ولا تقف عند تسجيل الحوادث وتصويرها فنيا بل تتحو نحو الواقعية النقدية . وان هذه العمليات المتعاقبة لحركة الزمن تتم على اساس الايمان بقدرة الزمن على التغيير الحتمي، وما اكثر ما يتغير !! ولا مفر من تغيره(٤) . ففكرة الثلاثية الرئيسية سيرورة الحياة وتغيرها , تغير كل شئ ،العادات والتقاليد الراسخة التي عجز عن تغييرها الافراد . فما كان محرما صار مع الزمن من الحقوق الطبيعية , وطال التغيير أفكار الشخصيات ومعتقداتها .

١- غالي شكري : المنتمي ص ١٨

٢- د. علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ص ٢٤٩

٣- فاطمة الزهراء : الرمزية في ادب نجيب محفوظ دار المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨١ , ص ١١٧ , ١١٩.

٤-د. علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ص ٢٥٢ , ٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلقد أذعن السيد أحمد لسنة التغير مثلما أذعنت له خديجة و انجبت أحمد الذي أصبح يسايا بما يتناقض مع قيم طبقته ، و هكذا يبدو الزمن في الثلاثية ، بجبريته في صورة " صانع التغيير" فكل شئ عبر الزمن يبدو عرضة للتحلل و الزوال على حين يبقى الزمن و يستمر . و قد رثا محفوظ المصير الانساني و سخر من مكابرة الانسان و هو المؤقت الزائل ، فمقابل الزمن يبدو كل شئ نسبيا و قاصرا . و نحس طوال الثلاثية بتيار الزمن يطبق على ما حوله من أحداث ، فيندثر القديم عبر الزمن و يولد الجديد ، و بذلك تدور جلة التغير دورانا آزليا أبديا (١) . و نحس به يلقي بكاهله على وجدان الشخصيات .

و يبدو لنا في آخر الرواية تضاؤل ارادة الانسان أمام ارادة الكون ، و أخذ الصور نحو الجديد يتخذ طابع الحتمية ، ذلك أن ايقاع الزمن منسجم مع الجديد ، و بدأ القديم في " السكرية" بالاندثار ، و سيطر الجديد على الموقف كله . و سيطر القديم على الجديد في " بين القصرين " و تحكم بارادته . و تعادلا في "قصر الشوق " الى أن سيطر الجديد في الجزء الثالث ، و اندفع الزمن غير عابئ بمن كانوا مركز الثقل في يوم من الأيام و أصبح الانسان مجرد علامات على الطريق نحو مصيره المحتوم (٢) ، و هكذا أيضا يتم الزمن دورته الأبدية ، فالجديد يصير قديما ثم يندثر ، و يعيد التاريخ دورته طبقا لسنة التطور الخالدة . و هكذا ندرك وعي محفوظ بأن التجربة الانسانية ما هي الا ثمار جهود أجيال متعاقبة ، و لا يتوقف بناؤها على جيل واحد .

و قد تشكلت لدى الأجيال المتعاقبة صورة واضحة للزمن هي في حقيقتها بعض سماته الوجودية و الحضارية ، نسلط حديثنا التالي على هذه الصورة و على وعي الشخصيات و إحساسها بالزمن و على أثره عليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١-صورة الزمان : لقد أشارت الشخصيات الى ديمومة الزمان و استمراريته مقابل التجربة الانسانية الانية النسبية الزائلة ، و هكذا فلكل شئ نهاية : التاريخ و الحب ، و حتى الاحلام التي هي فوق الحياة (١) . و أفصح عامل الفرن عبده عن وعيه سيرورة الزمن و أنه لا يتوقف و لا يتمهل في قوله (الفجر لا يتأخر و لا ينتظر) (٢) . و الزمان في دورانه يحتضن التجارب الانسانية ، ماضيه لا يعود ، لكنه يترك علامات و آثارا . فالماضي ما له تاريخ مسجل . أما المستقبل فلا تاريخ له لأنه لم يقع بعد . أدرك ذلك كمال و أن الماضي لا يعود (فان حوادث كثيرة تبدو كأنها لم تقع لو لم يقيدها يوم و شهر و عام ، اننا نستعدي الشمس و القمر على خط الزمان المستقيم تدوره لتعود الينا الذكريات الضائعة ، و لكن لا شئ يعود أبدا ...) (٣). و الماضي أيضا لا يتغير و هكذا ما أدركه أحمد شوكت (٤) و قبله ياسين من خلال ادراكه لتاريخ والدته التي جعلته يتصور الماضي رمزا للقسوة ، فحتمية ارتباطه بها جعلت آثار تجربتها القاسية تعبر الى حاضره و مستقبله و تقف حائلا دون ارادته في التغيير فالماضي زمن حتمي يختلف عن المستقبل في أن الانسان يستطيع أن يصنعه ، قال ياسين في نفسه (انه كان في وسع الإرادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد .

١- قصر الشوق ٣٢٣

٢- التيه ٣٢٠

٣- قصر الشوق ٣٥٨

٤- السكرية ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكننا لن يكون لنا مهما أوتينا من ارادة الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب)(١) ويرى الحكيم ان العمر يجري كماء النهر ولا يمكن ان يتوقف او يستعاد(٢). فالزمان الطبيعي واحد لا يتكرر واذا اعيدت التجربة الانسانية في ظروف زمانية وانسانية واحدة فإنها في الحقيقة تأخذ وضعا في زمان يختلف عن الزمان الذي حدثت فيه في المرة الاولى , وقد وفق عبد الرحمن منيف حين شبه الاجيال في دوامة الزمن بالسيول والانهار اذ يقول في خماسيته (ولنتوقع ان تكون ايام الاولاد احسن من ايام الاباء . لنتأكد ان الحكام يشبهون السيول : يأتون بقوة , لكن يذهبون بسرعة . البحر يبتلع كل السيول والبحر يبقى...)(٣) وهكذا فالاجيال البشرية تشبه روافد النهر يجف بعضها , وترفد اخرى بالمياه , ويسير النهر ويستمر تدفقه حاملا معه تجارب البشر , فيبتلع البحر الجميع ويبقى الزمان ويدوم وتنتهي اجيال متعاقبة وفي هذا التعاقب تستمر الحياة . فالبحر هو الزمان الطبيعي الذي تدور في احضانه تجارب البشر , وتظل دوامة الحياة أن : (الكل في حرب مع الزمان , ولا شئ يدوم سوى التغير , ولا شئ ولا أحد يصمد أمام الزمان)(٤) مما يؤكد ان الكاتب كتب روايته وفي ذهنه هذا اللون (رواية الأجيال) .ولعل في تشبيه الاجيال بالنهر ما يشير الى صفة الامتداد والديمومة والاستمرار التي تميزها ويعبر عنه مفهوم (النهرية)(٥) .

واشارت الشخصيات ايضا الى تغير الزمان وتقلبه , والى ان الزمان الحضاري منقطع لا يدوم , فقد ترددت في خماسية عبد الرحمن منيف (لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم(٦) على لسان شمران والتيار الذي مثل المعارضة وعبرت عن ذلك عرافة الحدرة نجمة المثقال حين سألها رجل من بني سحيم في قولها " الدنيا دالوب ، يوم فوق والثاني تحت. لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم " (٧)اما اتجاد الزمان المتغير المتقلب النهائي فهو التراجع والفناء . فقد تذكرت بعض الشخصيات وفي غمرة هذا الاحساس وهذا المصير المحتوم نماذج من الحضارات التي اندحرت وتساءلت " اين الملوك والاباطرة ؟: من التراب والى التراب تعودون"(٨) وليس ادل على ان الموت هو النهاية الحتمية من الاجيال التي احتضنها وادي العيون ، اذ بقي وعبرت

١- بين القصرين ص ٧٣

٢- المنيت ١٩٦

٣- بادية الكتمان ص ١٠١

٤- فانزميرهوف : الزمن في الأدب . ترجمة د. اسعد رزوق ص ٨٢

٥- السابق ص ٢٣

٦- الاخدود ص ٥٥٢

٧- تقاسيم الليل والنهار ص ١٢

٨- السابق ص ٤٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجيال متعاقبة ، فالتغير سنّة الحياة الأبدية ، غير ان قيمة الماضي تبدو في كونه درساً لأجيال لاحقة ، ولهذا يحاول الانسان استرجاع الذات باقتناص الماضي عن طريق اكتشاف الحسّ بالاستمرار مع شئ يبدو ضائعاً الى الأبد والانتماء اليه(١)

ولعل من أبرز مظاهر التغير التي طرحتها خماسية عبد الرحمن منيف انتقله الحضارية من حياة الصحراء الى حياة المدينة واستخدام الالة. فكانت حقاً نهاية حقبة طويلة من الزمن والحياة وبدء اخرى لها ملامحها عبّر عنها متعب في قوله (انها نهاية العالم)(٢) .

وقد دعا خزعل أحاد قدر أنّ يتعايش مع الزمن بعد أنّ طال التغير مختلف نواحي الحياة ، ولقد أدرك الجيل الاول ان زمانهم يختلف عن زمان ابنائهم (٣) وطال التغير سير الشخصيات, فسيرة كمال عبر رحلته في البحث عن الحقيقة وما أصابه عبرها من تمزق وحيرة وشك وملل وغربة عبر حالات من الايمان والإلحاد هي من مظاهر التغير ، ومثلها سيرة ياسين وقبلهما سيرة الأب الذي فقد سلطته في نهاية الرحلة بفعل الزمن ، اذ تمرّد عليه الأبناء تباعاً وخفّ ايمانه ببعض المبادىء التي كانت عقيدة لديه. ولكي نقف على حجم تغير الافكار والمعتقدات والسلوك لابد من عقد مقارنة بين الماضي بأبعاده المختلفة والحاضر . بين الجيل الأول والجيل الثالث مروراً بالجيل الثاني،وبمقارنةنموذج أسرة الجيل الأول مع نموذج اسرة الجيل الثالث بكل ما تتمتع بها اسرة الجيل الاول مع نموذج اسرة الجيل الثالث يحملان من معتقدات وعادات وتصرفات نجد انّ مساحة الحرية التي تتمتع بها أسرة الجيل الجديد اكثر بكثير من اسرة الجيل الاول ، وقد حقّق المجتمع المصري تغيراً واضحاً في الثلاثية . فنالت المرأة بعض حقوقها في الثقافة والاجتماع والعمل وحققت البلاد استقلالها وكثرت الدارس السياسية وطرحت الديمقراطية مذهباً وانتهت الحرب العالمية الثانية،وتمتع العقل المصري بوعي ويقظة وواصل المجتمع نضاله للقضاء على الطبقية ، مثلما لاحظنا في نهاية الخماسية بزوغ وعي جديد تمثّل في المناداة بالدستور الجديد واتساع حركة المعارضة حتى في داخل الاسرة الحاكمة على يد الجيل الجديد من أبنائها .

١- هانزميرهوف : الزمن في الادب : ترجمة د. اسعد رزوق ص ١٢٣
٢- التيه ص ٩٩
٣- تقاسيم الليل والنهار ص ١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلصت الأجيال في رحلتها الى ان الزمان غدار وقاس . الهرم من اهم مظاهر غدره .. ومن هنا سر صورته القاتمة . فهو عدو الحياة بمدنها وانسانها ولقد اصاب التغير موران بعد عهد من القوة مما جعل نفر يظن ان لا قوة تقدر على تغيرها , غير انها صارت كغيرها وكأن زلزالا اصابها , وهكذا فان أثار غدر الزمان وقسوته تطال المدن والاشياء والافكار . ويبدو لنا ازدياد الحديث عنه في اواخر عمرالانسان وفي اواخر الروايات . اذ تبدو آثاره واضحة للعيان في الملامح والسمات واستسلام تنطق به الملامح , واحست بعض الشخصيات بمظاهر التغير البيولوجيه وكرر صالح الرشدان قوله (سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير) (١) وتذكر ايامه السالفة حين كان شابا قويا يخافه الناس في وقت كان يحس فيه انه عصر فقد قواه ولم يبق منه سوى القليل , وهذا القليل يغادره(٢) ولهذا يلجأ الانسان الى ان يحضن نفسه ضد غدر الزمان وقد يستعين بوصية من جيل سابق مثلما اوصى الحكيم ابنه وصية لعلها تكون هاديا ومرشدا له في المستقبل . وأعطاه من المال ما يحميه من نوائب الزمان وقد يحتضن بالامتداد الجغرافي من مثل ما فعل خريبط حين تحرك به جنون التوسع حين قال (لا بد من كل الصحراء لأنها تحمي من الاعداء والزمن وغدر الأيام(٣)وتحدث السلطان خزعل مع عدد من رجاله عن الزمن وخياناته, وقالت ام لأبنها ان الدنيا غدارة . وقال كمال بعد ان وقف على فعل الزمن بوالدة عايدة وباسرة آل شداد (لن ينسي الانسان بعدو اشد فتكا من الزمن) (٤) واسترجع صورتها وهي تغادر بيتها متأبطة ذراع زوجها وأدرك ياسين ان (لاعظيم امام السنين)(٥) بعد ان شاهد مصير والده الذي كان شابا قويا وموفقا في زواجه حتى بلغ منتصف العقد الخامس , غير ان الزمن كان الاقوى وبدت اثاره عليه فانحدر السيد ومات فقال بعض ابناء جيله (فليرحم الله من يأمن الى هذه الدنيا)(٦) .

١- الاخدود ص ٣٧٨
٢- السابق ص ٥٨٨
٣- تقاسيم الليل والنهار ص ١٦
٤- السكرية ص ٢٥٤
٥- قصر الشوق ص ٢٨٠
٦- السكرية ص ٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- الانسان والزمن :

جدلية الانسان والزمن

بدت لنا في رواية الاجيال ان علاقة الاجيال فيما بينها هي علاقة بين اطراف الزمان وأبعاده فعلاقة كل من الاب والابن والحفيد هي في الحقيقة علاقة الماضي والحاضر والمستقبل, ولقد وقع على هذه الحقيقة احمد وهو في طريقه الى مجلة الانسان الجديد . وبرفقته كمال, واشار الى ابوة الدم وابوة الروح في قوله (انى احب والدي وأجلهما , ومن الخطأ ان يكون للانسان والدان - لا أعني حرفيته - ولكن ما يرمز اليه الوالدان من تقاليد الماضي ،فالأبوة بوجه عام" فرملة" وما حاجتنا في مصر الى القرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالاغلال ؟(١) ويرى التجدد في التغيير , فما يصلح لانسان في الماضي ينبغي تغييره في الحاضر بالعلم والمذاهب التقدمية , وما عدا ذلك فهي عوائق تقف عائقا امام تقدم الانسانية الحرة(٢) ومثل الاب لغزوان الماضي مثلما بدا محمد ال عمران في "العصاه" بلحيته البيضاء وكأنه الماضي العريق في حياة كل فرد في الاسرة(٣) ومثلما يكبر الانسان في حضن الزمان تكبر الكائنات الحية الاخرى , ولقد قرن متعب بين ابنه الصغير وبين النبات في قوله(ذيك النخلة الرابعة على اليسار بعمرك يا وليدي , وكل ما تكبرانت يوما تكبر معك) (٤) فالانسان وجه من وجوه الزمان ومعلم من معالمه مثلما الكائنات الاخرى , اذ يترك بصماته على صفحاته . وقد يكون الزمان دليل الانسان, يهتدي بخبرات من سبقه من الاجيال مثلما استطاع كثير من ابناء موران التعرف الى ملامح المكان من خلال كبار شيوخ المسجد ومن خلال نخلتين ذكرتاه بالماضي , بعد ان قرأ اثار الزمان في المعالم (٥) والعمر معيار من معايير التمييز اذ ما تشابهت الملامح ومجريات الحياة , ولتقدم العمر اهمية اذ يعني مزيدا من خبرات متراكمة لا تتوافر لمن هو اقل عمرا , الى حد رأت فيه بعض الشخصيات ان العمر وحده هو الذي يعلم الانسان ونظرت الى الصغار بقليل من الثقة (٦) ويتعاقب الاجيال والازمان تبقى الحياة فالحاضر يصير ماضيا والمستقبل يقترب فيصير حاضرا . وحين احس الحكيم باختلاف بنيته العقلية وانماط تفكيره عن بنية ابنه العقلية

١- السنوية ص ٢٠٥
٢- السابق ص ١٣٥
٣- السابق ص ٨٣
٤- النبه ص ٥٢
٥- السابق ص ٢٨٩
٦- السابق ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

احس بالحيرة . لكنه وقع على الحقيقة حين قال " جيلان وعصران" (١) ويبقى الزمن خير معلم ذلك ان التجارب مدرسة الاجيال . وكانت وصية خريط لابنه فنران العمر يعلم الانسان وان يسمع من الكبار قبل الصغار. وان الكبيريعلم الصغير . ومثلما بدا لنا الزمان في صورة المعلم بدا لنا في صورة الطبيب المداوي حيث يفعل النسيان فعله في الذاكرة الانسانية . غير ان صورته تبدو حالكة في اواخر العمر فيبدو في صورة العدو المخيف . ولهذا يلوذ الانسان بالزواج رمز التوازن والانسجام . فقد وجدت فيه زنوبة حصنا يحميها في اواخر العمر. بعد ان تقدم بها الزمن وهددها الذبول والكبر(٢) ويترك الزمان آثاره على جسد الانسان وملامحه وحركاته ونفسيته . فاللحم البشري مسجل لآثار العمر . قال ياسين حين عدل عن مشروع زواجه من ام مريم . ذلك ان الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء تورد الخدين الكاذب (الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس)(٣).

والزمان نسبي وذاتي وهو غير محدد بالقياس. ليس كالزمان الطبيعي المحدد بقياس بموضوعية . تارة يحس الانسان ان الزمان يمر بسرعة وطورا ببطء . تارة يعي كل ثانية بعمق وطورا لا يحس بمروره(٤) وقد يتسع اكبرمما هو عليه . فليس اقسى من تجربة انتظار من لا يعود . مثلما انتظرت والدة الخوش ابنها المسافر ولم يعد الا عندما ودعت الحياة (٥) وعاشت على امل اللقاء . بين لقاء الموت ولقاء الابن الغائب الى ان لقيت ربها . وعانت عائشة تجربة قاسية اشبه ما تكون بصدمة كبيرة حين أحل زواجها اكراما لخديجة . وها هي تحدث نفسها مفصحة عما تعاني من آلام (ما اهون الأمر عليهم . ناقشوا الامر كأي امر عادي يومي ثم تشعب الحديث وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الاسرة النسيان)(٦). وقد ارتبط الماضي في تجربة ياسين بتاريخ والدته وامتد موقفه منها ليشمل جنسها كله والمكان الذي تقيم فيه فكل امرأة عندد لعنة قذرة وعانى من قسوة الزمن ومرارة التجربة حين وقف على حقيقة والده في بيت زبيدة فعندما انفتح الباب انفتحت امامه صفحات سيرة حياة والده ورأى في دقيقة واحدة قصة طويلة وعمرا كاملا "٧" .

١- المنبت ص ١٨٣
٢- العسكرية ص ٦١
٣- قصر الشوق ص ١٣٣
٤- هانزميرهوف : الزمن في الادب . ترجمة د. اسعد رزوق ص ١٨
٥- التيه ص ٥٨
٦- بين القصرين ١٥٣
٧- التيه ص ٢٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا فأن للزمان قياسا مختلفا عن المألوف يصطبغ بالتجربة الانسانية . ولقد تحسر كمال على شبابه الذي ينطوي بسرعة البرق وكان العزاء ان يتملى الحياة ساعة فساعة قبل ان ينعق غراب الغروب"١" فهو يحس بمروره السريع ويحاول ان يقبض عليه ويستأخره ليترك آثار بصماته الى الاجيال التالية لتحفظه ,وبالزمان الحضاري يقاس تقدم الأمم وتخلفها "٢".

أثر الزمن : نرافق السيد احمد عبر الثلاثية اكثر من عشرين عاما نتلمس آثار الزمن فيه خلال ثلاثة اجيال . نلتقي به وعمره خمسة واربعون عاما في "بين القصرين" وهو يقول في صفحاتها الأولى " سبحان من له الدوام" يشير بذلك الى ناقوس التغير في ظل أزلية الزمان والى حركة الموت والميلاد , كان أنيقا لم يهدأ احساسه بالشباب يوما ، وكأن فتوته تزداد مع الايام قوة ، وقد عرض بأناقته احد اصدقائه في قولة " حسبك يا عجوز"٣" كانت علاقته بالنساء الناقوس الذي جعله يتحسس نهايات الاشياء والكائنات ، موت محمد رضوان نهاية علاقته بجليلة فناء الحب واستشهاد فهمي , وقبل ذلك توقع موته على يد الجندي الانجليزي .

في "قصر الشوق" وبعد موت فهمي أدرك السيد ان الصفاء الكامل ماض مضى لا يعود , واحس بالحيرة وهو يرى الشيب يشتعل في فوديه فتوزعه احساسان: العودة الى الغواني وفهمي في قبضة التراب ،والاعراض عن النساء وقد لاحظ تغيرات نفسية أصابت بنات جيله وتساءل هل اصابه شئ منها؟ لاحظ في عيونهن نظرات تعكس روحا خابية فيها نفي الشباب ، وأحس بتغير في مشاعره ينذر بنفور وتقلص"٤" كانت تجربته مع زنوبة هي التي آلمته وقصمت ظهره ، كانت الحقيقة الساطعة, حين رفضته وآثرت ان لا تضيع وقتها مع الكهول أدرك بعدها ذلك ان الكبر حل به لا محاله , وتساءل هل ابتلاه ربه بالكبر وبعاديات الزمن كما ابتلى جليلة وزبيدة ؟ تلك آثار بغيضة تركها الزمن يتحسسها القلب ويدركها الحس وآثر ان لا يستسلم لوهم يسلمه الى الانهيار وكان في شبابه لا يأبه بها . فجلد نفسه في حديث داخلي اختلط بالندم احس بعده بالانهيار والتدهور " ماذا دهاك حتى تركض وراءها؟" "٥"

١- بين القصرين ص ٧٩
٢- قصر الشوق ص ٨٣
٣- السابق ١٠٧
٤- انظر السابق ٩٦ - ٩٨
٥- السابق ص ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وادرك ان الزمن غير في شبابه وان الامس ولى على الرغم من انه يطمئن نفسه بقوله "لم تزل شابا، لا تكبر نفسك قبل الاوان، ودع الحكم على ذلك للآخرين .،فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك"(١) وتساءل عن سر زواج بهيجة بعد ان تقدم بها العمر, ألا يكون الاحساس بالكبر هو السبب ؟ فهي تسعى وراء سعادة كان الشباب يضمنها لها وتذكر ذله بين يدي زنوبة الذي زعزع ثقته بنفسه ، أن تصدد وقد كان قويا كريما(٢) ،وتحس عمق الجرح حين لطمته بعامل الزمن أيضا حين أبلغته أن شابا في الثلاثين من عمره - يفصله عنه ربع قرن - سيتزوجها ، وحيرته بين الزواج أو مغادرة البيت ، فوقع بين أمرين ، اذ كيف يزف إلى أسرته خبر زواجه ، ودخل في دوامه من الصراع بين عوامل البيئة والعمر والارادة والشهوة ، وأدرك أن نزواته تتآمر عليه وتهدده بالفناء الأبدي. وانكشف لنا علام السيد النفسي مثلما انكشف عالم حياته الظاهري لتاجي نفسه(٣) ،وذهب لمقابلتها فصاحت به . الحق انك كبرت ، قبلتك على كبر ، وها انا اتلقى الجزاء(٤) وأدرك واقع الهزيمة ومرارتها حين عرف أن الرجل الذي وعدها بالزواج هو ابنه ياسين وحقا هزمه الزمن ودمره ، ولم يكن هينا أن يسلم بالهزيمة الأولى في حياته ، فكان ينتفض كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولى وبدا له ابنه ياسين في صورة الزمن القاهر (غاليت بالاعتداد بنفسك ، وها انت تهزم ، عاهد نفسك ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن و ليتك توجه النصيحة لياسين حتى لا يؤخذ على حين غرة حين يأتي دوره ، واجه الحياة بقلب وعقل ، وهذه هي الحقيقة (٥) ، انه يعيش في دوامة الفناء لم يعد يذكر من عالم الفناء سوى ذكريات ، فقد ولى الحامولي والمنيلاوي مثلما ولى شبابه ، وبدا نجم جليله بالأفول ، وضمدت جراح كرامته زبيدة بابتسامتها و هي تطمئنه لتهدئ من قلقه (لم يول عهدك)(٦) .

ورافق هذا الانهيار النفسي انهيار مادي ، اذا اصيب السيد بضغط القلب وأحس أن العمر ينطوي دون أن يدري ، ولزم فراش مرضه وسط ذهول العائلة ، وتساءل ابنه كمال: كيف استسلم هذا الرجل الجبار واستكان؟ وتصور النهاية وعالما بغير أب ، وضاق السيد برقاده الاجباري وشرع يدعو ربه (نسأل الله الختام) و(الله الأمر من قبل ومن بعد) غير أنه لم يتحدث حديث الراحلين كأنما يدري قسوة الأقدار . وتحدث عن قضاء الله وقدره.

١- قصر الشوق : ١٤٠
٢- السابق :٣٠٦ - ٣٠٨
٣- السابق : ٣١٠
٤- السابق : ٣١٥ - ٣١٦
٥- السابق : ٤٠٥
٦- السابق : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن على المؤمن أن يواجه مصيره(١) ،وزاره السيد متولي فقال له السيد : "أنت من معالم الزمن" و غير أن زوج المرحوم شوكت لم تستطيع مداومة الزيارة لكبر سنها . وهكذا فأن من حوله وما حوله آية على الاتجاه نحو السقوط والانهيار.

وفي "السكرية" ازداد الحديث عن الزمن وتحددت فيه مصائر كثير من الشخصيات ، فيها نرى النهايات حيث ايقاع الزمن البطئ الكئيب ينعكس على الملامح والامكنة وحركة الحياة العامة وايقاعها ، فهذا السيد ابن الثالثة والستين عاما يعود الى بيته مبكرا على غير عادته ،وهذه امينة تنتظره وبيدها المصباح تضئ له دربه وقد تبعها بوقار الشيخوخة يسترد أنفاسه المتعبة ، بجسم نحيل وشيب يكسو جسمه ، لقد اصبح الماضي حلما بالنسبة له وصاريفكر بمصير عائشة وامينة بعد موته ، وزاد خوفه من المرض وكست بيته وغلفته كآبة وحزن ، قال لأمينة يشكو هوانه وضعفه (ما اصعب السلم علي) وانقبض قلبه حين اعلن الحمزاوي انه سيعتزل العمل بسبب هرمه ، ذلك ان الاعتزال والبقاء في البيت يسرعان بالانسان نحو التدهور (٢) . وفي الخامسة والستين صارت العصا رفيقه ، وزاد تحول جسمه وثقلت نظراته وصارت تنم عن استسلام حزين . سلوته الاستماع الى الراديو ، جلسته في المشربيه يرقب الطريق التي ألفها منذ زمن بعيد ، ورأى معالم الحي تقوم كالقسمات في الوجه، وتساءل عن اعمار الناس الذين يمرون . وفي السابعة والستين أعاد تفصيل ثيابه . بما يتناسب مع ما تبقى من جسمه ، وإذا نظر الى الصورة المعلقة يكاد ينكر نفسه، وها هو يحدث نفسه (لم يبق لك إلا القبوع في البيت ، والعصا وكمال يرافقاني في الأسبوع حسب تعليمات الطبيب كل شئ جديد ، الطريق ممهد بالأسفلت ،أضئ بالمصابيح بعد ان كان ظلاما عند عودته. في كل مكان الراديو وكهرباء كل شئ جديد الا أنا عجوز)(٣) .وأصدر الطبيب تعليمات صارمة بعدم الحركة والالتزام ببرنامج للغذاء في جو يسمع فيه المذياع يذيع اغانيه ساخرا من حزن البيت وصمته ،وانقلبت الصورة ، إذ صارت أمينة تخرج والسيد جليس البيت يترقب عودتها نهارا مثلما كانت تترقب عودته ليلا . وأخيرا حمل كمال ما تبقى من والده الذي لم يتمكن من أن يرد التحية على أحفاده ،وحين توفي السيد أحس ابنه كمال بالعجز المطلق ازاء قوة الزمان . تلك هي نهاية السيد ومصيره ، بدأ رحلته صغيرا فشابا قويا ثم عجوزا ، انها الرحلة بين الميلاد والموت في أحضان الزمن القاهر الأزلي.

١- بين القصرين ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤

٢- السكرية : ١٧

٣- السابق : ١٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعي الجيل :

يلاحظ الدارس أن الحديث عن العجز والهرم والزمن يتركز في اواخر العمر ، اذ يزداد الوعي بالجيل بعد رحلة طويلة من التجربة واختلاف الأجيال ، ولهذا يعود الجيل القديم إلى الماضي يحن اليه ويستحضره ، يعود اليه لأنه يدرك انه لم يعد مركز الدائرة والاهتمام وإن الجيل الجديد يهدده ويتقدم بثقة لاحتلال مكانه وبيده سلاح الزمن ، وقد وعى ذلك السيد أحمد حين رأى ابناءه وأحفاده يتدافعون حوله يحاولون احتلال موقعه فقال (أوسعوا الطريق للابناء فقد شبوا)(١) وأدرك أن "الاحفاد يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو إلى الفخار ، ولكنهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدهم ، فمن ناحية يعزونه بأن حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية اخرى يذكرونه بأن شخصه يتراجع رويدا عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثر به ، ولم يكن ذلك ليحزنه ، فالايغال بالعمر يجئ بالحكمة كما يجئ بالوهن والمرض ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفق ، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر ، وعندما كان العام ١٨٩٠ وكان يتعلم قليلا ويلهو كثيرا ما بين معاني الجمالية ومرتاد الأزبكية ، وفي ركابه يجري محمد عفت وعلي عبد الرحيم وابراهيم الفار...(٢) " ذلك آية على امتداد الأجيال لبناء الحياة وأن سقوط جيل يعني ولادة جيل آخر جديد ومع تقدم السيد بالسن ظل يغتنه كل ما يذكر بالشباب والجمال والعواطف والصبوات، واحس انه صورة الماضي يسعى نحو مصير محتوم ويقترب من النهاية . وقد اهتم محفوظ في ثلاثيته بابراز حركة الزمن في مجالس الأصدقاء ، كانت جلساتهم تدور حول النساء والشراب لكننا نلتقي بهم في (السكرية) وقد صارت احاديثهم يدور محورها حول وهن الصحة ومرض القلب وضغط الدم ، وغادرت نعمة الاقبال على الحياة إلى الخوف من الموت ، وقد دان السيد الزمن بعد أن تحولت قوته ضعفا خلال مونولوج داخلي محدثا نفسه" ولك أن تعزي نفسك فتقول : زوجنا البنات وربينا الصبيان ورأينا الاحفاد ، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت وذقنا حلو الدنيا سنين ، سنين حقا ؟ وان لنا أن نشكر،والشكر لله واجب دائما ابدا ،ولكن آه من الحنين ، وسماح الله الزمن ، الزمن الذي مجرد حياته - حياته التي لا تتوقف لحظة خيانة وأي خيانة للانسان لو أن الاحجار،

١- قصر الشوق :١٢

٢- السكرية :٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدثني عن الماضي ، لتخبرني أحقا كان هذا الجسم يهدّ الجبال؟ وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان ؟ وهذا الثغر لا يمسك عن الضحك ؟ وهذا الشعور لا يعرف الألم ؟ وهذه الصورة معلّقة في كل قلب؟ ومرة اخرى سامح الله الزمن ؟" (١) وبدت آثار الزمن على اهل بيت السيد أحمد عامة وبدت نعيمة حفيدة السيد كوردة مغروسة في مقبرة(٢) . وقد أفصح حديث عبد الرحيم باشا عيسى مع كل من رضوان وحلمي عزت عن نفسية كبارالسن وموقفهم من الماضي. فالعزب العجوز عيسى يومه طويل كليل الشتاء ، ويرى أنه لا بد للانسان من رفيق ، ولهذا فالمرأة ضرورة حتى لمن لا يعشقها (٣) ،ولهذا خاطب رضوان وحلمي وهما من جيل أحفاده مخاطبته للماضي "انتم أنسي ، ما الحياة بدون المودة والصداقة ؟ الحياة جميلة ، الجمال جميل ، الطرب جميل ، العفو جميل ، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، اني أحبكم وأحب الدنيا ... أيام زمان ! آه من أيام زمان يا اولاد لم نكبر؟ جلّت حكمتك يا ربي وعلت !.

كانت فتاتي لا تميل لغامز فلانها الإصباح والإمساء

وقال :

واستنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا(٤)

وأوصى من دونه من الأجيال بالتحلي بالفضائل والاخلاق . ونبذ الجمال المنحط فالدول تسود بأخلاقها . ويرى أن الزواج سعادة لا يعرفها إلاّ من عانى صمت البيوت،عذاب الشيخوخة الحقة تلك وصايا شيخ مجرّب عركته الحياة .

تتباين رؤية الانسان للزمن بتباين الجيل ، فرؤية الشباب له تختلف عن رؤية كبار السن ، فحديث الجيل الجديد يدور في جملته حول المستقبل والتغير الشامل . قال فهمي وهو يقود مظاهرة (نحن نعيش للمستقبل لا للماضي)(٥) . ويقف الانسان إزاء احداث المستقبل موقف التوقع والتساؤل : ماذا يحمل الغد؟فبعد انتصار خريط تساءل ماذا يحمل الغد إلى

١- السكرية ص ١٤٢
٢- السابق ص ٥
٣- السابق ٢٩٨ - ٢٩٩
٤- السابق ص ٣٠٠ - ٣٠٢
٥- بين القصرين ص ٤٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موران ؟(١) ذلك أن المستقبل مجهول ومدعاة لقلق الانسان ، فالامتداد الزمني عبر الحاضر يشتمل على عناصر من الذاكرة والتوقع ، وتساهم الذاكرة بقدرتها على الاسترجاع في اعادة بناء حياة الانسان(٢) ،وتهون الحياة في سبيل الغد والمستقبل أمام الجيل الجديد ، قال فهمي وهو يصارع الاستعمار ويناضل من أجل حرية الوطن "سيان أن أحيا او أموت ، الايمان اقوى من الموت ، الموت أشرف من الذل - هنيئا لنا الموت الذي دانت إلى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية .."(٣) ، وهو يؤمن بدور الأم البناء في استمرار الثورة بابنائها بناة المستقبل ، فليست الأم التي تنجب الابناء وقود الثورة على هامش الحياة (٤) .

٣- الاستمرار :

نفس الاحساس بالتواصل والامتداد لدى كثير من شخصيات رواية الأجيال موجود ، وان التجربة البشرية هي خلاصة جهود اجيال متعاقبة وليست جهدا فرديا ، وقد حرص الانسان منذ الازل على أن يترك علامات وبصمات على شكل نقوش او منجزات فكرية ومادية تستحضره عند الرحيل والفراق ، وظل مفضي الجدعان حريصا أن يحفر في التراب ودماؤه تنزف ليذكر الاخرين من بعده انه مر في هذا الدرب(٥) مثلما حرص متعب الذي تلقى البشارة بمولوده الجديد (فواز) أن يترك اثرا قويا في الارض القاسية ، حين حفر بأظافره الارض وان يطلق النار من بندقيته وهو يردد (صحيح من قال من خلف ما مات)(٦) .وقد يكون التواصل عبر الأجيال بالعمل او بالفكر والرؤيا الانسانية الشاملة ، فقد حث متعب احد ابنائه الصغار على الزراعة لوصله بالارض وربطه بالحياة وابقائها حيه بعد موته في قوله (باكر انت تزرع وابنك يزرع لابنه نخله ، وسنة بعد سنة يظل الوادي اخضر ويظل الناس يمرون بالوادي ويشربون من ماء الوادي ويترحمون على الاموات وهم بظل الشجر، الله يرحم كل من زرع نخلة وعرق اخضر..)(٧) ووقع يونغ الأجنبي على نفس التواصل هذا في احد كتب الشرق اذ قرا : أن

١- نقاسيم الليل و النهار : ٣٩٦
٢- هانزميرهوف : الزمن في الأدب ، ترجمة الدكتور أسعد رزوق :٢٣ ، ٤٩
٣- بين القصرين : ٣٤٣
٤- السابق :٣٤٢
٥- التيه ص ٥٣٢
٦- السابق ٢٠
٧- السابق ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صبيا مر على شيخ فقال " زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون" (١) معبرا بذلك عن بقاء شعلة الحياة عبر اجيال متعاقبة انجاب الذرية واحد من سبل البقاء والخلود . فالاولاد هم امتداد الاباء في الارض وخلودهم المستمر ، ولقد درج الانسان على بناء اسرة لتحقيق ذلك ، وحث خريبط ابنه خزعل على الزواج من اجل الانجاب وحمل امانة الحكم عبر الأجيال (يجب أن يكون لك ولد) (٢) وحث ابنه قنر على ذلك ايضا . ذلك انه يعني له الكثير حتى تستمر الدولة والاسرة ولتوطيد دعائم الحكم فقد تزوج السلطان خريبط خلال خمس سنوات قدر سنوات عمره وكان يسعى إلى تكوين قبيلة خاصة به . وصار لا يعرف عدد ذريته ويتمنى لو يكبر الابناء بسرعة للمساهمة في اقامة الملك(٣) وعنى عناية خاصة بخزعل، وقنر لعلهما أو احدا منهما يكون امتداده الحقيقي في الارض ، غير أن فريقا آخر له رأي اخر متميز يرى أن خلود الانسان يتمثل بالعمل والفكر وأن الذرية ليست سبيل خلود وبقاه ، فكل من على الأرض فان ، ولا يبقى الا الله سبحانه الازلي الموجود ، وهذا الرأي الذي يمثله جد قنر الشيخ عوض احتجاج على منهج السلطان خريبط وأسرته ذلك أن الرسول عليه السلام كان يتيما قد مكنه الله في الارض واعطاه من غير أن يكون له ولد(٤)- وظل السلطان يفخر بمزاياه الجسدية وقوته الخارقة المتمثلة بزواجه المتلاحق وافواج من الأولاد والبنات ، وكان حريصا أن يترك للآخرين أن يتحدثوا عن مزاياه ليعيش في ذاكرتهم غير أن قنر الذي عزف عن الزواج مرات كثيرة وسخر من ولع خزعل بالنساء اكتشف عند زواجه الثاني انه لا يختلف عن سائر افراد الاسرة وادرك بعدها أن في دماء ابنائها شيئا يستعصي على الفهم او التفسير (٥) .

وقد فكر السلطان خزعل وكطريقة للتعبير عن ترسيخ تقليد جديد للأسرة اقترح أن يتزوج جميع ابناء السلطان خريبط في ليلة واحدة ، وقد يصبح ذلك تقليدا جديدا ، جيلا بعد جيل ، وسيخلق في ذاكرة الأجيال نوعا من الاعتزاز لا سيما اذا رافق ذلك زيجات ترتب منذ الايام الاولى للمولادات الجديدة التي تكون في اوقات متقاربة(٦) .أما الحكيم فقد تمنى أن يحمل ابناؤه

١- بادية الظلمات ٤٢٠

٢- الاخدود : ٨٠

٣- تقاسيم النيل والنهار : ١٩

٤- السابق : ١٩

٥- بادية الظلمات : ٥٩

٦- الاخدود : ٥١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-امتداده في الارض - اسم العائلة وتقاليدها وملامحها جيلا بعد جيل ويرى أن المرأة اصل الخصب والاستمرار والحياة(١) . وبدا لنا في رواية الأجيال تركيزا مكثفا على الحديث عن الاسرة، ذلك انها رمز الامتداد والتواصل وتعدد الأجيال واستمرارية الحياة وبقاؤها . فالجيل الجديد في الاسرة يوطد اركانها ويرسخها ، وبدا لنا في الثلاثية انه يطيب للسيد احمد أن يرى نفسه تترعرع من جديد في حياة ابنائه .

كانت تجربة حب كمال وعايدة هي التي لخصت مفهومه للزمن فهو يطمح إلى الخلود والبقاء والامتداد وان الآثار الخالدة من ايات الذاكرة البشرية وفي لحظة نشوة ولدها حب عايدة احست أن معالم الحي العتيق تنطق بحكمة الأجيال المتعاقبة (٢) ورفض كمال مفهوم حسين شداد عن الآثار. الانسانية حين قال عن الاهرامات (وطن اجل مخلفاته قبور وجثث انظر إلى الجهد الضائع ...) فرد عليه كمال : (ذلك هو الخلود)(٣). وبارك قافلة التاريخ في حوار داخلي وهو يسير مع عايدة حول الهرم ، اذ راى في آثار قدميها المطبوعتين فوق الرمال آثار أجيال متلاحقة في رحلة التاريخ ، وبدا لنا في حديثه الحضاري أن نفسه تهفو إلى الخلود في ظل حبه الفاني(٤)، وهو يطمح إلى خلود الحب والهوى ، لكن اتى له ذلك! فالموت يقف بالمرصاد، وتمنى الخلود في شتى انواعه وتساءل هل يركن ياسا إلى هذه الطريقة الفطرية : الزواج والذرية(٥) ؟ انه يطمح إلى خلود الحب مثلما خلدت آثار ابي الهول خطوات اجيال سبقت (٦)، غير انه كفر اخيرا بالخلود ذلك أن الموت يطوي الجميع فهو الاقوى والأبقى .

يظل التدوين والتاريخ حافظين لمنجزات الاجيال ومآثرها . ولقد وجدنا في رواية الاجيال حرص بعض شخصياتها الرئيسية على تسجيل التجارب الانسانية لتقديمها إلى اجيال لاحقة لتكون درسا وعظة . فلقد اقترح الحكيم على السلطان أن يكتب سيرة جلالته ابينا منه أن الرجال العظام يجب أن يبقوا في ذاكرة التاريخ والاجيال ، وهذه مهمة الحاضر قبل

١- الأخدود : ٥٥٧
٢- قصر الشوق : ١٧١
٣- قصر الشوق ص ١٨٢
٤- السابق ١٨٦
٥- السكرية ١٢٩
٦- قصر الشوق ٢٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المستقبل(١) مثلما كان امل كمال في أن يكتب قصة جامعة عن الانسان تؤرخ تجربته وتجربه جيله(٢). وتمثل علاقة عيسى باشا برضوان وحلمي عزت نموذجا في علاقة الأجيال معا . نموذجا في اتصالها وحوارها وامتدادها ، علاقة يمد خلالها الكبير يده إلى الصغير ، قال يخاطب رضوان (اني احب العلم واحب الحياة واحب الناس، وديدني أن آخذ بيد الصغير حتى يكبر)(٣) .

ومما يجدر ذكره اننا وجدنا في رواية الأجيال حرص بعض شخصياتها الرئيسية أن تقتفي آثارخطوات اجيال سبقت ، فكانت امتداد ما قبلها وتسعى أن تكون امتدادا لما بعدها ، تحمل ارث جيل سبق وامانة إلى الجيل اللاحق ، وقد اثر ذلك في الشخصيات نفسها اذ تشكل لدينا ما يسمى بالشخصية الممتدة التي تكمل مشوار شخصية سبقت وتستأنف رحلتها شخصية لاحقة. فقد حارب السلطان خريبط من اجل اعادة ملك والده المسلوب وسلمه إلى ابنائه. وجاء الحكيم إلى حران يبحث عن ارث جده بعد أن سعى قبله والده ثلاث سنوات يبحث عنه فعاد دون جدوى ، عاد حاملا اوراقا ممزقة ممزوجة باليأس والمرارة . وترك امانه استعادتها إلى الحكيم الذي لم يتخل عنها فقام بلصقها وترميمها بحدود الامل في وصول مبتغاه . وهكذا حمل اوراق جده الخزندار التي تثبت ملكية ارض وبساتين في عدد من الاماكن في الجزيرة ، اما ولعه بالاماكن الجديدة فقد اكتسبه من سيرة الرحالة وكيف انطبعت آثارهم في الاماكن التي وصلوا اليها وها هو مصمم على مواصلة مشوار اجداده ليترك بصماته لاجيال لاحقة ، وكان ذلك موضع فخره (٤). وكان الحكيم اهدى سجادة إلى الامير خزعل كان ورثها عن جده (٥).وورث فنر عن جده خاتما فضيا يميل إلى السواد سلمته اليه جدته وأبلغته أن الجد اوصاها (من الجد إلى الحفيد ومنه إلى ولد الولد) ووضعته في بنصره الايسر . وعندما توفي الجد كان فنر الحفيد بعيدا فقال لجدته(الامانه وصلت ، وسلم إلى راعيها ومنه إلى ولد الولد)(٦).ورحل هاملتون إلى ارض الجزيرة وفاء لوصية والده الذي سبقه في الخدمة في الشرق العربي، جيل تتبع خطوات جيل والده وما زال يحمل حلم الامانة. واشارت (ماركو) وهي تهدي (فنر) كتابها إلى امتداد الأجيال ودورالجيل الجديد في أن يضيف إلىالجيل السابق ثمار تجربته ومـــــا

١- الأخدود :٤٩٣
٢- السابق :٢٠٦
٣- السابق :٧١
٤- السكرية : ٧١١- التيه ٤٨٧
٥- السابق ٥٠٧
٦- بعدية الظلمات ص ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبني الحضارة ويبقيها ، وأشارت إلى أن استمرار الحياة وما هو الا نتيجة لتعاقب الأجيال، واشارت إلى دور الجيل ازاء الذي قبله والذي بعده ،فعلى الصغار أن يحافظوا على ما تسلموه من الاباء كي يسلموه للابناء ، وأشارت وهي تقدم كتابها لقنر الى أن الأجيال اللاحقة عند قراءتها هذا الكتاب ستتذكر الأجيال السابقة ، وان المهم أن تحفظ ممتلكات الأجيال وان لا يتهددها النسيان واذا ضاعت فستضطر الأجيال اللاحقة إلى البدء من الصفر مرة اخرى(١). وحافظ محمد آل عمران على صندوق اودعه اليه والى حلب بوصفه امانه مقدسة إلى زمن اضطر فيه الحفيد عمران أن يفتحه وحين زار الحكيم ابنه غزوان في امريكا اعجب باشجارها المعمرة وادرك أن الخلود امر يتعلق بقدرة الانسان(٢). وهكذا فإن خيط الامتداد والتواصل موجود في رواية الأجيال ، اجيال تهتدي بمن سبقها ويؤثر السابق منها باللاحق ويحرص كثير منها على حمل الامانة وتسليمها إلى اللاحق وبهذا التعاقب تستمر الحياة .

٤ - المصير الانساني :

وحيث ان للزمان الانساني بداية ونهاية كان علينا ان نركز على المصير الانساني الذي يعد نهاية التجربة الانسانية وآمالها بكافة ابعادها . نركز في هذا القسم على مصير الشخصيات والافكار والدول والحضارات .

الدائرية : نظرية مبنية على نمط دائرة الولادة والنمو والانهيار والموت، ونصف نمو المجتمعات وسقوطها وانهيارها(٣).وربما استفاد من هذا المفهوم اولئك الذين سموا رواية الاجيال بـ(الرواية الدائرية) تعني رواية الاجيال بتجسيد فكرة المصير الانساني،اي ان الانسان يمضي الى مصيره ونهايته حتما فيها تتجلى فكرة المصير الفردي والجماعي والوطني وعلاقات هذه المصائر معا(٤) وحيث ان الزمن يتجه نحو الموت نجد مسحة من الحزن والتشاؤم تحكم علاقة الانسان بالزمن(٥) ، وتبدو الدائرية في تصرفات الانسان

١- تقاسيم الليل والنهار ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

٢- الاخدود ص ٤٠٠

٣- هانزميرهوف : الزمن في الادب ، ترجمة د.اسعد رزوق ٨٩ ، ١٧٩

٤- انظر : د. احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية ٣٣ ، ٤٧ ، ٧٦ ، ٨٠

٥- هانزميرهوف : الزمن في الادب ، ترجمة د. اسعد رزوق ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعتقداته ، اذ يؤمن الانسان في الصحراء انه في الوقت الذي أعطي فيه القدرة على التجوال فانه أُعطي القدرة على العودة بعد الضياع والغياب إلى النقطة التي بدأ منها وان الحياة لا بد وان يكون لها نهاية محتومة . وبدت الدائرية في قول امينة وهي تغادر بيتها مطرودة (سيعود كل شئ إلى أصله) وحين عادت قالت (عاد كل شئ إلى أصله)(١) .

وقد عُني الكتاب الطبيعيون بمجابهة الانسان لمصيره والعناية به والشفقة عليه وهو يواجه مصيره ، حيث تحلّ الحتميات البيولوجيه والتاريخية،وان التشارم الذي يبدو لديهم نتيجة لرؤيتهم الكونية وحبهم للبشروالشفقة عليهم ، فالانسان لديهم مأساة ومسحوق ، فالمذهب الطبيعي هو رؤية للمصير البشري ويركز على تطابق الحتميتين : الفردية والاجتماعية (٢) .

وقد خطّط محفوظ في ثلاثيته لمصائر الشخصيات والأحداث ،وأشار في ثنايا عرضه للتجربة الانسانية إلى أن كل شئ مصيره الزوال والتغير ، ورثى المصير الانساني .

وقد اشارالقرآن الكريم إلى هذه الحتمية المصيرية الانسانية والكونية والى أن الموت هو محطة الحياة الاخيرة ، وتردّدت على ألسنة شخصيات (مدن الملح) ما يشير إلى وعيها وايمانها بذلك ، وصارت أقوالهم أشبه بالأمثال والحكم من مثل (ديار الظالمين خراب)و (سيصيرون تواريخ وأمثال) وقال متعب (هذا الوادي ياما شاف وياما سمع ، اللي مروا بالوادي اكثر من التراب لكن ما بقي منهم اثر)(٣) وقال ابن نقاع لكاس رأوا الامير وجوهر في طريق عجرد (شفنا قبلهم كثير ين وراحوا)(٤)، وقال فرحان بعد وفاة خريبط وخلال تنصيب خزعل (قصر الروض شاف قبله كثيرين ، لكن ما بقي منهم احد) وتردّدَ على ألسنة كثيرمن الشخصيات إلى أن الموت نهاية الحياة الحتمية .

١- بين القصرين : ١٩٢ ، ١٨٣

٢- البريس : تاريخ الرواية الحديثة ، ترجمة جورج سالم ٧٦

٣- التيه : ٥٢١

٤- السابق : ٥٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انهيار الأجسام و ضعفها و موتها نتيجة طبيعية و مصير محتوم و صورة عن رحلة الحياة و أوضح مثال على ذلك انهيار جسم الحكيم واختلال عقله واضطراب جوارحه بعد أن أطل علينا في بداية الرواية في مطلع حياته انيق المنظر شابا ، قال يحدث نفسه بعد أن اصبح غير قادر على النهوض (جسد الانسان شديد العطب ، يحتاج إلى سنوات لبنائه ، وخلال فترة بسيطة ينهار)(١). وكان مصيره أن اودع في مصح بعد أن عاد إلى سوران يتوكأ على عصاه مسنا لم يتعرف اليه الكثيرون بسبب مرضه ، وواصل ركوب حصان خشبي في بيته وشرع ينحت سيوفا خشبية بعد أن اختل عقله ، فكان أن حجرت عليه اسرته ، تلك نهايته المحزنة بعد أن كان عقل الدولة والسلطان ، وهكذا تصدع هذا البناء القديم وانهار، وانهارت جميع مظاهر قوته وجبروته وصارت مثارا للحزن والرثاء ، وبدا لنا أن الانهيار اسرع من البناء(٢) .

وبوجه عام ، فقدتحددت مصائر كثير من الشخصيات في نهايات الروايات. فالسيد احمد الذي اطل علينا شابا قويا جميلا ذا جبروت واستبداد في اول الثلاثية انحدر في نهايتها وسقط وفقد قوته وجماله وماضيه ومرحه ، صار صورة للبؤس والشفقه وآية من آيات جبروت الزمن امام العجز البشري ، ها نحن نراه وقد حمل ابنه ما تبقى منه عاجزا عن الحديث ، في هذه الصورة احسنا برثاء عميق للكائنات الحية وهذه أمينة التي كانت اية من ايات النشاط فقدت حيويتها ، اصابها الشلل ، لم تعد امينة الماضي ، اذ علاها الكبر وغيرها الحزن والتوعك ، قالت لابنتها عائشة التي تبكي عائلتها (منذ بدء الخليقة والاعزاء يفارقون ذويهم ، سوف نعيش وسوف ننسى) (٣) وبدا الكبر والعجز في جيل السيد احمد. فقد اصيب راس علي عبد الرحيم بالصلع واشتعلت رؤوس البقية شيبا وانتشرت التجاعيد في الوجوه، ادرك كمال مصير اسرته من خلال معاناد عائشة المنكوبة اذ قال "ان مصاحبة اسرة حتى شيخوختها لمما يحزن ، ليس مما يهون ان يرى اباد في وهنه بعد سطوه وجبروت، او يرى ذبول امه وتواريها وراء الكبر او يرى انحلال عائشة وتدهورها . هذا الجو المشحون بنذر التعاسة و النهاية"(٤) .أما عائشة رمز الجمال و الوداعة فقد صارت صورة للبؤس

١- المنبت :٩٩

٢- بداية الظلمات : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١

٣- السكرية ٣٣٠ - ٣٣٢

٤- السابق ١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضحية للزمان والهموم ، أشار عليها الطبيب أن تتخلص من اسنانها ، كان كمال حين يجالسها يدقق في الصورة الذاهبة ويتفحص ما آلت اليه ، فقد فقدت ذريتها في وقت فقد فيه أمثاله(١) . وهذا الشيخ متولي صار آية من آيات الضعف البشري رثاه كمال في قوله (لعله كان طفلا مدللا عام ١٨٣٠)(٢). أما كمال نفسه قد كسا الشيب شعره ، وتحطم حبه حين الفرق وبدور في نهاية الدرب ، وحين رآها مع زوجها تساءل ورثى مصيره هل كان هذا الشاب يرصد في نهاية الطريق ليحل محله؟(٣).وهذه زبيدة اشهر عالمه في زمانها استحالت الى امرأة صلعاء غريبة الشكل نحيلة الجسم عارية القدمين ، تلبس مما يلبس الرجال ، وجهها غارق في الاصباغ على هيئة مضحكة مزرية ، وضاق بها جيرانها . ولولا الملام لرموها في القبر حية . وادركت انه لا بد أن يتنكر للانسان الشباب او الصحة او الناس . واشترت جليلة بيتها واقامت على سطح بيت سوسن في حالة من الاضمحلال يرثى لها(٤) . وانتهت اسرة آل شداد والقلب فيها كل شئ على عقب ، اذ أفلس شداد وضاع القصر ، واحس كمال بالانهيار وهو يسمع أن مثله العليا تتمرغ بالتراب ، يود لو يديم النظر الى سر الماضي الساخر ، وذبلت والدة عايدة ذبولا محزنا وركبها الكبر ، لم يكن احد يتصور أن يكون هذا مصيرها وأن تكون هذه المرأة هي نفسها التي كانت تخطر في القصر في ،غاية من الجمال والكمال . وهكذا فان الصور يستدعي بعضها بعضا . وتلمس قسوة المؤلف على شخصياته ، وهي بحق صورة عن قسوة الزمن . ولم يقف هذا المصير عند مصير الكائنات الحية المادية بل طال مسيرة الشخصيات الفكرية نفسها ورحلتها في الحياة فقد تحطمت آمال كمال وتلقف السيد فتات ابنه ياسين وهو يستسلم للذاته مثلما تلقف ياسين فتات والده ، وتغيرت الاوضاع فارتقى فؤاد وتأخر كمال . وصار بيومي الشربتلي صاحب اكبر عمارة بعد أن هدم بيت محمد رضوان ، واتخذ بيت السيد احمد صورة تنذر بالانحلال والتدهور نظاما وروحا ،وغشت مسيرة حياة كمال وياسين بالآلام والحيرة والتمزق والتدهور وعدم الاستقرار ، أما عايدة رمز حب كمال فقد طلقت وتزوجت مرة اخرى لتكون زوجه ثانية وماتت .

وفي "مدن الملح" تغيرت مصائر كثيرمن الشخصيات ازاء المرحلة الجديدة.فقد اختفى متعب واعدم صالح الرشدان واختلط عقل هاجم وقتل مفضي الجدعان ومات

١- السكرية : ١٩٧
٢- السابق :٣٢٩
٣- السابق : ٢٨٢
٤- السابق : ٢٤٤ - ٢٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واكوب وابن الراشد والأمير منصور وعم خريبط دحيم وأم الخوش قبل رحيلها عن وادي العيون ، وقتل كثير من اهل موران والعوالي والحويزة في الحروب التي دارت ، وتغيرت طبيعة المنطقة وتضاريسها ومات خريبط بعد مرض وخرف وعمى ، ومات خزعل غريبا وتخلى عنه اقرب الناس اليه وفقد سلطته وعاد الى بلاده ميتا ، وقتل الامير ضاري فنر وبدا لنا ان سر خراب العائلة وانهيارها يكمن في ذاتها . اما مصير سلمى فباتس اذ تركت القصر مطلقة كسيرة النفس حزينة وسط شعور انها ضحية وأحس كثير انهم ضحايا ، وبدا مصير خريبط مؤلما اكثر من موته حين تحول قصره الذي وقف يحكي قوته وعزته الى استراحة يستقبل فيها الساقطات من النساء ، ويشير هذا المصير المنتظر لمجتمع النفط وحكامه الى موقفهم من الماضي وكفرهم بقيمة القبيلة ، وتغيرت مصائر كثيرمن اصحاب القرار اذ تراجع مركز الحكيم بين فترة واخرى واختفى دوره ودورهم في عهد السلطان فنر ، وكان الشتات مصير اسرة متسعب.

ويبدو لنا اتجاه خط الأحداث في (مدن الملح) يتجه صوب الخراب ، ذلك ان النفط فرصة مؤقتة لا تتكرر وثروة ناضبة ، فاذا انقطع سوف تتهدم المدن النفطية وتنتهي ، فالعرب لم يحسنوا استثماره وتسخيره في بناء دولة قوية ولم يعدوا انفسهم لدخول عصر آخر ، يقول صاحب الخماسية (الانهيار الحقيقي الكبير لم يأت بعد ، لكن نتبين ملامحه حين ينفذ النفط ويعود المغامرون ويهرب الأغنياء ، سوف تبدو الصحراء مشوهة أمام الباقين ، وهم الأكثرية هذه الهياكل الاسمنتية والحديدية ، وسوف يتعذر على الباقين أن يعودوا الى نسق حياتهم الطبيعي . ويصبحون حائرين في ما يجب ان يفعلوا ان فقدوا ارتباطهم بالبيئة ولم يستطيعوا ان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان يشيدوا مدنا انسانية يمكن ان تستوعبهم ولا هم يملكون ما يساعدهم على البقاء والاستمرار(١) ويواصل المؤلف رسم مصير المدن النفطية وحياة ذلك الجيل ومستقبله ومصيره ماذا يحصل في حال انتهاء مدن النفط؟ أي خراب سيحل في هذه المدن التي شيدت على عجل كي تستوعب عشرات الآلاف من المغامرين والطامحين ؟ كيف تتحول ناطحات السحاب الزجاجية في الصحراء بعد ان تنقطع الكهرباء او بعد ان يعجز عن تأمين الطاقة , ماذا سيحل لأولئك الذين ظنوا ان الثروة دائمة (٢) كل الدلائل تشير الى الاحتمالات السلبية : الهجرة المعاكسة وخواء المدن وخرابها وانهيار مدن الملح وذوبانها وبدأت تتسرب اليها المياه , هذه القراءة بمثابة صرخة تنبه وتبصر السائرين وهذا الجيل الى ان الحريق قد بدأ وان مسيرة الخط تبدو باتجاه الخراب(٣).

اما اتجاه الاحداث في ثلاثية محفوظ فيتجه صوب البناء والاصلاح في النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية , فقد حققت مصر الاستقلال والحرية ونالت الاسرة حريتها وأطلت على العالم الآخر وحققت المرأة حريتها وتعليمها وحقها في العمل وولد جيل جديد برؤيا جديدة يسعى الى المستقبل , وفي الوقت الذي كان فيه الموت يجثم في احدى زوايا البيت كانت هناك في زاوية اخرى طاقة ينفذ منها نور الحرية والضياء فكان الانفتاح الثقافي ووجد جيل يستأنف المسيرة ويؤكد ان حركة الحياة مستمرة لا يسود فيها جانب وحده لا الخير وحده ولا الشر وحده , لا الماضي ولا الحاضر , لا الموت ولا الحياة , وأتلت الجيل الجديد من قبضة الجيل القديم , وتغيرت كثير من الافكاروالمعتقدات والمسلمات وولدت اخرى غيرها , وما كان جديد صار قديما , فكمال قديم جديد في آن , قديم بالمقارنة مع آل شداد وجديد بالمقارنة مع جيل والده وفي الوقت الذي اتجهت فيه الثلاثية نحو الانحدار البيولوجي فأن جيلا جديدا استأنف المسيرة تمثل بجيل الاحفاد , وانفرجت زاوية البناء والحرية في اتجاهها العام , تلك هي فلسفة الكون والحياة : هدم وبناء , حياة وموت , حزن وفرح وهكذا...

وفي (العصاد) ولد جيل جديد حمل راية الحرية وناضل من اجل الاستقلال وتبنى الشباب معتقدات سياسية وفكرية جعلتهم يرحلون عن واقع الرجعية والتخلف والانهيار الحضاري , وبدت الفجوة واسعة بين الماضي والحاضر , واتسعت آفاق البناء والاصلاح وحققت البلاد حريتها وتنوعت الأفكار السياسية وتفتحت العقول والبصائر .

١- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى ٢٢٣

٢- السابق ٢٢٢

٣- السابق ٢٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصير الدول و الحضارات

"و تلك الايام نداولها بين الناس " (١)

سقوط الدول و اندثارها حتمي شأن الكائن البشري . و التعاقب الدوري للحضارات أهم معالم نظرية ابن خلدون، و" الحتمية" واضحة في آرائه و في الآيات القرآنية التي يختم بها فصوله . و هو يقيس الدولة او الحضارة على حياة الانسان ، فحركتها متعددة الأطوار كتطور الانسان ، و يجعل للدول أعمارا كالأشخاص ، فعمر الدول ثلاثة أجيال : البداوة ، التحضر ، التدهور .

تتعرض رواية (مدن الملح) الى مصير الدول ، و مثلما الكائنات الحية تتعاقب الدول ، تسقط واحدة فتقوم على انقاضها أخرى ، و سلطنة آل هديب حلقة من عدة حلقات ، اذ هزم مرخان بن هديب أمير حران في غزوة من غزواته ، و ساعده في النجاة مفلح بن مباح الذي رفض الوقوف مع بني سحيم ضد مرخان . و بقتل مزهر بن سحيم سقطت دولة آل سحيم و عاد آل هديب الى الحكم حين انتصر خريبط . فالدول في تلك الفترة ارتبطت بأمرائها ، فما داموا أحياء و أقوياء فدولهم موجودة و مستمرة ، أما اذا قتلوا أو هزموا فقد اندثرت دولهم ، الا اذا حاول الأبناء استعادة ملك ابائهم و أجدادهم مثلما فعل خريبط ، ذاك الذي عاد في فترة زمنية كان العالم فيها يجتاز مرحلة من التقلبات الكبرى و يتضح في هذه الفترة دور قوى دولية عظمى تتحكم بدول أخرى و بمصائر شعوبها ، اذ كانت تدير الأحداث بحسب ما تتطلبه مصالحها . و لقد حكم مزهر على نفسه بالموت حين تحرش بأصدقاء بريطانيا و ذهب الى أعدائها الأتراك يطلب المساعدة ، كان مصيره السقوط و الموت ، اذ لم تعد تتسامح هذه كما كانت حين يقتتل الأمراء الصغار على المياه و المراعي و بقتل مزهر أثبت خريبط أنه قوي يمكن الاعتماد عليه ، فنصبته بريطانيا عميدا للأمراء الصغار(٢)

١- آل عمران : ١٤٠

٢- تقاسيم الليل والنهار : ١١، ١٣ ، ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا هو واقع هذا الجزء من العالم في مطلع هذا القرن . دول تتحكم بمصير دول أخرى . كل شئ مطروح للقسمة : الشعوب و الدول و السلاطين . و المناطق و الشعوب تلحق تبعا لرغبات الأقوياء الذين يتخذون القرارات تبعا لمصالحهم، و الملوك و السلاطين يخترعون فورا أو يحكم عليهم بالنفي (١) . و سقطت عائلة آل ماضي و رحل آخر امرائها . بناء على رغبة الدول الكبرى . وبوصول هذه الدولة غاية قوتها بدأت مرحلة التراجع و السقوط ، ذلك أن القادة الذين حققوا الانتصارات كانوا سبب سقوطها و حول الانجليز هذه المناطق الى قلاع محصنة و مسلحة تمد المتمردين بالمال و السلاح . وبدت ذروة المأساة و الانهيار عند تقسيم الحدود و الخرائط في صورة مثيرة للأسى (٢) .

و هكذا بدأ خريط قويا الى أن تراجع نجم دولته . اعتمد على المال و السيف و القوى الأجنبية وقبل ذلك سقطت إمارات وأمراء (٣). ثم تسلم خزعل أمانة السلطنة و اعتمد على نفر من المستشارين العرب ليست لديهم معرفة بادارة الدولة و الحكم ، و على طابور من المنجمين والسحرة كان سقوط هذه الدولة في ترفها و بذخ حكامها ، بدأ خزعل قويا غنيا الى أن نحي عن الحكم بتواطؤ بين فنر و أخوانه و قوى أجنبية ، عندما أصدر بيانا جاء فيه (أن الدول لا تبنى بالرغبات و الشهوات) (٤) و فقد سيطرته و ارادته و قد وضع يده بذلك على سر انهيار هذه الدول لا سيما التي تحكمها أسر بالوراثة.

حكم السلطان فنر في فترة شديدة التحول ، بدأ قويا و حوله مجموعة من المستشارين لهم علاقة بأسرة الحكيم ، غير أنه لم يبتعد عن عقلية شيخ القبيلة فسار على نهج والده ، و لم يستفد من اطلاعه و سفره و اختلاطه في اقامة دولة قوية راسخة ، و ظن أن التغير يكمن في الظواهر و الأشكال و اعتمد كوالده في الحكم على الخوف و الرغيف ، و ساءت ادارته في الحكم فظهرت أصوات تعارض حكمه فأغرقت باستعمال العنف و جرت سياسته البلاد الى الهاوية فأبرم عقودا أنهكت الدولة و استنزفت خيراتها ، و يتضح أن خط سير الدولة كان صوب الخراب ، اذ وضع المدفع مقابل المدينة رمز الحضارة ،و نشبت حروب اهلكت النسل فكانت تلك الأحداث علامات على سقوط الدولة و تدهورها . و انشق عليه اخوته و قتله الامير ضاري ، فكان سبب سقوطها يكمن في داخلها

١- تقاسيم الليل و النهار ٧
٢- السابق ٢٠٠ ، ٢٣٧
٣- الأخدود ١٨٧
٤- المنبت ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و هكذا فقد تعرّضت الرواية الى مصير الدول و الملوك عبر الزمان . الى الملوك المخلوعين و الذين أُعدموا و الممالك المزدهرة التي آلت الى السقوط بفعل الزمان . مثلما جاء خريط قوياً فقد سقط بقوة أيضاً ، و رأى الناس في الحرب الدائرة بينه و بين مناوئيه نهايته . و امتلأت ذاكرة المدينة بكلمات الحكام ، مع كل ملك من هؤلاء كان يأتي الموت و الجوع . و قد سارع ذلك في سقوط تلك الدول و انهيارها فكانت بذرة الفناء مترافقة مع بذرة النماء . غير أن سقوط الدول في الشرق يختلف عن سقوطها في الغرب . فدول الشرق القبلي ترتبط برموز محدودة ، اذا سقطت سقط معها ، و اذا سقط السلطان سقط البناء كله ، مهما يبدو قوياً راسخاً يتعرّض للشرخ ثم للسقوط (١) . و هكذا بدا لنا مصير عدد من الدول يتجه الى السقوط بعد أن بدأت قوية ، و قد حرصنا على تتبع سير نشوئها و قوتها ثم انهيارها .

١- بداية الظلمات ص ٢٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مؤثّرات في المصير الانساني :

لعبت الوراثة دورًا كبيراً في تشكيل الشخصيات و في تحديد مصائرها و مواقفها و تفكيرها و أسلوب حياتها و علاقات الآخرين بها . ورثت خديجة عن والدها صورة مصغّرة عن أنفه العظيم فكسبها ذلك دمامةً و قبحاً أجّل زواجها و جعلها مثار تندّر اخوتها و انعكس ذلك على عالمها النفسي (١) . وورثت عائشة عن أمها أنفها الصغير و شعرها الذهبي و عن والدها عينين زرقاوين ، فكان يرى فيها وجه أمه الجميل (٢) . و تأثر ياسين بشخصية والده المزدوجة وورث عن أمه فسقها ، فكانت شخصيته ضحية قانون الوراثة و البيئة المتمثّل بالتأثر بسيرتَي والديه الفاسقتين زاد من ذلك تفكك أواصر الأسرة (٣) ، و هكذا عانى ياسين من أفعال لم يتدخل في صناعتها . أما كمال فقد ورث عن والده أنفه العظيم ولفّه شعور أنه ضحية اعتداء منكر تآمر به عليه القدر و قانون الوراثة و نظام الطبقات ، و قد منعته عوامل طبقية من الزواج من عايدة الأرستقراطية، و عوامل وراثية من الفوز بقلبها و ارتدّ ذلك الى عالمه الداخلي فعاش صراعاً مريراً (٤) .

و كان السيد أحمد حريصاً على مراعاة قوانين البيئة فكان مثالها ، و كان حريصاً على مراعاة واقع البيئة و المحافظة على مكانته المرموقة و كرامته الشخصية و الصيت الاجتماعي ، فقد وافق على طلاق زينب من ياسين حرصاً على صداقته مع والدها مضحياً بمصير ابنه ياسين و ارادته (٥) . وأجّل زواج ابنته عائشة ريثما تتزوج خديجة استجابة لعوامل البيئة التي تقضي بزواج الكبرى قبل الصغرى بعد أن تخلّفت عوامل خلقية في أن تزيد في جمال خديجة ، و ترك ذلك أثراً كبيرا في مصير الفتاتين ، غير أن السيد رضخ أخيراً لعوامل الوراثة فقبل زواج عائشة قبل خديجة . و كانت عائشة مثال التكيف الاجتماعي . اذ تكيفت مع الواقع الجديد في بيت آل شوكت و تطبّعت بطباعها ، في حين وقفت عوامل الوراثة في وجه خديجة التي ورثت عن والدها طبعه الحادّ , فكانت شخصية ممتدة مثّلت والدها في بيت آل شوكت،وهكذا تقابلت عوامل البيئة والوارثة في بيت آل شوكت .

١- بين القصرين ٢٩
٢- السابق ١٢٩
٣- السابق ٤٩٥
٤- قصر الشوق ٣٢٤ - ٣٩٧
٥- بين القصرين ٣٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عرض محفوظ عالم شخصياته الداخلي وبين أثر الوراثة والعادات والافكار المكتسبة وتفاعل هذا التركيب مع البيئة، واخضعها لمنطق الحتمية . وسيطرت فكرة التطور التاريخي الحتمي على الرواية الذي يقتلع كثيرا من التقاليد التي كانت راسخة (١) واستفادت الثلاثية من المذهب الطبيعي في تتبع أثر الوراثة والبيئة على الافراد , وتتبع رحلة الانسان وما يصاحبها من عذاب وألم . فقد قال الطبيعيون بأثر الوراثة والبيئة مثلما قال به الواقعيون

وفي "الخماسية" ورث السلطان خزعل عن ابيه طول القامة وحب النساء والسلطنة واثر ذلك في مستقبله . فقسوة جسمه مكنته من الدفاع عن والده أثناء محاولة اغتياله في العوالي فعينه وليا لعهده على خلاف التوقعات . وهكذا فان الدماء تحمل معها عوامل وراثية تؤثر في سلوك الشخصية وتساهم في رسم مستقبلها ومصيرها . وقد عول المؤلف كثيرا على الوراثة , اذ بها تنتقل كثير من العادات الاجتماعية وانماط السلوك الى اجيال لاحقة مثلما يحمل الدم ملامح البشر وسماتهم الوراثة مكرره، والمكرر هو النواة والباقي , وقد كان الحكيم يطمح ان يدخل ابنته سلمى الصغيرة في عالمه عبر الزمن لتكون امتداده في الارض ولترث منه سمات تنقلها الى اجيال لاحقة (٢) .

ولا يتوقف دور الوراثة على نقل سمات البشر وملامحهم الفسيولوجيه اذ تنقل الينا كثيرا من العادات وأنماط السوك والتقاليد عبر الاجيال تتوارثها وتحافظ عليها وتحرص عليها حرصها على مقدس وعزيز , وربما تنقل صفات وممارسات وروحا غير مرغوبة فتثور عليها الاجيال اللاحقة مثلما ثار عمران على الهوان الذي ورثه جيله في سوريا عن اجيال سابقة فقال (لا قضية للانسان في هذا الجيل الا التفرد , ولا بد اننا ورثنا هوانا سحيقا ونريد ان نثأر الآن بشئ من الكبرياء ، فليكن...)(٣) وربما ينشأ صدام بين القديم والجديد او بين الموروث والجديد وقد مثل ابراهيم روح الاستسلام التي توارثتها البلاد عبر أجيال ، وكان محمد عمران حريصا على ان تكون تصرفاته متوائمة مع البيئة التي عاش فيها في سوريا , فعندما تزوجت ابنته سعاد من غير موافقته نثر في جميع الأوساط أنه زوجها من تاجر من أشرف العائلات و أغناها (٤) . و هكذا فان رواية الأجيال تتأثر بالقوانين المختلفة .

١- جوميه : ثلاثية نجيب محفوظ , ترجمة د. نظمي لوقا ، ٥٠

٢- المنبت ١٩٤ , ١٩٦

٣- العصفة ٣٩٠

٤- السابق ٨٧ , ٦٤٥ - السابق للاطلاع على عامل الوراثة في(العصفة) انظر ص٣٥٦ ،اذ ورثت مدحة عن والدتها عزيزة حب الفضول و حب الحديث عن مساوئ الاخرين و الميل الى السيطرة على شؤون المنزل و لذة الشعور بالهوان وتعذيب النفس و بدا الناس لعباس و كأنهم سكبوا في قالب واحد لا فرق بينهم في الطباع و الغرائز.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظهرت في رواية الاجيال قوى أُخرى أثّرت في المصير الانساني , فيها ايمان بالقدرية أو الحظ وبقوانين طبيعية حتمية , فيها ايمان بقوى خفية توجّه البشر وتسهّل أمور حياتهم وتقود خطوات البشر وتقف وراء نجاحهم , في الرواية ايمان بالغيب والقدر في تفسير بعض الظواهر الكونية والحياتية وفي تحديد علاقات الناس معاً . وتدخّلت قوى حتمية في تحديد علاقات الشخصيات ورسم مستقبلها ومصيرها (١)، فالزواج يحتّم الانجاب وارتباط الابن بالوالدين، وعلى هذا، فإنّ علاقة الأجيال فيما بينها علاقة حتمية , وعليه فانّ ياسين لا يستطيع ان ينكر علاقته بوالدته على الرغم من فسادها . وعلى هذا النحو فانّه نتيجة لسير النهر ان أخذت من المنبع بعض الصفات وتركت أخرى , فالأبناء يتوارثون عن آبائهم صفات ليس في وسعهم أن يغيّروها كلياً(٢) .وقد اشار محفوظ الى أمراض المجتمع وأمراض الكائن الحي والانسانية عامة،قرن بين الانجليز والتفوئيد , فالانجليز قتلوا فهمي والمرض قتل اسرة عائشة ، , ذلك ان دودة صغيرة تستطيع ان تأكل جدث أكبر الكبراء،ويشير محفوظ في حديثه هذا الى عنصر الشرّ في الكون وصراعه مع عنصر الخير , ذلك ان الشرّ قوة مسيطرة . وهكذا فانّ المصير نتاج هذه القوى المتداخلة غير أننا لا نستطيع ان نغفل دور الإرادة الإنسانية وأثرها في صناعة المصير، والإرادة هي صورة عن اختيارات الانسان وتدخلاته وتوجهاته , وهي تكمن في صورة الانسان في مختلف نشاطاته ومواقفه , كان مصير اسرة السيد مربوطاً بإرادة الأب العليا فاذا قال قولاً فقد انتهى كل ما سواه , الى حدّ تراءى لزوجه وأسرته في صورة القدر بإرادتها الانسانية ما كانت تطمح الى بعض منه , اذ حصل المجتمع السوري على حريته واستقلاله وانفتحت آفاق الاحتكاك الثقافي وما تبعه من تيارات فكرية وسياسية ومذهبية , ونالت المرأة حقوقها في التعليم والعمل وزاد الوعي في المجتمع السوري , ودخلت الآلة معترك الحياة في الجزيرة . ويقف على رأس القوى المؤثرة في المصير الإنساني: الزمن والوارثة والبيئة وقوانين طبيعية حتمية والقدر والحظ والإرادة الانسانية ، وقد برز ذلك بوضوح في رواية الاجيال.

١- الاخدود : ٢٤٠ , ٢٤١، ٤٠٨ , وانظر التنبه : ٧ , ٨ , ١٦٣

٢- نبيل راغب : قضية الشكل الفني عن نجيب محفوظ ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيًا : الواقعية في رواية الأجيال

رواية الاجيال رواية واقعية اطارها التاريخ . أشارت الى أحداث حقيقية وقعت في حقبة من التاريخ وارتبطت بأمكنة كانت مسرحها ، فإيمان نجيب محفوظ بحتمية التطور التاريخي دفعه الى ان يعتمد في ثلاثيته على التاريخ ، قدّم من خلاله قضية فكرية كانت محوراً دارت حوله الأحداث . وكان همُّه أنْ يصوّر الحاضر ويقدّمه . وعكست الثلاثية ازمة مجتمع وأزمة جيل المؤلف من خلال شخصية كمال عبد الجواد(١) ، مثلما عكست النخبة التي التفت حول " العصبة" جيلٌ صدقي اسماعيل في العصاة . وكانت الحرية هي المحور الذي دارت حوله أحداث ثلاثيتي محفوظ وصدقي اسماعيل . وأشارت الثلاثية الى وقائع حقيقية في التاريخ المصري واثّرت في مصيره متساوقةً مع تاريخ شخصياتها وتاريخ اسرة السيد احمد . مثلما ذكرت "العصاة" وقائع حدثت في التاريخ السوري متساوقةً مع تاريخ أسرة آل عمران . وفي "خماسية" عبد الرحمن منيف امتزج التاريخ السياسي بالتاريخ الحضاري، وبدت فيها آثار التماسّ الأجنبي العربي متساوقةً مع تاريخ اسرة آل هديب الحاكمة ، وصورت النقله الحضارية من مجتمع ما قبل النفط الى مجتمع ما بعده ، على مدى أكثر من نصف قرن . كانت الشخصيات أنماطاً دالة على مجموع الآخرين ، ليست فردية تمثّل ذاتها فحسب ، بل تعدّتها لتمثل أجيالاًلم يكتف محفوظ بايراد الأحداث بل انفعل بها و بيّن موقفه و تأثيره في سير مجريات الأمور ، مما يشير الى الواقع في تلك الحقبة ، والى رؤيا الأمّة وآمالها وآلامها والى الموقف السياسي من أطراف الحرب العالمية الأولى .

وورد في الثلاثية اشارات الى الوفد المصري برئاسة سعد زغلول مطالبا برفع الحماية واعلان الاستقلال والى اعتقاله ونفيه وفرض الأحكام العرفية وما تبع ذلك من اضطرابات ومظاهرات كان فهمي احد عناصرها فكان رمز اليقظة الواعية . وأشارت الرواية الى اضرابات النساء ، مما يشير الى دور المرأة في الحركة الوطنية . ووردت اشارات الى مؤتمر الوفد وخطبة مصطفى النحاس فيه و الاحتفال بالعيد الوطني و الى تصريح هور و الى دستور ١٩٢٣ و دستور عام ١٩٣٠ والموقف منهما ومن الحكومات المتواطئة مع الاستعمار ، ووردت بعض أسماء قادة عسكريين وتواريخ حقيقية كانت علامات مميزة في التاريخ المصري ، والى أحداث وقعت في ما بين الاعوام ١٩٢٣ - ١٩٢٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استخدم صدقي اسماعيل في ثلاثيته (العصاة)الاطار التاريخي في بناء روايته الفني فعبر عن المجتمع السوري من خلال تتابع الاجيال في اسرة حلبية عاشت حتى بداية نكبة فلسطين ، وقدمت الرواية صورا حيه وواقعية لحياة الناس في تلك الحقبة من الزمن ورصدت تجارب اجيال ثلاثة في سوريا عاشوا ظروفهم الخاصة والعامة مؤطرة بأطر الواقع والتاريخ . واعتمد الكاتب على توالي الاحداث التاريخية مقرونة بتواريخ حقيقية ، فذكر الحرب العالمية الاولى وثورة الشريف فيصل والاحتلال الفرنسي والثورة السورية واضرابات عام ١٩٣٦ وحوادث الاسكندرون ١٩٣٧ وثورة العراق ١٩٤١وحوادث الاستقلال وحرب فلسطين ١٩٤٨. وهكذا فان اطار الرواية التاريخي يبدأ ببدايات هذا القرن وينتهي بنكبة فلسطين . والتزم الكاتب بسرد حوادث واقعية في تواريخ معينة ، اشار الى الاحداث السياسية والاجتماعية الكبرى من خلال تجارب الاشخاص ومواقفهم ومعاناتهم : الجد محمد وولاده للسلطان و ابراهيم والحياة الحزينة في زمنه ، رمزي والحرب العالمية الاولى والثورة السورية ، وسعاد ويونس وحوادث الاسكندرون ، وعدنان وهاني وحوادث الاستقلال وحرب فلسطين وهي ترصد تاريخ نصف قرن من الزمن عبر تجارب اسرة حلبية ، اما شخوصها فهم من ابناء ذلك الزمن ، وكتب الناشر على غلافها (رواية كبيرة تؤرخ التجربة الانسانية والقومية خلال نصف قرن من تعاقب الاجيال في سوريا وتصور الحياة اليومية في ابعادها المختلفة وتناقضاتها واحلامها) وارخت للواقع الاجتماعي والسياسي والقومي ورصدت حركة تطور الفكر الاجتماعي والسياسي من خلال حركة الاجيال والعلاقات الاجتماعية (١)

تصور "خماسية" عبد الرحمن منيف التغيرات الحضارية منذ اوائل هذا القرن في اقطار الجزيرة العربية والنقلة الحضارية بين مرحلتين هامتين : ما قبل اكتشاف النفط وما بعده ، وما رافقه من دخول الاجنبي لأهداف سياسية واقتصادية واستعمارية : ورصدت مرحلة تاريخية كاملة ، مرحلة التحول من بداوة الصحراء الى مدن النفط وما تبعه من تغيرات اجتماعية وسكانية وتدمير بنى وإقامة مدن ومجتمعات ، انها رحلة في المكان والزمان خلال مرحلة تاريخية ما زالت مستمرة(٢)، انها رواية مرحلة و رؤية للعصر

١- د. ابراهيم السعافين : تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الفكر للنشر والتوزيع. عمان ١٩٨٣ ، ٣١٨

٢- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى ٣١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اعادة قراءة للمجتمع في إحدى مراحله (١) . وذكر المؤلف الاتراك ودخول الامريكان والدور الانجليزي والاطماع الاستعمارية والمعاهدة البريطانية وترسيم الحدود والحروب الدائرة والفتن والدسائس التي حاكتها الدول الاستعمارية بين الاقطار العربية . وذكرت في الرواية اسماء مدن عربية . وجنحت الخماسية الى الرمز في ذكر الامكنة . فحوران وحران ووادي العيون هي مسميات رمزية تدل على امكنة حقيقية .

وقد طرحت رواية الاجيال قضايا عامة . فاشارت "الثلاثية" الى قضية الطبقات في المجتمع المصري وقضية المرأة وحقها في التعليم والعمل وقضية النضال والتحرر الوطني والى الازمة الاقتصادية والدستور والاستقلال والديمقراطية والقومية المصرية والبطالة وقضية المذاهب الفكرية والاديان والعنصرية والتعصب والقبلية والفساد الحكومي والى اخلاقيات الطبقة الارستقراطية وآدابها ، واخلاقيات الطبقة الوسطى وآدابها والى المذاهب السياسية واعلامها ورصدت مظاهر تطور الحياة في مناح مختلفة . وعالجت "العصاه" قضايا الرجعية والتخلف والاستعمار والنضال من اجل الحرية والاستقلال ورصدت تطور الشخصيات الثقافي والاجيال التي تمثلها ورسمت صورة للعقلية الدينية والسياسية والاجتماعية والمشكلات الفكرية المؤرقة ومسألة الدين والقومية (٢) والفكرة العربية والدعوة الى الثورة العربية والى الجمعيات التي شكلها الاتراك وهي وثيقة تشير الى العفن الذي تسرب الى الفكر السوري وبذور النقمة عليه . كشفت عن تخلف المجتمع وعن شخصية الثوريين العرب وتطور مفاهيمهم وكشفت عن معاناه المجتمع السوري وعن الافكار الحديثة التي تسربت الى المجتمع مثلما اشارت الى وعي بعض الشباب السوري بالثقافة الاجنبية من خلال معرفتهم بالاداب الاجنبية واهم اعلامها . وهي تهدف الى تعرية الواقع وصلته بقضايا التخلف والتجزئة والزيف والتردي المثل في الخلل السياسي والاضطراب الاجتماعي والاحباط وتردي العقول وفساد الضمائر واشارت الى جوع الانسان الى الطمأنينة والاستقرار والمعتقد والى المتوطنين مع الاستعمار الفرنسي وهو رواية واقعية باطارها التاريخي وتفاصيلها الدقيقة واعتمادها على رسم مجتمع بأكمله عن طريق هذه التفاصيل .

١- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى : ١٦٨ ، ٢٤٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٧

٢-د . حسام الخطيب : سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية ١٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عالجت خماسية عبد الرحمن منيف التحولات الهائلة التي أحدثها اكتشاف النفط في العالم العربي وملامح هذا الانقلاب وأثره في افكار الناس وممارساتهم ، وقارن الكاتب مستقبل المنطقة بمستقبل مناطق في الغرب الامريكي اعتمدت على مصادر طبيعية آنية محدودة تحولت مدنها الى خراب عندما نفدت ثروتها , وهكذا فقد استندت قراءته للمستقبل الى تجارب واقعية في بلدان اخرى من العالم , ولعل من صدق تجربة الكاتب وعمقها انه عاش في المنطقة الشمالية من السعودية , وفي الرواية الكثير من مشاهد الحياة التي عاشها بحكم عمله وتخصصه في ميدان النفط(١) ورصد التحولات المختلفة وصور المجتمع وهو يغادر مقادير بداوته وملامحه وحياته السابقة الى المجهول . ذلك ان التغير حدث في القشرة فقط , اما البداوة فقد انكسرت دون ان يعثر على بديل حقيقي لها , اذ استبدل البعير بالسيارة وتغيرت حياة الناس وممارساتهم الظاهرية من غير ان تطال الجوهر ,ولم تكتسب ابنية مدن النفط ملامح المكان والانسان الساكن فيها , فالمدينة لم تخلق في مدن النفط على الرغم مما تمتلكه من وسائل مادية متطورة , وستظل تتعثر حتى تولد في ظروفها الطبيعية. وهكذا فان مدن النفط العربية تختلف عن المدن الاخرى التي انشئت في اماكن اخرى اذ خلقت ومعها بشرها وعلاقاتها وأنماط سلوكها ، فكانت ثمار تجارب انسانية حضارية جماعية متراكمة . اما مدن النفط فقد أنشئت فجأة وأبرزت لنا الخماسية دور المستشارين لا سيما في الخمسين سنة الأخيرة في دول النفط ، و هكذا فان " مدن الملح" ترصد مجتمعا كاملا في مرحلة انتقال . وبينت دور المال والاعلام والمخابرات في قيام أنظمة العالم الثالث .(٢) وتعالج الخماسية ايضا العلاقة بيننا وبين الغرب وتطرح قضايا الدستور والعقلية السائدة وعقلية القبيلة التي توجه عقلية السلطان بعيدا عن منطق الدولة ، والظلم والحرية والتخلف الفكري والجهل الثقافي والطبقات والترددبين الماضي والحاضر وسوء فهمهما معا ، وهكذا صورت الخماسية مرحليتين حضاريتين وجيلين من الحكام .

١- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى ١٥١ . ١٥٤

٢- السابق : ٢٢١ . ١٤٩ . ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلمس قارئ رواية الأجيال اغراقها في التفاصيل في السرد والوصف وتتبع الأحداث والمشاعر والمواقف وذلك آية من آيات واقعيتها وضخامة حجمها. وهي تجنح الى الواقعية النقدية احياناً , وهذا ما نهجته الثلاثية , اذ تضع الموقف جوار الصورة الفنية من غير ان تكتفي بتسجيل الحوادث ووصفها , بل تتأمل الذي يجري وتتفعل به وتتخذ منه موقفاً(١).

وقد زاوج محفوظ بين المنهجين: الواقعي والطبيعي , وجنحت الثلاثية الى الواقعية الإيحائية اذ قدم محفوظ من خلال شخصية كمال الخيوط التي نسجت مشكلات جيله المأزوم (٢)، فهي واقعية نقدية وواقعية رمزية وواقعية طبيعية .

ومن مظاهر واقعية رواية الاجيال انها تنقل الينا وعبر حديثها عن الأجيال بعض العادات والأمثال الشائعة التي توارثتها الأجيال المتعاقبة مما يشكّل لدينا قائمة بالفضائل والرذائل ويرسم لنا صورة واضحة عن الطبائع والأمزجه والقيم والعادات والتقاليد التي تحمل روائح الامكنة والأجيال والحقب التي ولدت وعاشت فيها .

في ثلاثية محفوظ كثير من عادات المجتمع المصري وتقاليده التي تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية , كعادات الأسر في الزيارة وطرق ادارة البيت والخطبة والزواج. وقدّمت لنا صورة واضحة عن حياة الناس في البيت والعمل واماكن العبادة , وبيّنت لنا فضائل الأفراد والطبقات وآدابهم المقدسة وقيم الرجولة والشهامة والمروءة ومظاهر جمال كل طبقة التي تختلف باختلاف الطبقة , فالنحافة من مظاهر جمال القتاد الارستقراطية في حين انها عيب لدى فتاة الطبقة الوسطى, فللأرستقراطية آدابها في اللهجة والجمال والطعام واللباس والعمل والخطاب ، وللوسطى كذلك . و هكذا فالثلاثية مادة خصبة للباحث الاجتماعي لمسح عادات المجتمع المصري وادابه واخلاقياته . وقد يدل الالتزام بعادة معينة على جيل معين في حقبة معينة من التاريخ في مجتمع معين ، فالعادة توحي بزمان وجودها ومكانها ؛ فعادة لبس الطربوش في

١- د.علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ص ٢٥٤

٢- انوار المعداوي : ملحمة نجيب محفوظ الروائية (١)، الاداب عدد ٤ سنة ٦ , نيسان , بيروت ١٩٥٦. ٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجتمع المصري التزم بها جيل في حقبة معينة من التاريخ مثلما ان ارتداءه واستبداله بالسدارة في المجتمع السوري ارتبط بوقائع معينة وبمرحلة تحول مختلفة الابعاد ,اذ توحي بالصراع بين العربية والتركية في بعض جوانبها مثلما توحي بانتهاء مرحلة وبدء اخرى(١) .

ونقلت الينا " العصاد" عادات المجتمع السوري في مراسيم الزواج وعلاقات الاسر فيما بينهاوآداب الطبقات الاجتماعية وقيمهاواساليب الحياة مما يشير الىاداب مرحلة و فضائل جيل . ومن العادات التي نقلتها الينا " مدن الملح " عادة اشهار الولادة والاحتفال بولادة الذكور من غير الاناث في المجتمع البدوي ومراسيم الخطبة والزواج , لهجات كثيرة تختلف باختلاف البيئة الحضارية التي نشأ فيها اولئك الذين قدموا الىمدن النفط , فا لالفاظ تحمل روائح الامكنة والبيئات والمستوى الحضاري والجيل ، فقاموس الشامي يختلف عن قاموس البدوي مثلما يختلفان بالنطق , ولك ان تتصور البون الحضاري الشاسع بين من يلفظ (الدكاترة) (والدختره).

نقلت الينا رواية الاجيال بعض الامثلة الشعبية والاهازيج التي شاعت ووصلت الى اجيال لاحقة ،فقد ورد في "مدن الملح" امثلة شعبية نذكر منها (فرخ البط عوام) و(تحزم للواوي بحزام اسد)(٢) و (عين الذيب ما تنام)(٣) واللي يشرب من بير ما يرمي به حجر)(٤) و(الدنيا دالوب يوم فوق والثاني تحت) و(السيل اذا وشل يغور لكنه لا بد في يوم من الايام يفور)(٦) و(اكلع شوكك بيدك) و(مايبول على يد مجروح)و (ذاك العوج من الثور الكبير) (٧) و (اول الغضب جنون وآخره ندم)(٨) وهكذا فالمثل يلخص موقفاني منتهى العمق , وقد حاول مؤلف الخماسية ان يلخص كثيرا من الافكار وعناصر الرؤية المكثفة من خلال الامثال التي توحي بالبيئة الحضارية التي ولدت فيها وتلخص سماتها واسلوب حياتها.

١- العصاد :١٤١
٢- الاخدود :٥٤٧
٣- السابق :٥٤٨
٤- تقاسم الليل والنهار :١١
٥- السابق: ١٤
٦- السابق :١٠
٧- الاخدود : ٢٨٣
٨- السابق :٦١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وورد في ثلاثية محفوظ امثال كثيرة منها (اذا كبر ابنك أخه) و(الولد سرابيه) و(من شابه اباه فما ظلم) و (ابن الوز عوام) ووردت فيها اهازيج كأهزوجة سلمان الزاجل بعد مقتل مفضي الجدعان. وتكمن اهمية هذه الامثال والاهازيج والعادات في انها تعود بنا الى حياة اجيال مضت ، نلتمس ما بقي منها وما توارثته الاجيال والمواقف التي تستحضرها ومحاور التقاء الماضي بالحاضر .

ومن مظاهر واقعية رواية الاجيال ايضا انها تقدم لنا صورة واضحة عن الجو الفكري السائد والعقلية السائدة التي عاشها جيل معين في فترة من الزمن . فالعقلية التي سادت في فترة حكم السلطان خريبط والسلطان خزعل كانت تؤمن بالسحر والتنجيم , وتحولت عليها الكثير في توجيه دفه الحكم واقامة العلاقات مع الاخرين وفي رسم تصرفات السلاطين والامراء . وقد ضمت القصور السلطانية الكثير من السحرة والمنجمين وقارئي الكف , فكانت رؤاهم تتحكم في مسيرة الدولة وفي علاقات السلطة الحاكمة .

بعد اعلان "السلطنة الهديبية " أحضرت الشيخة زهوة المنجم العجمي وكتب "الحجاب" اللازم للسلطنة (عسى الله ان يحمي ابو منصور ويفتح عليه ويرد عنه كيد العزال)(١) وحدثها السلطان ان سيارته كادت تنقلب أثناء عودته , فاستدعى المنجم وكافأه واعطاه ذلولا وثلاثين ليرة رشادية . وحين هزم فرحان والد خريبط في إحدى غزواته وصل الخبر الى نجمة المثقال عرافة الحدرة وما جاورها فقالت (العين ما تحمل اثنين , وظني ان مرخان ماله ردة) وارسل اليها من منفاه يسألها عن أخبار المستقبل فقالت لأقربائها (هذا راح وراحت عليه , يجوز الله يبعث له من عقبه يسوي الذي هولم يقدر عليه)(٢) وبمقتل مزهرين سحيم وبهزيمة بني سحيم عاد آل هديب من جديد ، عندها قالت نجمة المثقال (الدنيا دالوب يوم فوق ويوم تحت... ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم ..)(٣) وتنبأت بسقوطها حين قالت (اللي يمشي بالليل يدبي ما يرمح .. وهذة ابن مرخان هدة ملحوق..)(٤) وكان السلطان يتطير من المواليد الاناث , ذلك ان وريدة قابلة القصر سمعت منجما عاش في القصر ومات فيه. وكان السلطان يحبه ويصطحبه معه يقول للسلطان (هذا القصر الجن رابطه وحاميه . وما أحد يقرب منه او يقدر عليه , واذا خرب فوراء خرابه

١- بادية الظلمات : ٣٥

٢- تقاسيم الليل والنهار : ١١

٣-السابق : ١٤

٤- السابق : ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرية أو بنية من داخله)(١) ، وكانت قابلة القصر وريدة تحب الذكور ،واذا لاحظت ان القصر اضطرب بالمشاحنات كانت تنظر الى نجمة الصبح وتقول عاليا " يا ملك الجان بحق النبي سليمان تربط العمدان وتقوي الحيطان وكل مرية تفري على غيرها فرية ترد عدوانها لنحرها وتجيب اجلها ، وتقطع نسلها "(٢) وفسر بعض الناس سبب خروج السلطان الحقيقي الى البادية للقنص وزيارة الشيوخ بأن احد المنجمين في العوالي أخبره (ان النجاة في الفلاد ويلزمك ان لا تصل موران الشهور الحرم جميعها ما دام نجم الثريا في منازل الغياب)(٣)، وكان حريصا ، ان يحمل معه صندوق الامانة اثناء رحلاته اذ فيه(ذخر الدنيا والاخرة)(٤) ويعتقد السلطان ان قارئ الكف والمنجم مشرف متصل بالاولياء ، وعبثا حاول بعض مقربيه اقناعه ان المنجمين يتبعهم الغاوون وان العذاب والخراب مآل من كان المنجمون دليله ، ورد السلطان بقوله (ان الله كشف له الغيب)(٥) وانه يستطيع معرفة القاتل والقتيل . وقد امر السلطان خريط باحضار عدد من منجمي المشرق والمغرب والهند والسند للاجابة عن سؤاله (اموت موت الله ام بيد العبد؟ ومتى) (٦) ولعب السحرة والمنجمون دورا كبيرا في رسم سياسة الدولة وفي ادارة دقة الحكم وفي تصرفات السلطان الخاصة ، وتدخلوا في مرضه فعندما تدهورت حالته تدخل السحرة بعمل الاطباء ، فما ان يعالجه الطبيب حتى يتدخل السحرة و آراؤهم بالطبع مختلفة . ويرى بعض المنجمين أن محاولة اغتيال السلطان لها علاقة بالمنجم مشرف البكري لأنه غادر الطريفة قبل ايام من المحاولة. وحين عادت طائرة خزعل من غير علمه عندما خلعه فنر أغلق الباب على نفسه ورفض استقبال احد ، وبعد محاولات وتوسلات وبحرق البخور وقراءة الادعية التي تطرد الجن والعفاريت وافق على فتح الباب (٧) . هذا هو الجو الفكري العام الذي كان يعيش في ظله الحكام والمحكومون ، جو الايمان بالسحر والشعوذة ،وقد رافقت هذه العقلية السلطان خزعل الى

١- بادية الظلمات : ١١١
٢- السابق : ١١١
٣- السابق : ١١٢
٤- بادية الظلمات :٨٤
٥- السابق :١٢٥
٦- السابق : ١٧٠
٧- المنبت :٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغرب فعندما وصلت احدى نسائه)عثرت والدتها على حزمة من السحر موضوعة في زجاجة لتربط السلطان كما ترى احدى الساحرات .(١)واتسع ان الشيخة زهوة كانت حريصة على دعوة اكبر عدد من الفقراء كل شهر في حين اكد كثيرون انهم ليسوا فقراء بل سحرة . وبعد تناول الطعام كانوا يدورون سبع مرات حول القصر حاملين اكياس الملح ينثرونه في الزوايا . وتدخلت قابلة القصر (وريدة) في الطقوس والممارسات التي تستقبل فيه المرأة مولودها ذكرا في جو اسطوري يوحي بالجو الذي عاشه ذلك الجيل(٢) .

وقد انعكس هذا الجو الفكري على بناء الرواية الفني . وبوجه خاص على شخصياتها . فللشخصية الاسطورية الملحمية حضورها في هذه المرحلة، مرحلة "التيه" . وهي دليل على عجز الانسان ازاء القوى التي تواجهه ، فحين اقتلعت الالات الثقيلة اشجار وادي العيون اصيب متعب بالذهول . فحمل بندقيته وقربة ماء وركب ناقته، وحين بدأ حركته السريعة اصبح مثل طير أبيض ، وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى واختفى وقد يئس الناس من عودة متعب الى ان دبت رزيا نجمة المثقال الأمل في الناس، اذ اخبرتهم انه يتجول في الصحراء عودته كريح السموم قوية كاسحة لا يردها احد، وتراءى متعب لابنه شعلان يتجول في أرجاء المعسكر وقرب خزان المياه ويركب ناقته العمانية ويختفي، وتراءى لابنه فواز في روضة المشتى مع التماعه البرق ومعه عصا يشير بها الى الناس والى الضفة الاخرى من الوادي مخوفا من المستقبل ، ونظر اليه والده بغضب وكان يريد ان يقول له : أننا أجبرنا على ترك الوادي.. وقد كبرنا ومرضنا . وشرح له خلال مونولوج داخلي مصير العائلة ،وقد ظل متعب يمثل المجهول والخطر الذي يحتمي بالصحراء والظلمة . وخلال صدام اهالي حران مع جوهر وجند ذكر بعض الناس انهم شاهدوا رجلا على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم وأنه اقتحم بوابة المعسكر الرئيسية وتساءل الناس هل هو متعب ام مفضي؟ وقال آخرون انهم رأوا فواز الهزال وأخاه مقبل وهما يطيران فوق الرؤوس ويصرخان(جيناك والبيك يا بوية)(٣) تلك شخصيات ملحمية اسطورية تذكرنا بشخصيات الف ليلة وليلة في جوها العام وفي اغراقها بالخيال وفي تتابع القص مما يعكس عقلية الجيل والمرحلة الحضارية التي مر بها .هذه شخصية مفضي

١- التيه :١٤٧،١٤٦،١٣٤،١٢٨،١٠٦.

٢- بداية الظلمات : ٢٤٨ - ٣٥٣

٣- السابق ١٦٩ ، ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجدعان حاضرة في كل مكان , أكد اهل حران انهم رأوه وسمعوا صوته واحسوا به يمر قريبا منهم. وأكد عمال المحجر والصيادون والنساء والمارة ورواد المقاهي انهم شاهدوه. واقترن موت مثل هذه الشخصيات بموت حيوان أليف . فقد مات الغزال الذي كان في بيت ابن نفاع وحزنت عليه البنت الصغيرة كثيرا وبعد شهور انطفأت عيناها تماما لكن ولد في داخلها نور ابيض بلون الحليب , واحس الناس عند موته برجفة قوية اصابتهم في اماكن مختلفة. وذكر الصبية ان مفضي كان اعاد الحياد الى اشخاص بعد موتهم وقبل دفنهم وقالوا انه سيعود وانه لا يستطيع احد قتله , وتذكر الصبيه انه عند وفاته شاهد الذين كانوا على شاطئ , غزالا يهوي في البحر وان الذين عادوا من المدرسة سمعوا صرخة قوية في بيت ابن نفاع أعقبها خروج طيور بيضاء كبيرة نوافذ البيت وبابه , وان العصافير التي كانت تقف على سور البيت قد تهاوت في لحظة وأكلتها الكلاب التي كانت تنبح بطريقة غريبة(١) وقد روي عن الامير غائل السويد امير حران انه توغل الصحراء يسمع الشعر ويبحث عن طير ابيض خطف زوجته.(٢)وفي (العصاد) وردت خرافة (بئر السلاحف) التي يعتقد الناس انه يعيش فيها سلالة من الجن في صورة ذهبية اللون , وتقول الاسطورة ان الملاك الذي تقع عينه على السلحفاد يمسخ سرطانا او حيوانا ليا من هذا القبيل . ويذكرون ان لمسة السلحفاد تصيب الانسان بالشلل (٣) .

١-النبه : ٥٣٢, ٥٣٤, ٥٣٧

٢- السابق : ٢٥٥

٣- العصاد :٥٨ - ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا تعاقب وتلاحم

يقوم بناء رواية الأجيال الفني على تعاقب الثنائيات ، تعاقب الشخصيات وتعاقب مظاهر الموت والولادة وعلى تلاحم العام والخاص .

في ثلاثية محفوظ تتلاحم حركة الاسرة مع حركة المجتمع المصري ، وقد اثر الواقع السياسي في مصر في حركة المجتمع وفي حياة الأفراد . وأكد محفوظ نفسه فكرة التلاحم هذه في مواقع مختلفة من الرواية . وظهر لنا في الرواية ان معاناة الاسرة من سلطة السيد أحمد توازيها معاناة مصر من سلطة الاستعمار والرجعية ، مثلما تسللت حركات التمرد من قبضة الاستعمار ، وأكد كمال نفسه ان مشكلتة الشخصية لا تنفصل عن مشكلة وطنه (ومن عجيب انه وجد في الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته ، فكان يطالع انباءها في الصحفوكأنما يطالع مواقف مما مر به في (بين القصرين) او العباسية ، هذا سعد زغلول مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة ولخيانة الأصدقاء وغدرهم ، وكلاهما - هو وسعد - يكابران احزانا من اتصالهما بأناس علوا بارستقراطيتهم . تقمص شخص الزعيم في كدره كما تقمص حال الوطن في قهره ، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفصال واحد ، فكأنما كان يعني نفسه ووهو يقول عن سعد زغلول " أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المختلف؟ " وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زبون " خان الأمانة " واستحل القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة " وكأنما كان يعني عايدة وهو يقول عن مصر " هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يزور عن حقوقها؟"(١) وهكذا فان الاحداث الخارجية تسير في خط مواز لما يجري داخل الاسرة ويبدو لنا التأثير المتبادل بين الاحداث العامة والخاصة ، فالاحداث تفسر بعضها ، وما يجري داخل الاسرة نجد نظيره على مستوى الوطن ، وعكس ذلك صحيح ، فالحديث عن الخارج يعني تفسيرا لحدث

١- قصر الشوق : ٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو يحاء بمعنى , وما يجري في أيّ من الطرفين يعني حدثاً مشتركاً في دلالته.يقوم هذا التلاحم العضوي على دلالة رمزية مشتركة بحيث يكون احساس القارئ واحداً إزاء ما يجري , فالكاتب يقدّم وجهين أحدهما يكشف الآخر،وهكذا نستطيع أن نتصوّر ان حياة الأسرة تشكّل أمامنا مجموع حركة المجتمع آنذاك ،وان علاقة الأسرة الداخية مفسَّرة بالواقع العام الخارجي . وهي تنزع الى العام من خلال الخاص(١)،وعلى هذا فانّ ثورة فهمي الذي يمثّل الجيل الجديد مزدوجه في معناها : ثورة على المستعمر وثورة على تقاليد الأسرة ممثلة بوالده ، وهكذا تلتحم حركة الداخل بالخارج وكلاهما يصبّ في الآخر ، وتلازمت مأساة عائشة الشخصية مع مأساة مصر ,فكان فقدها لأولادها ختاماً لمرحلة سياسية انتهت بموت سعد زغلول ، مثلما تلازمت مأساة أسرة متعب الهذال في خماسية عبد الرحمن منيف ، مع مأساة الوادي(مدن النفط العربية)،فانقسمت العائلة مثلما انقسمت مواقف امة العرب في تلك البقعة ازاء الاجنبي .

ونجد هذا التلاحم واضحاً في قضايا هامة ومصيرية كقضية الحرية والنضال وقضية المصير الانساني . فقد عقد المؤلف علاقة رمزية قامت على المشابهة بين مصير الكائن البشري وما يصيبه من ضعف وتراجع وانهيار وبين مصير المجتمع المصري ، فحال الأمة في مسيرها ومصيرها حال الكائن البشري،قال الطبيب يصف حالة أمينة وهي تعاني مرض الشلل قبل موتها , في الوقت الذي يصف فيه حال المجتمع المصري (يؤسفني أنّ أخبرك انها حالة شلل كلي)(٢) وقال رياض يخاطب كمالاً يعبّر عن مرضه ومرض مصر (انك مريض وتأبى أن تبرأ) (٣) قال عبد الرحمن حين أصاب السيد احمد مرض ضغط القلب يشير بذلك الى قوة الاستعمار قال (إنه عرض.. من أعراض الثورة لم يسمع به أحد قبل اشتعالها)(٤) قال محمد عفت مداعباً السيد احمد مشيراً الى قضية الديمقراطية والحرية التي يسعى اليها الجيل الجديد ويناضل من أجلها (انت رجعي , تتعلق بالماضي دائما , ألست تصر على حكم شعبك بالحديد والنار , حتى في عهد الديمقراطية والبرلمان ، فقال السيد الديمقراطية للشعب لا للأسرة)(٥).ويلاحظ المتتبع لحركة

١- سليمان الشطي : الرمز والرمزية في اداب نجيب محفوظ ص ١٤٨ , ١٤٩ , ١٥٢ , ١٧٣
٢- السكرية : ٣٢٤
٣- السابق : ٢٧٨
٤- قصر الشوق : ٤٠٧
٥- السابق : ٤١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التلاحم بين العام والخاص صورة حركة المجتمع المصري والأسرة المصرية ونضالهما من أجل الحرية والاستقلال . مع ما اعترض مسيرتهما من عقبات ومعوقات وانتكاسات , مما يشير بوضوح الى مسيرة الثورة المصرية والقضايا الوطنيةالعامة والاحداث الكبرى التي رسمت مستقبل الانسان المصري ومصيره . لقد عبر عن واقع الانسان المصري المقهور من خلال تجربة حب عائشة لضابط قسم الجمالية , اذ عندما اقترب من النافذة رفع عينية ففي حذر دون ان يرفع رأسه (فلم يكن احد يرفع راسه في مصر وقتذاك - فابتسم ابتسامة انعكست على وجه عائشة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، وكان قلبها موزعا بين السعادة وبين الخوف)(١)، وهكذا كانت مصر تحيا في وجدان الشخصيات . فمصر هي التي ابتسمت حين ابتسمت عائشة . وهي نفسها التي توزعت بين سعادة الحرية وبين الخوف من الاب والاستعمار. وهكذا نستطيع تفسير هذه الاحداث من خلال علاقة رمزية تجمع بين مسيرتين ومصيرين : الأسرة ومصر، واقترن زواج خديجة باعلان الهدنة ، اذا انتهت الحرب وغلب الالمان وانتصر الانجليز فقال ياسين : (كسب الحرب الانجليز والسلطان فؤاد وعروستنا خديجة)(٢) ، واقترن تحسن علاقات خديجة ووالدة زوجها بتحسن علاقات الانجليز بمصر. اذ قالت عائشة (سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل ان يتحسن ما بينهما)(٣)، وقرن السيد احمد انسحابه من بيت زبيدة بانسحاب الانجليز اذ (تساءل السيد احمد عن أمن السبل لانسحابه من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل عما فعلت السلطة العسكرية ، وعما يبيت الانجليز وعما ينوي سعد)(٤) واقترنت خطبة حسن سليم لعايدة باعلان انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون ان تقبلها الامة المصرية(٥)وتساءل اسماعيل (خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير)(٦) اذ رفضته الامة المغلوبة على امرها , وضحك كمال المغلوب على امره . وقال كمال لفؤاد الحمزاوي (الزواج معاهدة كالتي وقعها النحاس بالأمس . مساومة وتقدير ودهاء وبعد نظر.

١- بين القصرين
٢- السابق ٣٠٣ , ٣٠٤
٣- السابق ٤٣٣
٤- السابق ٣٢٧
٥- السابق ٢٦٦
٦- قصر الشوق ٢٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفوائد وخسائر)(١) . قال ابراهيم يصف قوة بريطانيا وقوة خديجة وتحكمهما في مصير مصر والأسرة (أمكما قوية كانجلترا)(٢) فقال ياسين يصف وطأة الاستعمار والأحكام العرفية (كيف أفرغ لمزاجي وبيتي محكوم بالأحكام العرفية؟)(٣)، وتساءل رياض يعبّر عن أمانيه وآمالي مصر وهو يضع خاتم الزواج في يسراه (متى تنكشف الغمة , متى ترفع الأحكام العرفية ،متى يعود السلطان الى القانون الطبيعي والدستور , متى يعامل المصريون كالآدميين ؟)(٤) ، مثلما عبّرت عائشة عن أمل مصر بالاستقلال بعد ان نالت خديجة استقلالها (انت سيدة مستقلة , عقبى لمصر)(٥) وفي الوقت الذي كان فيه الوطن مشغولاً بحريته كان ياسين دالباً على الاستئثار بحريته هو كذلك من خلال سهرته , على الرغم من زواجه(٦) , ولم يغب الوطن عن اغنيات الصغار , فلم يكن غناء كمال الفتى الصغير أمام الانجليز سوى غناء الأسرتين الصغيرة والكبيرة معاً .

يا عزيز عيني بدي أروح بلدي

يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي(٧)

فقد كانت الأسرة وهي تتابع غناءه كانما كان يغني نيابة عنها . أو كأنما هم الذين يغنون في حنجرته , وكأن كرامتهم أصبحت متعلّقة بنجاح ذلك الغناء مما أنسى والدته في لجة هذا الشعور مخاوفها .

وقد صوّر المؤلف من خلال هذا التلاحم سمات حركة النضال والتحرّر ومدى تحقيق الثورة لأهدافها . عبّر عن مرحلة (التيه) من خلال قول كمال (اني سابح في متحف لا أملك فيه شيئاً . مؤرّخ فحسب لا أدري أين اقف . فقال رياض : اني في مفترق الطريق وقفت في ميدانك عهداً قبل ان اعرف وجهتي . ولكني أرجح انه موقف ذو قصة , لأنه عادة يكون نهاية مرحلة وبداية مرحلة اخرى)(٨) واقترن مخاض الثورة بمخاض عائشة , وان ولادة نعيمة ضعيفة توحي ان الثورة (المولود) لم تحقّق أهدافها ، اذ

١- السكرية ٩٩
٢- السابق ١٢٦
٣- السابق ٢٧٧
٤- السابق ٢٣٩
٥- قصر الشوق ٣٨
٦- بين القصرين ٣٢٦
٧-السابق ٣٧٨
٨- السابق ٣٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مات فهمي بعد الافراج عن سعد(١) وعانت نعيمة من ولادة متعسرة مثلما عانت عائشة قبلها من ولادة متعسرة . مما دعا عبد المنعم الى القول (هل أفهم من هذا ان عسر الولادة وراثي)؟ (٢) واشار احمد الى الحكم المتواطئ مع الاستعمار الذي لم يحقّق آمال الأمة في قوله (من الأفضل لشعبنا ان يُسام الخسف من ان يغدر بحكم يحبه ويثق به دون ان يحقّق له هذا الحكم آماله الحقيقية , طالما فكرت في هذا حتى انقلبتُ أرحّب بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود واسماعيل صدقي)(٣)،وعن تفتح الوعي من خلال النضال الوطني قال فهمي(لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادي النيل)(٤).

في العصاة نجد انّ زواج محمد آل عمران هو الثورة بعينها ثورة مزدوجة : على واقع أسرتها وأسلوبها في الحياة وثورة على الأوضاع العامة , وهي رمز لثورة سوريا على الاستعمار . تمثّل ايضاً في موقفها وزوجها أثناء أحداث الاسكندرون عام ١٩٣٧(٥)،وان إحراق الطرابيش التركية يعني انتهاء مرحلة وبدء اخرى جديدة على يد جيل شاب جديد(٦). ان مسيرة عدنان وعمران الثورية هي ثورة على واقع الاسرة المتخلّف متزامناً مع الثورة على الاستعمار،فالعصاة هم المتمردون من ابناء آل عمران ومن غيرهم من الجيل الجديد الثائر على الآراء التقليدية السلفية التي تقدّس الماضي وتحاول العودة بالحياة اليه . وكانت سعاد اول اولئك العصاة الذين تمرّدوا على الأب والماضي والاستعمار . وكان ابراهيم عمران أحد اولئك العصاة ، اذ اقترنت ثورته بالاطلاع على الثقافة العصرية في تلك الحقبة،واقترن بحث سامي عن حريته في أسرته مع بحثه عنها في المجتمع الذي تمثّل بموقفه من الاستاذ الجامعي (اذ لم يكن لنا في الجامعة ان نبدي آراءنا في حرية فالأفضل أن نذهب الى المقهى)(٧) وقال وهو يخرج (سوف اخرج لأنني اخجل من البقاء في هذا المكان الفوغاتي)لا يهمّ من أكون ولكن يجب ان يعرف الجميع من أنتم ...

١- بين القصرين
٢- السكرية ١٥٣
٣- السابق ١٥٦
٤- بين القصرين ٣٤٢
٥- العصاة ٦٤
٦- السابق ١٤٠
٧- السابق ١٨٢د

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس من شأن أحد ان أكون ملحداً فأنا حرّ بما أعتقد - مع اني لست ملحداً - غير انكم تلوثون العقول بالأضاليل(١) وان اقدام عمران على فتح صندوق قديم كان والي حلب أودعه جد الأسرة في مطلع الرواية هو ثورة على تقاليد الأسرة وأعرافها مثلما هوثورة على الواقع العلم وبدء مرحلة جديدة.وبرز جيل جديد،وثار هاني على الاستعمار في الوقت الذي ثارت فيه زوجه على حياة أهلها المحافظة.وفي خماسية عبد الرحمن منيف نجد ان انقسام اسرة متعب وتشتتها تراقق مع تشتت مواقف الانسان العربي ازاء القضايا المعاصرة في صراعه مع الموت . فهذا الشرخ الذي انتهى اليه متعب وابن الراشد ادى الى تفسخ الأسرة وتشتت أفرادها . اذ بقي شعلان في وادي العيون , وهذا يعني ان قبيلة جديدة قد رضيت بالأمر الواقع , وتابع فواز ووالدته رحلة التيه واختفى ربّ الأسرة متعب . وهذا موقف العربي إزاء الغرب،انه الموقف ازاء المصيبة والكارثة الحقيقية،فعندما جاءت فرق التفتيش عن النفط أحسّ بعض الناس بالخوف من هؤلاء القادمين الجدد،وبعض آخر تصور انّ القادمين الجدد يحملون معهم الثروة ،

وهكذا فانّ الشخصية عبرّت عن ذاتها وعن هموم الأمة وهموم الانسان العربي في تلك الحقبة , مثلما أن مضي يعني انقضاء مرحلة وبدء اخرى. وقد تأثرت الأسر التي ورد ذكرها في رواية مدن الملح بالواقع الجديد , فقد انقسم موقف اسرة شمران ازاء المستجدات الجديدة ،

وهو موقف يعكس موقف العربي عامة في تلك الحقبة ازاء الحضارة المستوردة واسلوب الحياة الذي رافق دخول الآلة . فقد رفض شمران الأب الواقع الجديد. في حين ان ابنه (نجم) تكيّف مع هذا الواقع وساهم في بنائه ، واتسعت آفاق تجارة ابنه نمر ، وتأثرت اسرة الحكيم بالظروف العامة والمستجدات السياسية ، فحينُ نحّي خزعل تشتّتَ شملُ اسرةِ الحكيم وبدأت مرحلة جديدة في حياتها ، وانعكست آثار الواقع على الاسرة الحاكمة وعلى علاقات الاخوة معا ،

وحين تزوج (فنر) زواجه الثاني اكتشف انه لا يختلف عن سائر افراد العائلة ، معبراً بهذا عن الإنسان العربي لا سيما بعد ان طرأت عليه الثروة

٢- السابق ١٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلم تبتعد آفاق استثماره لها عن الزواج أو شراء بندقية او اقامة دعوات الولائم ، وتلك هي رؤية الغربي للانسان العربي التي ثارت دهشته واستغرابه ، تدعمها ممارسات الانسان العربي الواقعية . واقترنت احتفالات نصر خريبط على منافيه واستسلام بعضهم بثلاثة مواليد جدد رزق بهم السلطان خريبط ومصالحات بين فضة والعنود على يدى الشيخة ، وبخمسة من الابناء ينتظرون مع الخيول لتحديد يوم الاحتفال "١"، وان مرض خريبط وانهيار جسده واصابته بالامراض صورة عن مرض الأمة ومعاناتها ، مرض قديم اسمه الجهل وفي ذلك كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته يزاوج بين مرض السلطان الجسدي ومرض الأمة (... لكن الأكثر اهمية من الاصابة ، ان هذا الجسد المكابر والذي يبدو قوياً ، في الظاهر ، كان مليئاً بالأمراض المزمنة ، وبعضها وراثي ، مثل العقد السلية في الرقبة ، وقد اخذت تتحرك بسرعة الآن ، وربما يكون لها مضاعفات قد تضر خلال فترة غير بعيدة ... ومع ذلك وبالرغم من عناده ، ورفضه للأدوية ، مثل أيّ بدوي جاهل ، وعدم تقيده بالنظام الغذائي الملائم ... لا بد من عمل شي من اجل وقف التدهور حتى لو اقتضى الامر إرغامه على دخول المستشفى"٢") وليس بكاوذ أثناء تقسيم الخرائط والحدود امام الفريق وترسيخ الحدود الاجنبي إلاّ صورة للأمة العربية وهي تواجه مصير التقسيم وترسيخ الحدود فيما بينها . وبكاوذه رثاء لهذا المصير الذي تردّدت إليه "٣" ، .وتلمس هذا التعاقب في (العصاد) حين هم عبد الرحمن بمغادرة المدينة للاصطياف،اذ تضايق عدنان ولعن الزمان والحياة وقال : إنه الفراق والموت فأجاب عبد الرحمن (لا بد انها صروف الزمن لقاء وفراق)"٤" .

وفي(مدن الملح) بدأ الجزء الاول "التيه "بدخول الأجانب وانتهي بخروج الأمير خالد وموت مفضي الجدعان والغزال الذي كان في بيت ابن نفاع مؤذناً بانتهاء مرحلة . وبدأ (الأخدود) باعلان وفاة السلطان خريبط واستلام ابنه خزعل أمانة الحكم وانتهت بزواجه من سلمى بانتهاء مرحلة اخرى . وعاد بنا (تقاسيم الليل والنهار) الى اوائل حكم السلطان خريبط في مطالع القرن وانتهت بعودته منتصراً فرحاً بالنصر . وعاد بنا الجزء الرابع (المنبتّ) الى حكم السلطان خزعل وهو يحطّ في مطار بألمانيا فرحاً ومعه العروس سلمى،وانتهى وقد طارت الطائرة نفسها التي أقلته عربياً لتعود به الى موران ميتاً .

---

١ - تقاسيم الليل والنهار : ٣٩٦ ٢- بداية الظلمات : ١٦٧

٣- تقاسيم الليل والنهار ٢٣٧ ، ٢٣٨ ٤- العصاد : ١٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اما فرسه (غصن البان) فقد ماتت في الليلة نفسها , مؤذنة بانتهاء مرحلة اخرى في حياة الاسر الحاكمة وانتهى القسم الاول من الجزء الخامس (بادية الظلمات) بانهيار صحة السلطان خريط واعلان وفاته , وانتهى الجزء الثاني من هذا الجزء بقتل السلطان (فنر) وعودة الحكم وقد اضطرب عقله . واقترن قتل السلطان فنر بأن خمد صوت رأسي الماعز اللذين كانا في بيت عمير وقد تركا وحدهما بعد ان اعتقل الجميع صغارا وكبارا .

تقوم رواية الاجيال على تعاقب الثنائيات : الشخصيات والاحداث والافكار تعاقب الموت والحياة . البناء والهدم . النجاح والاخفاق الجيل القديم والجديد , الماضي والحاضر الاستعمار والاستقلال العجز والظلام وتعاقب الشخصيات وتمتد الحياة ويسلم الكبير رسالته الى الصغير الذي يحمل الامانة ويمضي بها ليسلمها لمن بعده , وهكذا تستمر الحياة في حركة دائرية لا تهدأ .

بدت في ثلاثية محفوظ فلسفة الموت والحياة واضحة , فقد انتهت (بين القصرين) بموت فهمي وانتظار ولادة عائشة , وانتهت (قصر الشوق) بموت سعد وياسين ينتظر ولادة زوجة , اما (السكرية) فانتهت باقتراب وفاة الام امينة وياسين ينتظر ان تلد ابنته كريمة , هكذا تتعاقب الحياة والموت فحركة الميلاد والموت تحدد مرحلة او توكد حدثا عاما , فولادة عائشة المتعسرة التي انتهت بولادة نعيمة ضعيفة القلب اقترنت بالافراج عن سعد وسقوط فهمي حريصا . فمعاناة الامة اشبه بمعاناة عائشة . (الموت والميلاد) ليس من ميتا فريسقا فحسب , بل يعني انتهاء اسلوب وميلاد اخر وابتداء عند خط النهاية , فاذا عجز فكر وجيل

١- سلمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ص ١٧٤
٢- نبيل راغب : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ص ٢٠١ , ٢٠٢
٣- السكرية ص ٣٠٢ , ٣٠٣
٤- السابق ص ٦
٥- قصر الشوق ص ٢٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معين فان فكرا جديدا او جيلا آخر يولد ليستأنف الحياة(١) وهكذا يطغى تيار الزمن على كل ما حوله من احداث : القديم يندثر والجديد يولد وعملية التطور تدور دورانا ازليا ابديا. ويصل بنا محفوظ الى الاحساس الابدي وهو أن الموت والميلاد قناعات لوجه واحد هو الحياة نفسها (٢) فلقد مات محمد رضوان يوم زفاف خديجة ورحلت خديجة من جواره بزواجها , ورحل هو الى جوار ربه(٣) وطلاق مريم قابله زواج زنوبة من ياسين , وهدم بيت محمد رضوان قابله بناء عمارة كبيرة باسم (بيومي الشريتلي)(٤) وقد صور كمال هذا التعاقب بين الموت والحياة في قوله (وكان الامل معقودا ان قاطرة الحياة تسير وان محطة الموت في الطريق على اية حال. وها هي ساعة الفراق ساعة الظلام والهدوء نحبها كما نحب الفجر)(٥) . يفضي تعاقب الاحداث والافكار الى تعاقب الشخصيات التي بدورها تحرك الاحداث وتحمل الافكار . وبهذا يستلم جيل من آخر , وشخصيه من اخرى , وتستمر الحركة الروائية , ويتكون لدينا ما يسمى بـ " الشخصية الممتدة" ففي رواية مدن الملح امتدت شخصية متعب الهذال الذي اختفى في الجزء الاول في مفضي الجدعان وشمران وصالح الرشدان , وهكذا تتعاقب الشخصيات في مدن الملح , ويسقط قسم منها ويأتي غيرها , وتظل الرواية تجري كالنهر , تتفرع منه فروع وتصب فيه فروع من انهر اخرى , وتتكاثر الشخصيات والامكنة ولا تتمحور الرواية حول بطل فرد , اذ تؤدي الشخصية دورها وتنسحب لتفسح لبديل يكمله(٦) وهذه الشخصية الغائبة الحاضرة في آن تشبه الشخصيات الملحمية كشخصية متعب وشخصية مفضي , وتقترب منها شخصية امي زهوة وشخصية السيد احمد في جبروتها واستبدادها وقوتها يقول عبد الرحمن منيف : (اني ازمن بسباق التتابع في السياسة , اي قبل ان يختفي بطل تدفع الراية الى من يستطيع ان يحملها ويوصل ما تتطلبه من مهمات)(٧) وهكذا امتدت شخصية السيد احمد في بعض جوانبها في شخصية ياسين في عبثه وازدواجيته وفي شخصية خديجة في استبدادها وفي تحكمها بأسرتها , وامتدت شخصية كمال في احمد شوكت وامتدت شخصية ياسين في رضوان , وفي (العصاد) امتدت شخصية محمد آل عمران في شخصية عمران وكونت تيارا رافق الجيل الجديد (جيل الابناء) , وامتدت شخصية هدى في شخصية ابنتها.

١- سليمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ . ص ١٧٤
٢ - نبيل راغب : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ . ص ٢٠١ , ٢٠٢
٣- المكرونة : ٣٠٢ ، ٣٠٣
٤- السابق ص ٦
٥ - قصر الشوق ص ٤٧٠
٦- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى "٦ - ٨"
٧- السابق ص ٣١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقف هذه الحركة التعاقبية وراء ازدياد عدد شخصيات رواية الاجيال وهذا مما يميزها اذ يصعب حصر عدد شخصيات (مدن الملح) و(ثلاثية محفوظ) ولهذا تتعدد وجهات نظرها ومواقفها، وتجنح الرواية الى التفصيلات الدقيقة , وتعبر هذه الشخصيات الكثيرة كل عن وجهة نظر وموقفها التي تشكل في مجموعها رؤية الراوية الشاملة ومحورها العام وقضيتها المركزية ولهذا تتعدد المواقف والرؤى والافكار والشخصيات وأثر ذلك على البطولة في رواية . الاجيال , ذلك ان بطلها مجتمع وليس فردا , فالمجتمع المصري في ثلاثية محفوظ مثلا هو البطل(١) , وان ازمة اسرة السيد احمد ليست فردية شخصية فحسب بل اجتماعية وانسانية , انها ازمة مجتمع في مرحلة من تاريخه في رواية الاجيال يتنحى بطل الرواية (الفرد) , ففي خماسية عبد الرحمن منيف (يظهر مفهوم جديد للبطولة الروائية , حيث يتعاقب الناس - الابطال كمياه النهر الجاري - بحيث يتوقف الواحد منهم أكثر ما يحتمله المشهد او الحالة فاسحا المجال , بعد ذلك , لكي يأتي الاخر , البديل المكمل ويواصل المشوار-الحياة واذا كانت هناك عودة او ارتجاعات فكما يحصل امطار تصب فوق الارض ذاتها (٢) فتعاقب شخصيات (مدن الملح) نتاج فني لاتساع مدى الموضوع وجسامة الاحداث من حيث حدة التحولات وما يتبعها من انهيار بني وقيام بنى جديدة وصراعات اجتماعية عميقة , كل تلك العوامل جعلت البطل (الفرد) أقل اغراء بالنسبة للمؤلف(٣).

١- د.علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ص٢٤٩
٢- عبد الرحمن منيف : الكاتب والمنفى ص ٧٦
٣- السابق ص٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقوم رواية الاجيال على شخصيات ثنائية متوازية تدخل في ما بينها في دوامة من الصراع والاختلاف والتناقض. فلكل من شخصية السيد احمد وياسين ظاهر وباطن وسيرة مزدوجة , وهما فيما بينها متناقضتان , وشخصية ياسين العابثة نقابلها شخصية فهمي الوطنية المتحمسة وشخصية كمال العاقلة . وتمتد هذه الثنائيات الى معظم الشخصيات وتحمل رؤى ومواقف ثنائية ايضا, ام ياسين العابثة : امينة الطاهرة , عائشة الجميلة : خديجة الدميمة كمال الحائر: احمد وعبد المنعم المنتميان , وهما غير رضوان الوصولي , وفي مدن الملح متعب الحاضر الغائب , المرأة المتسلطة المتجبرة (امي زهوة) : المرأة التي تحاول السيطرة من خلال جسدها (وداد زوج الحكيم) , السلطة الحاكمة : التيار المعارض الذي يمثله متعب ومفضي وشمران وصالح الرشدان , وشمران(الاب) : نجم الابن ,الغرب:الشرق, وفي العصاة محمد آل عمران : سعاد , محمد ال عمران :ابراهيم ,اميرة :عمران , اسرة محمد عمران : اسرة يونس , سعدى : هدى ,عدنان : عبد الرحمن, وقامت الاسر التي تكونت في رواية "العصاه" على تناقض الزوجين , فقد تزوج ابراهيم المولود في بيئة محافظة من هدىالدمشقية الغنية ذات البيئة المنطلقة وتزوجت مديحة المنفتحة البيئة من سليم, من اسرة محافظة مغلقة , وانتقلت شخصيته من بيئة دينية الى شخصية ملحدة . وتفضي هذه الثنائية الى ثنائية الرؤى والمواقف والافكار والممارسات , فمقابل انسانية الانسان التي تبدو في سيرة السيد احمد التي تتطلع الى المبادئ العالية وحرصه على الاصدقاء والجيران , يقابلها الجانب الحيواني المتهالك على اللذات ومقابل قوته في البيت :عجزه امام الانجليز . وفي ثلاثية محفوظ بينتان وطبقتان : حي الحسين : حي العباسية , اسرة السيد احمد : واسرة آل شداد , كمال : فؤاد .وهكذا تقوم رواية الاجيال على هذه الثنائيات , فالمثال يقابل المادة , والحرية يقابلها الاستعمار , والقديم مقابل الجديد , والاب مقابل الابن , والخير مقابل الشر , والموت مقابل الحياة , وكذلك في "العصاه"هناك جيل مقابل جيل , المدينة مقابل الريف , وثورة مقابل الانحلال , وحق مقابل ظلم , وعفوية مقابل تعقيد , وهناك صراع مستمر(١) .وهكذا تمتد الرواية وتقوم على هذا الامتداد وعلى هذا التناقض.

١- د. حسام الخطيب : سبل المؤثرات الاجنبية وأشكالها في القصة السورية.معهد البحوث والدراسات العربية , دمشق ١٩٧٣ , ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي رواية الاجيال حلقات من الصراع ذات هدف . فهدف الصراع في ثلاثية محفوظ التوصل الى الحل الحضاري الفكري والاجتماعي (١) وصراع شخصيات مدن الملح ضد الطبيعة وضد الاخر والغريب والقهر، وصراعها في العصاه ضد التخلف والرجعية والماضي العتيق . ويظهر هذا الصراع بين الاجيال وبين الثنائيات حين يبدأ القديم بالسيطرة على الجديد في وقت يبذل فيه الجديد محاولاته للتخلص من محاولات الاحتواء , وتتم هذه العمليات المتعاقبة على اساس ان الزمن متغير متقلب , ونجد صدى روح الصراع بين الشخصيات هذه في عالمها الداخلي ولهذا تعتمد رواية الاجيال على المونولوج الداخلي بشكل واضح وعلى الحوار في ما بين الشخصيات لاختلاف المواقف والرؤى , ولهذا ينكشف عالم الشخصيات الداخلي مثلما انكشف لنا من الخارج , فكاتب العصاه مختص في علم النفس , وجاءت روايته تغص بالتحليل النفسي , وتجلت فيها مختلف انواع الثقافة النفسية والمعاصرة (٢) ،وحين تلجأ الشخصية الى الحوار الداخلي تتداعى الصور والافكار في تيار دافق وتكشف عن رغباتها المكبوته وتفصح عما لا تستطيع ان تبوح به , ويختلف تيار الشعور باختلاف الاجيال وباختلاف التجربة والخلفية الثقافية والمعرفية , ويبدو ذلك في مالمسناه من اختلاف في أفاق تفكير السيد احمد وابنه كمال وصدى ذلك في اعماق الشعور لدى كل منهما ، بل ان مدلولات الالفاظ تختلف باختلاف مناهج تفكير الاجيال وخبراتها فالفكر لدى السيد احمد ارتبط بأغنية الحامولي (الفكرتاه) , اما كمال فيرنو الى ثقافة الفكر والعقلية (٣) .وهكذا فان نجيب محفوظ يطور شخصياته على صورة التركيب الداخلي لها من غير ان يغفل اثر الوراثة والبيئة والعادات والافكارالمكتسبة وتفاعلها مع البيئة الخارجية(٤) .وانكشف لنا عالم شخصيات مدن الملح من الداخل ايضا لا سيما التي انفعلت بالواقع الجديد وجنحت الى المعارضة مثل شمران وصالح الرشدان مما يؤكد ان الموقف نفسه هو الذي يهيئ موقف الحوار الداخلي , فلقد دخل شمران دوامة من الصراع بعد ان ترك سوق الحلال وراى اثنين من ابنائه يتكيفان مع الحياة الجديدة . اما هو فقد ظل واقفا حائرا مترددا خائفا . اراد شمران ان يمتحن نفسه يوما , فسأل نفسه هل يتسطيع ان يميز انواع السيارات مثلما كان يميز انواع الحيوانات فذهب الى،

١- د. محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة : اصولها اتجاهاتها. اعلامها ط٣ نشر مكتبة المعارف الاسكندرية / بدون تاريخ ٤١٣

٢- د. حسام الخطيب : سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية , معهد البحوث والدراسات العربية , دمشق ١٩٧٣ , ١٢٦

٣- نبيل راغب : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ١٦٣

٤- د . علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية ٢٦٠ , ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقف السيارات نظر اليها بإمعان , نظر الى مقدماتها بشكل خاص كما كانوا يفعلون . نظر الى اطاراتها والى صناديقها ايضا في محاولة لأن يقدر نوعها وحمولتها ورجع الى مقهى زيدان وهو يؤنب نفسه "حسافا . يا ابو نمر , انت اللي كنت تميز الناقة اللي جابت بطن من اللي جابت بطنين من نظرة وتعرف الفلو من هي امه , والفرس من هو حصانها , وتعرف وين شيرت وين ربعت ومتى تشبت , تصم عليك هذه الحدايد كأنها الصخر؟" (١). هذا الصراع الداخلي يعكس الصراع الحضاري الثقافي الذي يعتمل في المجتمع خلال النقلة الحضارية التي اصابت المجتمع ونقلته من مجتمع ما قبل النفط الى مجتمع ما بعد النفط . وهذا صالح الرشدان يعاني صراعا داخليا لان قرارا صدر بنقل سوق الحلال الى العوالي فغادرته حياة الماضي وتركته غريبا في مرحلة جديدة اقتحمت فيها الالة مرافق الحياة فحاول ان يتعلم الصمت فلم يواته ، ودخل في صراع داخلي يكشف عن صراعه مع الجيل الجديد والحياة الجديدة وحاول ابناء شمران ان يحققوا له التكيف لكنهم فشلوا وها هو يكلم نفسه , وبدأ يفكر في ما يجب ان يقوله اذا راى السلطان يوما وخطط ان يبدأ بقوله (يا طويل العمر , الاعمار بيد الله , هذه الدينا فانية ولو دامت لاحد ما وصلت لكم ,... انا صالح الرشدان، موران كلها تعرفني بسوق الحلال عشت عمري كله , ما وصلت دابة من ثلاثين .... اربعين سنة , الا ومرت تحت يد صالح ... لكن ما يندري من هو اللي شار عليكم ان ينشال السوق من مكانه , لا بد يكون لئيم او ابن حرام , لان من ذاك اليوم والناس هاجة , كلها تقول الله لا يبارك , وهذا الله يا طويل العمر هو المنتقم الجبار , وما احد يفلت من عقابه ولو كنت بمكانك يا طويل العمر لا بد ان افتح تحقيق واعرف اللي شار والي قال وانزل به اشد العقاب , ومع ذلك هالحين يلزم تأمروا ويرجع السوق مثل ما كان" , ويفرح صالح بهذه النتيجة , ويتخيل من جديد السوق وقد عاد الى مكانه : حركة حافلة : البشر والدواب , وكل انسان لديه مايفعله او يقوله وهو لا يتلفت الى الكثير مما يجري حوله , لان العمل اكثر من ان يطيقه او يقدر عليه" (٢).

وفي حديث داخلي صريح كاشف كمال والده وباح بما يحب وما يكره في شخصية والده(٣) .

١- انظر: قصر الشوق ٣٨٢

٢- السابق ٣٩٤

٣- السابق : ٣٨٢ - ٣٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلمس في رواية الاجيال كثرة التنقل بين احداث القصة وقسوة الكاتب الواضحة على شخصياته مما يثير فينا الشفقة عليها , وكثر ة الضحايا التي تسقط في الطريق وفي اخر الشوط وتراجع شخصيات وانحدارها عبر الزمن يوازيه تقدم غير هـا وتطورهـا , ولهـذا نحس بروح حزينة وروح تشاؤمية تغشى احداث رواية الاجيال , وبهذا تستمر دورة الحياة وتظل شعلة الحياة والاجيال متقدة , فما ان يسقط جيل او شخصية حتى تولد بذره اخرى تستأنف مسيرة الحياة ولعل في هذا يكمن سر اكتمال بعض الشخصيات وان بعضها ما زال في طور النمو والبناء وثالثة لم نتلمس مظاهرها واضحة , وعمد الرواة الى تقديم الشخصيات والاحداث والافكار بعرض عدة مرايا , اذ تسلط الاضواء على شخصية معينة وربما على شخصية تناقضها , وربما تحل شخصية مكان اخرى , حسب ما يتطلبه الموقف او المشهد , وهكذا تقدم الشخصية في موقف ما كأنها مرآة ذات وجهين : تعكس احداهما صورة النموذج نفسه وتعكس الاخرى صورة اخرى لنموذج انساني مغاير يشترك مع الاول في نقطة التقاء ، فنرى السيد احمد في ثلاثية محفوظ من خلال امينة مرة , ومرة من خلاله نفسه , فكأنه واجهة عرض مزدوجة(١). وهكذا جاءت فصول الرواية ، كل فصل بمثابة لوحة مكملة للاخرى ، وصورة لكل شخصية من داخلها ، وقدم عبد الرحمن منيف الماضي من خلال لوحة زمانية ذات ابعاد : الماضي يمثله جازي الهذال اثناء مقاومته الاتراك ، والحاضر حيث تحول مجتمع وادي العيون الى مجتمع اخر , والمستقبل الذي يحمل صورة البشرى ، وحاول الربط بين الحتمية التاريخية والواقع الاجتماعي, وكان حريصا وهو يقدم رؤيا جديدة او حدثا جديدا ان يتلمس اراء معظم الشخصيات ومواقفها , المعارض منها والموافق ، يبدو ذلك في استقراء مواقف الشخصيات عامة من المنجزات الحضارية الجديدة في منطقة مختلفة ،اذ استقرأ مواقف الامراء والتجار والقادة والانسان البدوي العادي.

١-انور المعداوي : ملحمةنجيب محفوظ الروائية (١) الاداب ، عدد ٥ أيار , بيروت ١٩٥٨ ص ٢
٢-عبد الاله الرحيل : قراءة في مدن الملح , المعرفة السورية عدد٢٧٥ ك ٢, يناير ١٩٨٥ ص ١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة :

و بعد ، فقد كشفت الدراسة عن أن رواية الأجيال روايـة زمـن فـي المقـام ، تعـود أصولها الفنّية الى الرواية الأجنبية ، و قد ساهم روائيون عرب في هذا الميدان بروايات جادة صورت عدة أجيال في حقب تاريخية هامة في حياة المجتمع العربي في النصف الأول مـن هـذا القرن ، و استطاع هؤلاء النفاذ الى عقلية الأجيال و قراءة همومها و قضاياها و رصدوا معاناة بلادهم و مصيرها و منعطفات التحول في مسيرتها ، و كشفوا عن علاقـات الأجيـال فيمـا بينهـا التي تتراوح بين الامتداد و الصراع ، وهي علاقة أزلية مرهونة بوجـود الحيـاة و الانسـان ، و أن الحضارة الانسانية ثمرة جهود أجيال متعاقبة متراكمة . و كشفت الدراسة عن أن لكل جيل هموما خاصة به و أخرى مشتركة مع أجيال أخرى ، و أن استجابات الأجيال ليست واحدة اذ تختلف باختلاف الخبرة و المعرفة و الأمكنة ، و كشفت عن مواقف الأجيال ازاء الجديد و الأجنبي ، و عن التيارات المختلفة في كل جيل : تيار مرتبط بالماضي و بكل مـا يمـت اليـه ، و آخر يتطلع نحو المستقبل من غير أن يلتفت خلفه و ثالث وسط يعيد تشكيل واقعه مستعينا بالماضي و الحاضر . و توصلت الدراسة الى أن رواية الأجيـال جاءت غائبا مـن خـلال أسـرة تمثل عدة أجيال و هي صورة عن المجتمع و رمز له و أن التغير عبر الزمن لا يجـيء فجـاءة . ووقفت الدراسة أمام الزمن و أثره في الكائنات و الأفكار و الأسر و المدن و الحضارات مثلمـا بينت أثر الوراثة و البيئة و الارادة في صياغة المصير الانساني الذي يتجه أحد اتجاهين : امـا الى الخراب و التدهور و الانحطاط أو الى البناء و الانفتاح . و توصلت الدراسة الى أن التحول حقيقة انسانية أزلية أيضا و أن الانسان لديه ميل نحو التعلق بالماضي فيسعى الى تخليد نفسه ، و ان رواية الأجيال رواية أمة أو مجتمع ، وواقعية ذات اطـار تـاريخي تقـوم علـى محوريـن متعاقبين معا و تتعرض لأكثر من جيل حتى يتسنى ملاحظـة التباينـات و التحـولات فـي مسـيرة المجتمع ، و أنها لا تبتعد تأثيرا في قوالبها الشائعة عن غيرها في الآداب الأجنبية .

أرجو أن أكون قد وفقت في عرض ما سبق حول رواية الأجيال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

أ) الروايات

١) اسماعيل فهد اسماعيل . كانت السماء زرقاء . دار العودة . بيروت ١٩٧٠.

٢) اسماعيل فهد اسماعيل ، المستنقعات الضوئية . دار العودة . بيروت ١٩٧١.

٣) اسماعيل فهد اسماعيل ، السحبل . دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ .

٤) اسماعيل فهد اسماعيل ، الضفاف الأخرى . دار العودة ، بيروت ١٩٧٣

٥) سهيل ادريس ، الخندق الغميق . ط٣ ، دار الاداب ، بيروت ١٩٧٧.

٦) سهيل ادريس ، الحي اللاتيني . ط٧ ، دار الاداب ، بيروت ١٩٧٧ .

٧) سهيل ادريس ، أصابعنا التي تحترق . ط٣ ، دار الاداب ، بيروت ١٩٧٧.

٨) شريف حتاته ، العين ذات الجفن المعدنية . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤.

٩) شريف حتاته ، جناحان للريح . دار الطليعة . بيروت ، ١٩٧٤ .

١٠) صدقي اسماعيل ، العصاة (آل عمران ، الصديقان ،العصبة) ط١ . دار الطليعة . بيروت ١٩٦٤

١١) عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : التيه . ط٣ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٨.

١٢) عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : الأخدود . ط٣ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ، ١٩٨٨.

١٣) عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : تقاسيم الليل والنهار . ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٩.

١٤) عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : المنبت . ط١ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥) عبد الرحمن منيف ، مدن الملح : بادية الظلمات . ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٩.

١٦) فتحي غانم ، الرجل الذي فقد ظله (مبروكة) . الشركة القومية للتوزيع بمصر . (بدون تاريخ)

١٧) فتحي غانم ، الرجل الذي فقد ظله (سامية) .الشركة القومية للتوزيع بمصربدون تاريخ .

١٨) فتحي غانم ،الرجل الذي فقد ظله (ناجي) . الشركة القومية للتوزيع بمصر بدون تاريخ

١٩) فتحي غانم ، الرجل الذي فقد ظله (يوسف) . الشركة القومية للتوزيع بمصر بدون تاريخ.

٢٠) محمد ديب ، الدار الكبيرة . ط٣ ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١.

٢١) محمد ديب ، الحريق ط٣ . دار الوحدة للطباعة والنشر . بيروت ١٩٨١.

٢٢) محمد ديب ، النول . ط٣ ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١.

٢٣) نجيب محفوظ ، بين القصرين . مكتبة مصر ، القاهرة (بلا تاريخ) .

٢٤) نجيب محفوظ ، قصر الشوق ، مكتبة مصر ، القاهرة (بلا تاريخ).

٢٥) نجيب محفوظ ،السكرية . مكتبة مصر ، القاهرة (بلا تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) المعاجم

١- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب . دار صادر . بيروت ١٩٦٨.

٢- د . محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع . دار المعرفة . الاسكندرية . ١٩٨٨.

٣- نخبة من المتخصصين ، معجم العلوم الاجتماعية : مراجعة ابراهيم مدكور . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : المراجع

أ) مراجع عربية

١- د. ابراهيم السعافين ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ١٩٧٠ - ١٩٦٧ منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٠.

٢- د. احمد ابراهيم الهواري ، البطل المعاصر في الرواية المصرية . ط٣ ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٦.

٣- د . احمد سيد محمد ، الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب ، دار المعارف . القاهرة ١٩٨٥.

٤- د . احمد محمد عطية ، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ، منشورات وزارة الثقافية والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٧.

٥- د . أحمد محمد عطية ، مع نجيب محفوظ . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧١.

٦- توفيق الحكيم ، فن الأدب . مكتبة الشابوري بالحلمية الجديدة ، (بدون تاريخ) .

٧- جمال الغيطاني ، نجيب محفوظ يتذكر ، ادارة الكتب والمكتبات ، القاهرة ١٩٨٧.

٨- جورج طرابيشي ، عقدة أوديب في الرواية العربية . ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت ١٩٨٢.

٩- د . حسام الخطيب ، سيل المؤثرات الأجنبية واشكالها في القصة السورية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، دمشق ١٩٧٣.

١٠- د. حلمي بدير ، الاتجاه الواقعي في الرواية العربية الحديثة في مصر . ط١ . دار المعارف ، لقاهرة

١١- حنا مينا ، حوارات وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية . ط١ . دار الفكر الجديد ن بيروت ١٩٨٢.

١٢- سليمان الشطي،الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ . ط١ . ١٩٧٦.

١٣- د. السيد عبد العاطي السيد ، صراع الأجيال : دراسة سوسيولوجية لثقافة الشباب . دار المعرفة الجامعة . الاسكندرية ١٩٨٧.

١٤- سيزا قاسم ، بناء الرواية . دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥- عبد الرحمن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون .ج٢ تحقيق علي عبد الرحمن وافي . ط١ لجنة البيان العربي . ١٩٥٨ .

١٦- د. عبد الرحمن منيف ، الكاتب والمنفى .ط١ . دار الفكر الجديد . بيروت ١٩٩٢.

١٧- د. عبد المحسن طه بدر ، الرؤية والأداة : نجيب محفوظ . ط٣ دار المعارف القاهرة ١٩٨٤.

١٨- د. علي الراعي ، دراسات في الرواية المصرية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

١٩- د. غالي شكري ، العنقاء الجديدة : صراع الأجيال في الأدب المعاصر ط١ دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٧.

٢٠- د. غالي شكري ، المنتمي ، دراسات في ادب نجيب محفوظ . ط٤ . منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت (بلا تاريخ).

٢١- د .غالي شكري ، مذكرات ثقافة تحتضر . ط١ دار الطليعة للطباعة النشر ، بيروت ١٩٧٠.

٢٢- فاطمة الزهراء محمد سعيد ، الرمزية في ادب نجيب محفوظ . ط١ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١.

٢٣- د. محمد زغلول سلام ، دراسات في القصة العربية الحديثة . مكتبة المعارف . الاسكندرية (بلا تاريخ).

٢٤- د . محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن . ط٣ . نشر مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة . (بلا تاريخ)

٢٥- د . محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث . دار العودة . بيروت ١٩٧٣.

٢٦ - د . محمد يوسف نجم ، فن القصة . ط٥ . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٦.

٢٧- نبيل راغب ، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

٢٨- يوسف الشاروني ، الروائيون الثلاثة : نجيب محفوظ . يوسف السباعي محمد عبد الحليم عبد الله . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) كتب مترجمة :

١- إدوين موير ، بناء الرواية . ترجمة ابراهيم الصيرفي . مراجعة د. عبد القادر القط . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة (بلا تاريخ) .

٢- بيرسي لوبوك ، صنعة الرواية : ترجمة عبد الستار جواد . وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد للنشر بغداد . (بلا تاريخ) .

٣- بول ويست ، الرواية الحديثة : ج١ . ترجمة عبد الواحد محمد . وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨١.

٤- ج. جوميه / ثلاثية نجيب محفوظ . ترجمة نظمي لوقا ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٧٤.

٥- ر.م ألبيريس ، تاريخ الرواية الحديثة : ترجمة جورج سالم ط١ . منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٧.

٦- هانزميرهوف، الزمن في الأدب . ترجمة د . أسعد رزوق نشر مؤسسة سجل العرب ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . القاهرة ، نيويورك ١٩٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الدوريات

١- أنور المعداوي ، ملحمة نجيب محفوظ الروائية (١) . الآداب ، عدد ٤ ، نيسان بيروت ١٩٥٨.

٢- زكي نجيب محمود ، العرب ومعنى التحول : من حضارة اللفظ الى حضارة الأداء . مواقف ، عدد٤ ، ايار ، حزيران ، بيروت ١٩٦٩.

٣- صوفي عبد الله ، المرأة المصرية في ثلاثية اجيال عند نجيب محفوظ . الهلال عدد٦٦ ، يونيو ١٩٧٤.

٤- د. عبد الرحمن بدوي ، الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب . عالم الفكر ، عدد٢ ، الكويت ١٩٧٠.

٥- عدنان بن ذريل ، في الرواية الوجودية . مجلة الأديب ، ج١١، بيروت ١٩٧٣.

٦- علي أدهم ، صراع الأجيال . الفكر المعاصر ، عدد ٧ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠.

٧- علي حرب ، اضواء تراثية على مرحلة الشباب : تعاقب الأجيال في المنظور الخلدوني . الفكر العربي ، العددان ١٧ ، ١٨ ، طرابلس ، بيروت ١٩٨٠.

٨- د . ماهر حسن فهمي ، ثلاثية نجيب محفوظ . حوليه كلية البنات ، جامعة عين شمس آذار ، بيروت ١٩٦٣.

٩- د. محمد غنيمي هلال ، المؤثرات الغربية في الرواية العربية . الآداب ، عدد٣ ، آذار ، بيروت ١٩٦٣.

١٠- نازك الملائكة ، الخندق الغميق ؟ الآداب ، عدد٣ ، آذار ، بيروت ١٩٦٠.

١١- د. نايف بلوز ، الشيوعية والثورة : صراع الأجيال وصراع الطبقات دراسات عربية ، عدد١٢، ١٩٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حلم الاساطير ليواجه الحقيقة المجرده وصرع الجهل وبذلك انفتحت له السبل المؤدية الى الله والعلم والجمال "١" حين كتب كمال مقالته "أصل الانسان" التي شرح فيها نظرية داروين استدعاه السيد احمد وفكر في ان يكلف الشيخ متولي بأعداد حجاب ، اذ كان دهش لما قرأه وسمعه من تعليقات من ابناء جيله . وحاوره بهدوء ينم عن سخرية أحيانا . خاطبه بـ "ياستاذ " اكثر من مره مما ينم عن تطور في المعاملة وخلال المقابلة لعن السيد العلم والعلماء والانجليز وعلومهم . وهكذا شكل الفكر الذي حمله هذا الجيل تمردا على معتقدات الجيل الماضي وتناهى الى اسماع السيد أبناء عن شباب اليوم من تلاميذ اعتادوا التدخين , وآخرين يعبثون بكرامات المدرسين وغير اولئك تمردوا على آبائهم , ودقق بسياسة الحازمة الصارمة مع الجيل الجديد , ياسين تدهور واضمحل وها هو كمال يناقش والده ويجادله ويحاول التخلص من قبضته ونصب من نفسه واعطاء فقال السيد لا أملك الا النصيحة , وما من احد خالف نصيحتي وسلم , ياسين شاهد على ذلك , والمرحوم نصحته والقى بنفسه الى التهلكة , ليكن موقفك من علم الانجليز كموقفك من احتلامهم وهو عدم الاعتراف بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة "٢" وهكذا فأن الماضي يقف موقف الناصح الواعظ : ونسي حقيقة ان الحرية دربها درب الشهداء وان البعث سبيله الموت .

وعلى الرغم من التحرر الفكري من عقلية الاساطير الى عقلية العلم , فقد ظل هذا الجيل يخاف من الجيل الأب علاقته به ما زالت مبنية على الرهبة فعندما عاد كمال مع فهمي ليلا عاد والخوف يطارده وهو يقول ارجو ان اصل الى البيت قبل ابي الخوف شر انواع التعاسة، فلتعش الثورة لتسقط الزوجة المستبدد ليسقط الأب المستبد"٣" وهو يرى في هذا السلوك شكلا من اشكال التحرر والتمرد فلم يخجل منه حد فسأله عن سبب التأخير فكان جريئا في المواجهة جراءة العارف الواعي فقال :"أخرني الذي أخرك "٤" ولاذ بالكذب وبتغيير الحقيقة الذي صار في هذا العائلة ملاذا للنجاد فقال والده :"لم لم تستأذنني؟" ثم دخل بعد ان نال نصيبه من الشتائم والذم ، وقال لوالدته مستنكرا "اذا كان السهر يستوجب هذا الاستنكار فلماذا يواظب عليه؟" "٥" وظل يتساءل الى متى يظل اسير خوف والده هذه القوة الجبارة التي يخافها ويحبها ما كنهها ؟ الى متى يظل يذعن لقوة

١- قصر الشوق ٣٥٠
٢- السابق ٣٤٩
٣- السابق ٣٨١
٤- قصر الشوق ٣٨١
٥- السابق ٣٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخوف؟ لماذا يخاف من ابيه وهو الذي لم يخفه الاعداء؟ فقد قرعت يده مقر عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدت الملك وهو يهتف "سعد او الثورة" فتراجع الملك وأستقال سعد من الوزارة اما حيال والدة فيصير لا شئ , كل شئ تغير مدلوله ومعناه : الله , آدم , عابدة , الخلود , وبعد ان عجز عن مجاهرته لوالده الذي يحبه لأ يحدث نفسه بحديث نفسي داخلي وتمنى ان يعيش الانسان في عالم حر بلا خوف ولا إكراه [١] و تحولت القيم في نظره , فالعظمة التي رآها في شخص والده صارت لاشئ، قياسا الى مثله العليا[٢] ودافع السيد احمد عن ابنه كمال حين سخر منه بعض اصدقائه، مثلما دافع عن ياسين حين هاجمه ازهري , وذلك جانب من شخصيته السرية التي كانا يسمعان بها .

وتطورت علاقة كمال بوالده في "السكرية" اذ صارت ندية , فقد بلغ كمال تسعة وعشرين عاما , ولعب الزمان دورا في هذا التغير، وبارك السيد أفعال كمال باسلوب غير مباشر فحين دخل كمال الى حيث يجلس والده ساله بهدوء وتقدير "اين كنت يا استاذ؟ مع الاصحاب هل شهدت المؤتمر الوفدي؟ نعم وسمعت خطبة مصطفى النحاس , كنت مدعوا لكن الصحة لا تحتمل التعب"[٣] وتطور اعتزاز كمال برأيه , وامتلك حق تقرير مصيره وخالف جهارا رأي والده وأفكاره , وتكشفت حقيقة كمال امام والده , اذ اخبره عبد الرحيم انه شاهد كمالا يدخل بيت جليلة فذهل السيد وخشي ان تعرف انه ابنه او ان يعرف انها صاحبته وعشيقته "[٤] ولقد صدق توقعه , إذ تكشفت حقيقة في وقت سابق فقال كمال " ليته أعطانا من لطفه نصيبا "[٥] وعلق على ذلك عبد الرحيم بقوله "من شابه اباد ما ظلم" [٦] وانتهى الاثنان اخيرا الى الصداقة وتغيرت صورته في ذهنه صار صديقا له مثلما صار صديقا لشقيقه ياسين , صار يتشوق اليه بعد ان اقعده المرض مات رفقاء دربه ابناء جيله , ويتودد الى كمال ويتجنب مضايقته ويقول باسف "اعزب في الرابعة والثلاثين" وصارا يتحاوران حول الزمان وفعله[٧] وتكشفت له صورته عن صديق جديد حبيب وانسان آخر بدأ مشوار معه بالخوف منه وانتهى بالخوف عليه "[٨] .

١- السابق ٢٤٥
٢- بالسابق ٤٢٤
٣- السكرية ١٢
٤- السابق ١٣, ٤٥ , ٤٦
٥- قصر الشوق ٣٧٥
٦- السكرية ٤٧
٧- السابق ٢٠١ , ٢٠٢
٨- السابق ٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجيل الثاني : حاضر متحول

١- أسرة ياسين

لا نستطيع القول ان هذا الجيل تخلص من معتقدات الجيل الماضي وتقاليده ومواقفه وممارساته . وعلى الرغم مما بدا من تباين فقد حمل هذا الجيل معه مخلفات جيل سبق لا سيما في ما يتعلق بموقفه من المرأة . اذ ظل يرى فيها جسدا وأمرأة بيت . ما عليها الا الطاعة والامتثال لأوامر سيدها الزوج . مما يشير الى ان التغير يحتاج الى زمن ولا يجيئ دفعة واحدة . تزوج ياسين ثلاث مرات جريا وراء الحقيقة وهروبا من الملل الذي كان يحس به في اعقاب كل زواج . كان يبحث عن التوازن والتكيف والأسرة بعد ان عانى من مرارة ما خلفه له تاريخ والدته . وهو بهذا يصور التحولات المجتمعية المختلفة التي افقدت هذا الجيل الاحساس بالانسجام والاستقرار فعانى الحيرة وسلك دروبا كثيرة بحثا عن الحقيقة التي يروي فيها ظمأه وهدوء نفسه الممزقة القلقة . غير أنه ظل حائرا ممزق النفس ضائعا . لم تهدأ روحه بأشباع رغبات جسده . وكلما ظن انه اقترب من النهاية اكتشف انه ما زال بعيدا عن الحقيقة والهدوء واستقرار الروح . تزوج ياسين وأدرك ان الزواج خيبة مريرة غير ان هذا الجيل شهد تطورات في وعي المرأة قياسا لواقع المرأة في الجيل السابق . اذ استطاعت ان تحاور وتطالب بحقوقها وتبدي مواقفها بعد زواج ياسين الأول تذمر في احدى ليالي أبدت زينب معارضتها لذلك فرد عليها بقوله الذي لا يختلف بشئ عن موقف الجيل الأول من المرأة البيوت للنساء والدنيا للرجال هكذا الرجال جميعا . والزوج المخلص يحافظ على زوجة وهو قريب منها وبعيد عنها وأنني بالسهر أروح عن نفسي"[١] تلك هي عقليته المتحددة اليه من والدة والمتأثرة ببيئة الشرقي عامة . عقلية ترى الاب محور الأسرة . ولهذا كانت علاقة امينة بزوجها مثالية الرائع الذي يتوق الى تحقيقه . فشله في تحقيق التوازن من اسباب حيرته وتمزقه . قال لزوجه ذات مرة " أنظري الى امرأة ابي . هل رأيتها اعترضت يوما على تصرفات والدي وهما زوجان سعيدان . وأسرة مطمئنة "[٢] وقد أثبتت الزوجة انها عاقلة ومن طراز أمرأة ابيه . لاسيما انها في بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة وظل ياسين يحن الى تكوين اسرة فهي الملجأ والحصن الذي يوفر السكينة والاستقرار ويتمنى لو يكون كوالدة وان يحظى بأمرأة آية في الطاعة والقناعة ويرى ان والده موفق في زواجه وهو اه . غير أنه أصيب بالملل بعد زواجه الثاني مثلما اصيب به بعد شهر من زواجه الأول من زينب ، وفي الجمال ملل اذا ابتذلته العادة والألفة فيم تطمع اية امرأة وراء البيت الزوجي و الارتواء الجنسي ؟ .. لا شئ .. أنهن حيوانات كالحيوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن ، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة

١- بين القصرين ٣١٧
٢- السابق ٣١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالحيوانات الاليفة ينبغي ان يعاملن ، أجل لا يجوز للحيوانات الاليفة ان تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى تفرغ لمداعبتها ,ان اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت , منظر واحد , وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرر وتكرر"[١] غير أن المرأة قد تطورت قياسا الى ما كانت عليه , فبعد ان ثأر والد زينب لكرامتها وطلب الطلاق ثارت مريم لكرامتها على الرغم من فسادها ,ورفضت ان يمارس زوجها وعلى فراش الزوجية الشذوذ مع ساقطة اخرى فضربت بابه وصرعته وسقط على الارض كالبناء المهدم "[٢] .

ومثلما كان والده "الزوج" مثاله فقد كانت أمينة مثال الزوج التي يطمح اليها , قال لزوجه وهو ينظر الى امينة "بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعشرة , اين هن ستات الأمس؟"[٣] ووقف الموقف نفسه من حرية المرأة فيما يتعلق بتعليمها وعملها , وهو موقف ممتد اليه من جيل والده . غير ان تطورا حدث في هذا الجيل، فالجيل السابق عارض تعليم الفتاة ما بعد الابتدائية "[٤] اما هذا الجيل فقد سمح بالتعليم حتى المرحلة الثانوية وعارض ان تعمل , ورفض ان تلتحق ابنته كريمة بالثانوية لأنها لن تعمل , وهو رفض متصل بالأسرة واشبه ما يكون عقيدة "لن تلتحق ولن تتوظف وهذا يقال في اسرتنا ولو عام ٢٠٣٨"[٥] ولم تملك ابنته كريمة سوى ان تأسف لعدم التحاقها بالثانوية , فقالت المسألة تتوقف على الآباء حقا "[٦].

ومن القضايا والمفاهيم التي ظلت حية في ذهن هذا الجيل وفي الجيل السابق مفهوم الرجولة , ومعاييرها , فقد احسن ياسين أنه يتمتع برجولة نم عنها منظره , وهي رجولة مفعمة بالفحولة "[٧] فالتقدم بالعمر واحد من معايير الرجولة "انا لست غلاما بل صرت رجلا وأخاف ان ينفجر الغضب بي"[٨] فرجولته تأبى عليه ان يواجه والدة بالغضب

١-بين القصرين ٣٢٢
٢- قصر الشوق ٢٨٧
٣- بين القصرين ٣٧٤
٤-السكرية ٩
٥-السابق ١٦٦
٦-السابق ١٣٩
٧-السابق ٥٢
٨- السابق ٢٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثلما تأبى علية ان يتحمل الاهانة اذا تجاوزت الحدود المعقولة لا سيما ان والده ناري الغضب ينفجر بسرعة ,لا يقبل المراجعة , وتؤهله الرجولة ,والدخول في مغامرات نسائية , فقد اعجب بوالده وهو يقص على فهمي مغامرات والده بقولة "حقا انه رجل"[١] ومن الرجولة ان يملك الرجل تقرير مصيره واسرته، فقد ثار على والده حين بلغه نيته بطلاق زينب "لم أعد طفلا بل رجلا مثلك"[٢] وهي ترتبط بالزمن والعمر وحمته من قسوة والده ومنعه استوازه رجلا وزوجا من الضرب "[٣] وترتبط بقيم الوفاء والصدق والكرامة فقد قال له والده معارضا خطبة مريم لياسين إذا وعدتني بوعد رجل سأزوجك وسأختار لك "[٤]، ولعب هذا المفهوم دوره الفاعل في صياغة مصيره وتوجيهه ولكم تمنى السيد ان يتمتع بنوه بالرجولة حتى لو كانوا صغارا .

اما علاقة ياسين بأبنائه فتختلف عن علاقة السيد بأسرته ، اذ قامت على نقيضها قامت على الصراحة والصداقة والود والاحترام ، وشاع جو الحرية بين ابناء الأسرة، كان عندما يعود ليلا تستقبله زنوبه التي وجدت اخيرا في الأسرة ملجأ حققت فيها توازنها وتكيفها . قامت بدور السيدة المحترمة ، وقارت بأحترام "بين القصرين" وعلمتها الايام التحلي بالصبر والمهارنة, ولم يكن يطيق ان يمثل لهم الدور القاسي الذي مثله ابوه حياله وكره ان يخلق لهم شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو ابيه , ساء جو الحرية ارجاء البيت وشارك اعضاؤه في الحوار، وساعد رضوان والده في بناء نفسه بمساعدته في الترقية "٥" مثلما ساعد السيد احمد ابنه ياسين في وقف النقل الى الصعيد مما يشير الى ما في المجتمع من فساد اداري في الاجهزة الرسمية , وفاقت منزلة رضوان في العمل منزلة والده"٦" وحين أبدت كريمة أسفها لعدم التحاقها بالثانوية احتجت خديجة على اسلوبها في الحديث مع والدها اذ أنتقلت من واقع خبرتها مع والدها الذي لم يكن يسمح بذلك في بيته . قالت خديجة تخاطب كريمة بأسلوب استنكاري اهكذا تتعامل البنت الطيبة مع ابيها , اهكذا كانت عمتك تتحدث مع جدك؟"٧" مما جعل ياسين يحتج على اعتراض خديجة . مؤكدا انه يسمع بهذا الاسلوب ويبرره بقوله انا الأب الصديق الذي لا احب ان يرتعد ابنائي خوفا في

١-السكرية ٢٦٣
٢-السابق ٣٨٨
٣- السابق ٢٦٧
٤- قصر الشوق ١١٧
٥- السكرية ٦١ , ٦٦
٦- السابق ١٧٥
٧-السابق ١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محضري انا حتى اليوم ينتابني الارتباك امام ابي[١] ويدعم اتجاه الحرية هذا ويؤكده رأيه في زواج احمد من خديجة من سوسن حماه اذ قال لخديجة :انهم يرون أنفسهم خيرا منا وأذكى , اذ كان لا بد من الزواج فليتزوج , فان سعد نبها والا فهو المسؤول وحده .. فعسى ان يكون الخير فيما اختار[٢] وايده كمال بذلك , وهكذا كشفت شخصية ياسين صراع الاجيال من الوجهه الاجتماعية وعن معاناة ذلك الجيل في ظل التغيرات الاجتماعية . وبينت لنا موقفه من بعض القضايا التي كانت مطروحة في تلك الحقبة من التاريخ المصري كموقفه من المرأة وحقها في التعليم والعمل , وما يتعلق بحريتها ومطالبتها بحقوقها . وبين لنا ياسين من خلال سيرته واسرته ما طرأ من تحول وتغير على هذا النسيج الاجتماعي وما حققت عبر الفترة التي تفصلها عن نموذج الأسرة في الجيل الأول . ويمثل ياسين من بعض الجوانب بعض النسخ العقلية التي عاشت في جيله واكتفت بقسط قليل من التعليم "[٣].

١- السابق ١٧٩

٢- السابق ٢٦٩

٣- انوار المعداوي : ملحمة نجيب محفوظ الروائية "١" الاداب سنة ٦ عدد ٤ نيسان , بيروت ١٩٥٨ص١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- أسرة خديجة وأسرة عائشة

تغيرت معاملة السيد احمد لابنتيه عما كانت عليه قبل الزواج . فقد حققت المرأة المصرية في المجتمع تطورا ملحوظا قياسا الى ما كانت عليه في الجيل الأول ، فاسرة خديجة التي ورثت عن أبيها سلطته القوية وارادته المطلقة، وطبعه الحار واستبداده صورة معكوسة لأسرة السيد احمد، اسرة محورها الام في حين ان اسرة والدها ابوية وهي صاحبة الكلمة النافذة في البيت ، ولم يستطيع زوج خديجة ان يحمي نفسه وابناءه"١" ووالدته من خديجة على نقيض ما كان عليه موقف امينة من والدة زوجها مما دفع والدته الى مخاطبة ابنها ابراهيم انت رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك وجزاؤك الحق ان تحرم من طعامي الى الابد"٢" لم يمتلك هذا الزوج ازاء اختلافات خديجة مع والدته سوى موقف المشاهد المحايد , لم يملك ارادته وقيدت حريته وهددته بمغادرة البيت , فحين ابلغها ان اباها منبع الانس ولا يخلو مجلسه من الخمر ضحك فقالت له ماذا تعني بهيء هيء ؟ ألا يهتم قلبك لشيئ في الدنيا؟"٣" والواقع انها صورة والدها ازاء اسرته , ورثت عنه طبائعه الحادة واستبداده , ورأى كمال في ممارستها صورة من جبروت والده . قال لزوجها "كأنك تخافها" ٤" وامتدت سلطتها اذ أجبرت زوجها على ان يتنازل عن حصته في حقه المشروع في ميراث اخيه الى نعيمة فآل الميراث الى عائشة ونعيمة "٥" وطوعته على احترام تعاليم الدين وتشب ابناؤها على ذلك , وهي تتباهى ان سر نجاح ابنيها هي لا زواجها وهي صاحبة الكلمة النافذة في القضايا المشتركة مع اسر اخرى ولم تسلم منها شقيقتها عائشة اذ احتجت على مظاهر الحرية التي بدت في سلوكها .

وهكذا فقد نصبت من نفسها حامية لقيم والدها وممارساته وسلوكه , طبقتها في بيتها وحاولت تطبيقها في بيت عائشة وهي بيئة جديدة غنية قياسا الى بيئة السيد احمد , وقد خاضت مشكلات كثيرة مع والدة زوجها طالبتها فيها باستقلالها وحقا نالت ذلك مما دفع عائشة الى القول فأنت سيدة مستقلة عقبى لمصر"٦" معيرة بذلك عما تطمع اليه مصر, وترى في والدها المثال وقارنت بينه وبين زوجها فقالت خديجة بجد "هل تظنين انه يوجد

١- قصر الشوق ١٦٩
٢- السابق ٣٤
٣-السابق ٢٣٦
٤-السابق١٦٩
٥- السابق ٣٥
٦- السابق ٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رجل مثل ابي في الدنيا؟ ". وهكذا فان المرأة تفضل ان تكون شخصية الأب قوية . اما اذا كانت ضعيفة فعلى الأم ان تكون أبا، وهي توحي بذلك بصورة الأب المثال السائدة لدى ذلك الجيل ، فحين احتجت عائشة على تصرفاتها وقارنتها بموقف والدتها من ابنائها ردت خديجة "الأن بابا كان هناك ، اما عندي او عندك فالأب غير موجود ، اب بالإسم ، اذ كان الأب اما فعلى الام ان تكون ابا "٢". وقد نصحها زوجها ابراهيم ان تداري ضعف والدته احتراما لكبر سنها ووقفت أمينة منها موقف الناصح مع ادراكها لسنة التغير عبر الزمن . وظلت تحمل تقاليد والدها وتدافع عنها ، حتى معيار جمالها "السمنة". ظل كما كان لدى الجيل الماضي"٣" فظلت تهتم بصحة ابنائها مثلما كانت امينة تهتم بصحة اسرتها وتبنت راي والدها في قضية تعليم البنات , مما يشير الى ان الجيل الأول لم ينته بموته , بل مثله نفر من الجيل الجديد الثاني وناضح عن الماضي . فهي تعتقد كوالدها ان لا داعي لتعليم البنت طالما ان نهايتها البيت, ولهذا ابدت كريمة اسفها لعدم التحاقها بالمدرسة , فلا حاجة لها لقراءة ولا لكتابة ما دام انها لا تكتب رسائل حب وغرام, في حين ان بعض الفتيات كن يتعلمن"٤" .

واخيرا حصلت المرأة المصرية ذات الشيرة والثقافة على حقها واحتلت مكانة مميزة وصارت صاحبة ارادة وحق في تقرير مصيرها ندخل الآن اعماق اسرة الجيل الثاني ، نطلع على علاقة الابوين بالابناء ونقارنهما بعلاقة الاباء بأبنائهم لدى الجيل الأول.

فالجديد لدى شبان الجيل الجديد كما يراه ابراهيم الأب , أن السياسة غيرت كل شئ , كل له مريدود, والطموح لا بد له من كبير يرجع اليه وتمنى ابراهيم لو ان ابنيه مثل رضوان , فهو متصل بكبار الساسة غير انه يفضل ان يشق طريقة دون تقليد ووافقته خديجة على ذلك وظلت خديجة تتبنى عقلية والدها الاستبدادية في فرض ارائها على ولديها

١- قصر الشوق ١٧
٢- قصر الشوق ٤٥
٣- السابق ٢٤
٤- السابق ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رجل مثل ابي في الدنيا؟ " وهكذا فأن المرأة تفضل ان تكون شخصية الأب قوية , اما اذا كانت ضعيفة فعلى الأم ان تكون أبا، وهي توحي بذلك بصورة الأب المثال السائدة لدى ذلك الجيل ، فحين احتجت عائشة على تصرفاتها وقارنتها بموقف والدتها من ابنائها ردت خديجة "الأن بابا كان هناك ، اما عندي او عندك فالأب غير موجود ، اب بالإسم ، اذ كان الأب اما فعلى الام ان تكون ابا "[٢] وقد نصحها زوجها ابراهيم ان تداري ضعف والدته احتراما لكبر سنها ووقفت أمينة منها موقف الناصح مع ادراكها لسنة التغير عبر الزمن ، وظلت تحمل تقاليد والدها وتدافع عنها ، حتى معيار جمالها "السمنة", ظل كما كان لدى الجيل الماضي"[٣] فظلت تهتم بصحة ابنائها مثلما كانت امينة تهتم بصحة اسرتها وتبنت راي والدها في قضية تعليم البنات , مما يشير الى ان الجيل الأول لم ينته بموته , بل مثله نفر من الجيل الجديد الثاني ونافح عن الماضي , فهي تعتقد كوالدها ان لا داعي لتعليم البنت طالما ان نهايتها البيت, ولهذا ابدت كريمة اسفها لعدم التحاقها بالمدرسة , فلا حاجة لها لقراءة ولا لكتابة ما دام انها لا تكتب رسائل حب وغرام, في حين ان بعض الفتيات كن يتعلمن"[٤] .

واخيرا حصلت المرأة المصرية ذات الخبرة والثقافة على حقها واحتلت مكانة مميزة وصارت صاحبة ارادة وحق في تقرير مصيرها ندخل الآن اعماق اسرة الجيل الثاني . نطلع على علاقة الابوين بالابناء ونقارنهما بعلاقة الاباء بأبنائهم لدى الجيل الأول.

فالجديد لدى شبان الجيل الجديد كما يراد ابراهيم الأب , أن السياسة غيرت كل شئ , كل له مريدود, والطموح لا بد له من كبير يرجع اليه وتمنى ابراهيم لو ان ابنيه مثل رضوان , فهو متصل بكبار الساسة غير انه يفضل ان يشق طريقة دون تقليد ووافقته خديجة على ذلك وظلت خديجة تتبنى عقلية والدها الاستبدادية في فرض ارائها على ولديها

١- قصر الشوق ١٧
٢- قصر الشوق ٤٥
٣- السابق ٢٤
٤- السابق ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، اذ حاولت إجبار ابنها احمد أن يقبل الوظيفة "١"، ذلك انها كوالدها تفضل الوظيفة على غيرها شانها شأن عقلية ذلك الجيل . لكن هذا الجيل الجديد رفض اراء الجيل الماضي المتمثلة باراء السيد احمد والممتدة بابنته خديجة ، وعمل ابنها احمد في الصحافة عنوان الحرية وسبيلها، وهكذا فأن شخصية خديجة تجسيد لعقلية الجيل الماضي ، مما يشير ان المجابلة ليست زمانية فحسب ، اذ قد يلتقي شيخ مسن مع معتقدات ابنه فيشكل الاثنان جيلا فكريا واحدا على ما بينهما من اختلاف في العمر ، ومن هذا المنطلق عارضت خديجة زواج ابنها احمد من سوسن حماد حفاظا على سمعة الأسرة واحتجت على رفض الجيل الجديد وتمرده وعدم قبوله بأن يحكمه احد ، على غير ما كان عليه واقعها في اسرة والدها ما هذا البلاء؟ انت لا ترضى ان يحكمك احد لو كان اباك, وتأبى المشورة ولو كانت في صالحك , دائما انت على صواب والناس على خطأ"٢" وهكذا فسيرته رفض و ثورة ، ثورة على ارادة بيئته الأسرية وتأكيد لوجوده وحريته ومعتقداته فقال مداعبا انتبهوا جميعا انها سمعة اسرة وانا على أي حال ابنكم والأن اريد ان اتزوج وعقلي اختار لي والمشورة جائزة في كل شأن إلا الزواج"٣" ويشير بقوله السابق الى مساحة الحرية التي حققها هذا و الجيل والى معتقدات ذلك الجيل الذي يرى ان الزواج ليس اختيارا فرديا وأرادة ذاتية بل هو زواج اجتماعي له ابعاد اقتصادية وهذا .ما تعتقده خديجة , واحتجت خديجة على سوسن حماد التي تمثل مرحلة متقدمة لأجيال المرأة , ذلك الجيل الذي حقق الحرية على غير ما رأينا في نموذج خديجة التي ترى أنه لا عمل سوي للمرأة القبيحة او المسترجلة، وترى ان الموظفة لا يمكن ان تعد امرأة صالحة , وانطلاقا من نظرتها الاجتماعية والاقتصادية للزواج فقد عارضت بشدة زواج ابنها احمد من سوسن حماد التي يسكن اهلها في طابق ارضي , وهي تتمنى لو انها تخطب لإبنها هي مثلما خطبتها والدة ابراهيم لأبنها"٤" واحتجت كذلك على مظاهر نشاط ابنها في الطابقين العلويين وعلى افواج الزوار الذين يدخلون البيتين , اما ابراهيم فقال لها : كل واحد حر في بيته"٥" وكان ابناها احدهما ينتمي الى الحزب الشيوعي والأخرينتمي الى الاخوان المسلمين.

أما موقف ابراهيم الذي كان من جيل السيد أحمد تقريبا و من عائلة غنية فقد كان أكثر سماحة و تحررا من السيد أحمد و من خديجة نفسها ، بحكم الطبقة التي ينتمي

١- السكرية ٢٠٤
٢- السابق ٢٦٨
٣- السابق ٢٦٨
٤- السابق ٢٦٨ ، ٢٦٩
٥- السابق٢٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اليها , مما يشير الى ان الأجيال تتأثر بالطبقة ايضا , فطبعه من طبع آل شوكت "١" فالطبقة الأرستقراطية تتمتع بحرية اكبر مما يتمتع به الجيل نفسه من الطبقة الوسطى وقد اتاح ابراهيم لابنه احمد حرية اختيار الدراسة اذ قال له "فكر قبل ان تقدم ما زلت في السنة الرابعة وأنت حر فيما تختار،درس ما تشعر انه يوافق موهبتك"[٢], مصارحة عبد المنعم لوالده رغبته في الزواج بعد اقتناع فكري قياسيا الى موقف فهمي من والده السيد احمد حين أبدى برغبته لوالدته في خطبة مريم, حجم التغير وجو الحرية الذي تمتع به هذا الجيل الثالث , فقد طلب عبد المنعم الاختلاء بوالده وحدثه بعد ان جلسا جنبا الى جنب "اريد ان اتزوج"[٣] وترك لوالد حرية اختيار الفتاة وانصاع الاب بعد ان اقتنع بوجاهة الاسباب ،وسلمت خديجة اخيرا بمبدا الزواج وادركت ان والدها سيحتج على هذا "اللعب" فقال لها ابراهيم "سيرحب بذلك دون شك " كل شي يبدو كالحلم،ولكن لن اندم،اني مؤمن ان تجاهل رغبة عبدالمنعم خطا لا يغتفر ما دام في الإمكان تحقيقها . و اختار عبد المنعم نفسه امرأته الثانية كريمة بنت رضوان في أعقاب وفاة السيد أحمد بثلاثة شهور مما يخالف الذوق العام ، على الرغم من أن والدتها ذات سيرة أخلاقية منحرفة زنوبة ذات الماضي المؤلم ، و من معارضة خديجة ، مما يشير الى التقدم الأكبر في ميدان الحرية، و أخيرا قال عبد المنعم لوالديه "أعلماني رأيكما" و أبدى أحمد رأيه في هذا الجيل من الطبقة الوسطى اذ قال "هذه الطبقة البرجوازية كلها عقد تحتاج الى محلل نفساني ليشفيها من كافة عللها محلل له قوة التاريخ نفسه ، لو هادنني الحظ لسبقت أخي الى الزواج " و لكن البرجوازية محورها المال و الوسطى محورها العادات و التقاليد و تشير الى أن تطور الفتاة لا سيما غير المثقفة في الطبقة الوسطى متخلف ، فحين سأل عبد المنعم نعيمة عن رأيها في زواجها من فؤاد الحمزاوي قالت"لا رأي لي، دعني وشأني"[٤] فقال احمد اشهد أن اسرتنا متأخرة عن العلم الحديث اربعة قرون"[٥] فالجرأة والحرية من سمات هذا الجيل ، آبازهم

١- قصر الشوق ٣٨
٢- السابق ٢٥، ٢٦
٣- السابق ١١٧
٤- السكرية ٢٩
٥-السابق ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اكثر سماحة من أباء والديهم . اما عائشة فقد تكيفت مع آل شوكت واكتسبت طباعهم وتمتعت بحرية لم تتمتع بها في بيت والدها ، وهي مثال على قانون البيئة وجانب من شخصية السيد احمد انصهرت عبر الزمن ، في حين ان خديجة تمثل الجانب الممتد الباقي ، وعلى هذا النحو فأن الانسان وعبر رحلته في الكون يحمل معه الى الاجيال اللاحقة بعض معتقداته ومكتسباته وخبراته مثلما يسقط بعضها في الطريق و يصبح الجديد قديما وتستمر رحلة الحياة بفضل قوانين مختلفة فمثلت عائشة قانون البيئة ، ومثلت خديجة قانون الوراثة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - كمال أزمة جيل

تأثر كمال بثقافة والدته الشعبية المتوارثة عبر اجيال متعاقبة , وهي لا تختلف عن دروس المدرسين , وفي معظمها معجزات وكرامات عن النبي عليه السلام والصحابة والأولياء وتعاويذ للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض . ثم أنه شغف بالأساطير . فكان درس والدته من أسعد ساعات يومه "١" ومع مرور الزمن ولى عهد الدروس الدينية وقصص الانبياء والشياطين , اذ لم يعد الوقت يتسع لمثل هذا الحديث وهذا التفكير , فجدت قضايا معاصرة لفتت اليها الانتباه , بد لنا ذلك في "قصر الشوق"٢" عكس هذا الخط الثقافي مرحلة من الزمان الفكري مر بها ذلك الجيل في المجتمع المصري.

أجاب نجيب محفوظ عن سؤال، وجهه اليه غالي شكري بقوله .. كمال يعكس ازمتي الفكرية ، وكانت ازمة جيل فيما اعتقد، والا فما أكدت عليها بالقوة التي ظهرت بها"٣" تحمل الثلاثية قضية فكرية كبرى هي قضية جيل المأساة -كمال - في تاريخنا الحديث"٤" وعبرت عن مأساة الحرية في المجتمع المصري في مستوياتها الفكرية والسياسية والاجتماعية ، وهي بحق قضية واجهت بعض المصريين المثقفين الذين استقبلوا شبابهم حوالي سنة ١٩٢٥, مع نيران الحرب العالمية الاولى وثورة ١٩١٩ الوطنية , فأحسوا بالحيرة"٥". والحقيقة ان ازمة كمال الفكرية لا تنفصل عن تطور الفكر المصري المعاصر في توجهة نحو الواقعية والعلمية بعيدا عن الجوانب الغيبية , مثلت شخصية كمال جيل ما بعد الثورة وما عانى من ازمات سياسية فكرية شكلت حيرة الشرق حين وقف امام بوابة التاريخ الحديث وما تبع ذلك من مؤثرات داخل المجتمع"٦" مثلت الصدام الفكري والمادي بين مصر والغرب"٧".

تنتمي الثلاثية الى أدب القضايا الفكرية ، فقد أقامت بناء من القيم كانت " بين القصرين" مستواه المتخلف و "السكرية" مستواه المتقدم"٨" كانت الحرية مأساة ذلك الجيل

١- بين القصرين ٦٢
٢- قصر الشوق ١٦٦
٣-غالي شكري: مذكرات ثقافة تحتضر ط١ تشرين الثاني ,دار الطليعة بيروت ١٩٧٠ ص٢٦
٤- السابق ١٦٣
٥- جوبيبه : ثلاثية نجيب محفوظ ترجمة نظمي لوقا : ٦٥ , ٦٦
٦- سليمان الشطي: الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص١٦١ ،١٦٣
٧- غالي شكري : مذكرات ثقافة تحتضر ص ١٦٠
٨- غالي شكري : المنتمي ص ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعذب"[١]" وجاء جيل كمال يحمل امانة "التغيير" بعد جيل متخلف،وتذبذبت خطاه وترددت بين النظر والعمل "[٢]" تمثل شخصية كمال جيلا من المثقفين وعن رسالته وعوقت مسيرته عوامل كثيرة , فافتكاس الحرية الوطنية وتآمر القصر مع الاستعمار لخلق الانتفاضة الشعبية وانهيار قيم الفكر والثقافة في مجتمع سيطر عليه الانحلال الاخلاقي , كل هذه العوامل كونت بذور ازمة المثقفين بعد ثورة ١٩١٩"[٣]" . و قد أدرك كمال أن جيله هو جيل الأزمة "[٤]" وردد "لم اعد من سكان هذا الكوكب ، غريب انا وينبغي ان احيا حياة الغرباء"[٥]" على كمال الحيرة والقلق والشك لتناقضات عاشها في واقعه , وبين المؤلف أثر البيئة والشخصيات الاخرى في تشكيل هذا النموذج وأبرز , تخلف البيئة وتناقضها الذي انعكس بدوره وأدى الى الانقسام في داخل الشخصية "[٦]" يمثل جيل كمال مفترق الطرق بين الشرق والغرب ، ازمته هي ازمة الشرق اذ اعترته الحضارة الغربية الوافدة وعاش معاناة التحول الذي دب في مقدساته , أنه الجيل الذي هبت على تخلفه رياح التقدم فعانى التوزع بينهما ففقد التوازن "[٧]" , وعانى في المقابل لما وجده في اسرته , اذ اهتزت صورة والده لديه عندما اكتشف الجانب الماجن , ودب التحول في ذاته حين أدرك ان عايدة تأتي كما يأتي غيرها من البشر ، فتلد وتحبل وكان يراها في عالم من الروح ، اما حيرته فهي حيرة طالب الجامعة الذي تخرج وقد وجد في بيئته ما يناقض ما تلقاه فيها من علوم , كانت حيرة بين العلم المادي وخصائص الدين او المسلمات الغيبية التي تأثر بها في مجتمعه وأسرته "[٨]" ويكمن جانب من ازمة كمال في النقلة الحادة من طرف الى آخر ، فقد الحط حبه الى شهوة وتحطمت لديه فكرة الدين حين انغمس في احضان الشهوة ، وحين كتب عن اصل الانسان "[٩]".

١- السابق ص ٦٩

٢- د.احمد ابراهيم الهواري : البطل المعاصر في الرواية المصرية ط٣ . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٦

٣- انوار المعداوي : ملحمة نجيب محفوظ الروائية "الآداب سنة ٦، عدده ايار بيروت ١٩٥٨ ص٢١

٤-السكريه ٩٨

٥- قصر الشوق ٣٣١

٦- فاطمة الزهراء محمد سعيد : الرمزية في ادب نجيب محفوظ ط١ المؤسسة العربية للدراسات القاهرة ١٩٨١ص٩٧

٧- السابق ص ١١٠ , ١١١

٨- د. محمد زغلول سلام . دراسات في القصة العربية الحديثة ط٣ مكتبة المعارف الاسكندرية ومكتبة الانجلو المصرية القاهرة ٣١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واهتزت صورة والده لديه حين اكتشف حقيقته اللاهية العابثة مقابل ما يعرفه عنه من رزانة و اتزان ، صار والده و هما كسائر الأوهام . زايلته صفات الألوهية التي توهمتها عيناد المسحورتان ، و لم تعد قوته الا اسطورة "١" و تجاوزت حركة التقلص في داخله الجانب الفكري الى الممارسة العملية حيث راح يجري وراء زميله القديم فؤاد الحمزاوي لكن طلبه باء بالفشل " ما أقسى المصير الذي وصل اليه ، ما أبعد الشقة بين حاضره وماضيه . فوقف حائرا مترددا بين وهج الغريزة و تسمة التصوف "٢" . أما عايدة فدب فيها التحول حين نزل هذا المثال من عليائه "لتمرغه بالوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب ... لأنه رضي لخده أن يقبل و لدمه أن يسفح ، و لجسده أن يبتذل "٣" "بل أن هذه المعبودة تحبل و تتوهم و تنداح بطنها و تتكور ثم يجيئها المخاض فتلد "٤" . فالعلاقة بين عايدة الحبلى و المثال هي العلاقة بين الفكر و الواقع ، و اكتشف أن مثاله السامي قد تحول ، فاذا هي مطلقة ، بل و زوجة ثانية لرجل فوق الخمسين "٥" . و يعزى بعض من حيرة كمال الى التعلق بشئ غامض مطلق اسمه الحقيقة "٦" التي تمثلت له حين اصطاد عصفورا و دقنه ، و بعد أن أخرج جثته ورأى ما رأى ذهب الى أمه يسألها عن مصير كل ميت ، فأدرك كذب معنى كلمة "الخلود" ، و ظل طيلة حياته يجري وراء هذا المطلق الغامض ليعرف كنهه ، و بدأ يبني حياته من جديد على صخرة العلم و الفلسفة و المثل الأعلى "٧" و لقد تأمل كمال " الغريب " شريط حياته ، علاقته بوالديه و بالمحبوب و بربه ، كيف كانت و كيف أصبحت ؟ عاد شاكا غريبا في منفاد الفكري ، ثار على والدته " و أنت يا أمي لا تحملقي في وجهي بأفكار ، أو تتساءلي ما ذنبي ... أنه الجهل هو جنايتك ... أبي هو الغظاظة الجاهلة و أنت الرقة الجاهلة ، و سوف أظل ما حييت ضحية هذين الضربن ،وجهلك أيضا هو الذي ملأ روحي بالأساطير فأنت همزة الوصل بيني و بين عالم الكهوف وكم أشقى اليوم في سبيل التحرر من اثارة كما سأشقى غدا في سبيل التحرر"٨" وقف كمال وحيدا غريبا بعد أن أدرك أن كل شي مصيره الفناء ، مضى

١- قصر الشوق ٤١٠ ، ٤١٢
٢- السكرية ١٠٦
٣- قصر الشوق ٣٥١
٤- قصر الشوق ٢٨٩
٥- السكرية ٣١٥
٦- د.علي الراعي : دراسات في الرواية المصرية، المؤسسة المصرية العامة للتاليف و النشر "بدون تاريخ" ص ٢٦٧
٧- قصر الشوق ٤١١
٨- السابق ٤١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدفوعا بروح الباحث عن الحقيقة "كل شي تغير مدلوله و معناه ، الله ..آدم .. الحسين. الحب.. عايدة نفسها .... الخلود ؟ نعم فيما يجري على الحب و فيما جرى على فهمي ، أتذكر التجربة التي قمت بها و أنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصيره المجهول ... ماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات ، ماذا سيبقى من الحب ؟ و عم تمخض الأب الجليل "[١]" . و هكذا فقد تردد كمال بين عدد من الأقطاب المتناقضة عبر رحلة من الحيرة و الغربة و الشك و التمزق استغرقت حياته ، فقد عبر من الأيمان الى الالحاد ، ومن الدين الى الإيمان بالعلم ، و انتقل من المثال الى الشهوة ، و من المثال و عالم الروح الى عالم المادة من خلال ادراكه حقيقة شخصية والده و عايدة المثال و الثورة التي لم تحقق أهدافها . و عزف عن الزواج الذي هو في جوهره محاولة للإنتماء و التكامل ، و صارت المرأة عنده شهوة مادية مجردة ، و داخلته الحيرة و الشك في كل شئ حتى شك في الإلحاد نفسه.

و هكذا فقد عكست شخصية كمال قضايا الجيل العامة : الطبقات و الحواجز الإجتماعية ، معاناة الفرد ازاء الواقع الجديد من حيرة و غربة و قلق ، و لم يكن ذلك الجيل قادرا على الوصول الى يقين ، فظل يسعى نحو الإنسجام و التوازن ، فأعاقت سيرة عوامل مختلفة تمثلت بالطبقة التي عاش فيها كمال و عوامل وراثية تمثلت بكبر رأسه و أنفه و عوامل اقتصادية و اجتماعية حالت بينه و بين الزواج من عايدة . كل ذلك زاد في تشكيل حيرته و غربته و تمزقه ، فواصل رحلة البحث عن الحقيقة ، فتردد على الملاهي الى أن مل النساء بعد أن عرف أن جوهرهن واحد ، و بعد أن فشل في أن يجد السعادة في الحياة الفكرية و ظل كما هو ، أما بعض اترابه فقد نالوا مناصب ادارية عالية – يحمل لواء الثورة الأبدية ، و تبنى رأي ابن أخته أحمد شوكت أن " الحياة عمل و زواج وواجب انساني عام "[٢]" و هكذا اختلطت الأفكار داخل هذا الجيل ، فاضطرب فكره و عقله و نفسيته و خطواته ، عاش مرحلة وسطى بين جيلين : الأول والثالث وسقط ، و لم يحقق لنفسه الإحترام ، و أوغل كمال في عالم الفكر فدفع ثمنا أكثر مما دفعه فهمي ، لم يستطع أن يحقق الشهادة و لا أن يمارس حياته . وأحس الجيل بخيبة الأمل بعد أن فشلت ثورة ١٩١٩ في تحقيق أهدافها "[٣]" . و قد شهدت نهاية "قصر الشوق " انهيار . جميع معتقدات كمال الدينية و الأخلاقية . فتهالك على احتساء الخمر و معاشرة الساقطات ، و سقط في دوامة من الشك حتى شك في الإلحاد نفسه . و رانت عليه خيبة من الأمل ،لكنه ظل ينشد الكمال ويبحث عن الحقيقة،وعطف على الأراء التقدمية وساعد ابني اخته في هذا الإتجاد"[٤]"

١-السكرية ٦١٠
٢- السكرية ٣٧٢
٣- د.ماهر حسن فهمي ١٠: ثلاثية نجيب محفوظ ، حولية كلية البنات يوليو ، جامعة عين شمس١٩٩٦ ص ١٠
٤- جوميه : ثلاثية نجيب محفوظ ، ترجمة نقلي لوقا : ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- صراع طبقي و ثقافي "كمال و أسرة آل شداد"

تمثل علاقة كمال بآل شداد وجها آخر ، اذ تجسد الصراع الطبقي في المجتمع المصري ، اطلع خلالها على تقاليد اجتماعية و اسلوب حياة يختلف عن حياة جيله من أبناء الطبقة الوسطى . فهو من أسرة متشبعة بتقاليد الحسين ،أما أسرة آل شداد فهي ارستقراطية ذات ثقافة أجنبية "١" تمثل علاقته بهم من جانب آخر الصدام بين الشرق و الغرب آل شداد هم رمز الثقافة و الحضارة التي يرنو اليها كمال ، على نقيض البيئة التي عاش فيها في " بين القصرين رمز التخلف و الحرية المفقودة ، و عايدة هي عالم الفكر و الثقافة الذي يشتاق اليه "٢". و هكذا فجيل كمال يمثل مفترق الطرق بين الشرق و الغرب ، ذلك الجيل الذي هبت على تخلفه رياح التقدم ، و من واقع الإنبهار على الجديد و الإنفتاح عليه ازدادت عزلته و أن نزوعه نحو الثقافة يقابله في شدته نفوره من تخلف بيئته.

آل شداد يمثلون الأرستقراطية المصرية ، فكان والد حسين شداد من حاشية الخديوي ، و في قصر "العباسية" اختلط كمال بأصدقاء جدد فوجد بيئة تختلف بيئته ، و بهره أسلوب المعيشة و أسلوب التعامل . يمثل هذا الموقف موقف العربي عندما اصطدم بالحضارة الجديدة ، مما يشير الى ان ثقافة الجيل تختلف من طبقة الى أخرى ، فجيل حسين شداد من الطبقة الأرستقراطية رزق حظا من الثقافة الأجنبية و مارس أساليب في الحياة تختلف عن أساليب ذلك الجيل من أبناء الطبقة الوسطى . و كشفت سيرة كمال أن الطبقة الإجتماعية كانت الحجاب الذي حال بينه و بين عايدة ، فكان ذلك خيبة أمله ، وان اختلاف الطبقتين القى بظلاله على أساليب تفكير الأجيال . وهكذا فأن عايدة عالم جديد في تجربة كمال، في جمالها الباريسي وثقافتها الفرنسية واسلوب تعاملها وجو الحرية الذي يشيع في الأسرة ، قارن ذلك بواقع أسرته ، فأين هي الأرستقراطية من أمه أمينة التي لم تكن في نظر أبيه سوى جارية و تناديه دوما " يا سيدي" تجسيدا للعبودية . و قارن مشهد خروج والدته بعد غياب زوجها و طردها من البيت بمشهد نزول حسين شداد و برفقته زوجه و السيارة تنتظرهما أمام البيت . و بوجه عام فان علاقة كمال بآل شداد في جميع وجوهها ، السلوك و التفكير و الطبقة و الحسي و الإهتمامات قائمة على التناقض، و قد أبدى مشاعر الإعجاب بحي العباسية مقرونة بالحب ، اعجاب بالنظافة و الهندسة ، أما

١- قصر الشوق ٢٠
٢-السابق ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحب فلأنه و حي حبه و مثوى قصر معبوده ووطن قلبه .. و يرنو حسين شداد الى الإلمام بشتى المعارف من غير مدرسة في حين اختار كمال دار المعلمين . و اذا كان كمال يرى في "الوفد" عقيدة تلقاها عن فهمي و اقترنت لديه بالشهادة ، فان حسين شداد لم يكن صاحب عقيدة فكان محايدا ، لا استهانة مثل اسماعيل لطيف بل اعتقادا منه أن السياسة تفسد الفكر و القلب ، و ينبغي العلو عليها حتى تتراءى الحياة ميدانا لانهائيا للحكمة و الجمال و التسامح ، في حين يرى كمال أن الحياة هي هذا كله ، هي الصراع و الكيد و الحكمة و الجمال و أن السياسة نصف الحياة . و كان حسين شداد يتعالى على الشعب و كأنه شعب غريب ، و كان في الواقع ينطق باسم أسرته كلها ، و هذا ما أثر في نفسية كمال "١" يرى حسين شداد أن الوظيفة شيء ثانوي لدى ذوي الأهداف البعيدة من أمثاله و أن العمل لعنة البشرية و مضيعة للوقت و سجن الفرد و حائل دون الحياة السعيدة ، فالحياة السعيدة هي الفراغ ، في حين يرى كمال أن لا حياة من غير عمل . و هو من أسرة ذات ثقافة فرنسية تراه تلفلا مدللا ، لاهدف له في العمل ، و انما وقف نفسه للمغامرات الروحية . و تؤمن أسرته أن أي نشاط لا يؤدي الى زيادة في الثروة هو ضرب من العبث ، و لهذا فان أبناء هذه الطبقة يحلمون بالألقاب و كأنها فردوس مفقود ، فالقاعدة المتبعة في الأسرة هي العمل على زيادة الثروة و مصادقة ذوي النفوذ لنيل الألقاب ، و ان الغاية تبرر الوسيلة "٢" . و على الرغم مما يبدو بين كمال و حسين شداد من تشابه في الميول فانهما مختلفان ومتناقضان، فكمال محب للاستقرار وقانع بالرحلة الفكرية التي لا تتطلب التنقل حتما ، اما حسين فيصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض. واختلفا حول مفهوم "التاريخ" ، اذ يرى حسين في الآثار وهي مخلفات الأجيال وآية على حضورهم وانجازاتهم، قبورا وجثثا وجهدا ضائعا ، في حين يرى فيها كمال "الخلود" والامتداد وآية على حضور الماضي في الحاضر وحين دافع كمال عن ذلك اتهمه بالوطنية ، غير ان فهم كمال للوطنية ليس محصورا في مكان بعينه ، ولقد آلم كمال قول حسين "ان الوطنية مرض عالمي" .اما اسماعيل فيحنقه باستهانته، وحسن سليم يغضبه بتكبره واعترف حسين انه وأسرته لا يعرفون في الدين الاسلامي الكثير ، فمربيتهم يونانية ، وهم في حكم الوثنيين قياسا لكمال "٣" و يطمح الى دراسة فلسفة الفن والشعر والموسيقى وان يسمع لا ان يقرأ. تلك ملامح

١- قصر الشوق ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩

٢- السابق ١٥٥ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٧

٣- قصر الشوق ١٨٠،١٨٢،١٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفر من ابناء جيل من الطبقة الارستقراطية ، نفر لا هم له الا امور الخاصة ، غرق في جمع المال بصرف النظر عن الوسيلة . والوطنية ابعد ما تكون عن اهتماماته . ينظر الى الطبقة الأدنى بتعال ، تربى تربية أجنبية ، لا يعرف من امور الدين سوى القليل النادر ، تخلف فهمه للوطنية والانتماء على عكس ابناء الطبقة الوسطى الذين كانوا مثال الانتماء والوطنية سلكوا سبيل الثقافة والعلم .وكان الزمن اخيرا هو الذي غير افكار الجيل الذي ينتمي الى الطبقة الارستقراطية فعادوا يؤمنون بما آمن به ابناء الطبقة الوسطى ، وذلك عندما ارتطموا بالواقع والحقيقة ، فقد مارس حسين شداد العمل ليلا ونهارا . في حين أنه كان يؤمن ان العمل جريمة إنسانية "١" .

وحيث ان علاقة عايدة مع كمال علاقة طبقية فقد نظرت اليه نظرة استعلائية هي النظرة نفسها بين العباسية وبين "بين القصرين " وحي الحسين وبين القصر الشامخ في شارع السرايات وبين البيت القديم في "بين القصرين" وكان كمال في نظرها مثال الرجل المحافظ الذي يضع الطربوش على رأسه ولا يربي شعره كغيره من ابناء الطبقة الوسطى ورفاق الحي وابناء جيله و طلبا للجمال ، فتقاليد تلك البيئة وذلك الحي تحكم ذلك الجيل ، فتساءل : كيف يواجه أباد بشعر مصفف؟ وفي ذاكرته ان ياسين لم يطلق شعره وشاربه قبل ا ن يلتحق بالوظيفة ، وهو من حي الدين "٢" . وأثرت هذه الخلفية على سلوكه ، اذ رفض ان يأكل لحم الخنزير وان يشرب الخمر وان يتفق وعايدة واحمد في قضايا تتعلق بالعقيدة . قالت عايدة ازاء موقفه الثابت . لا تكن حنبليا ، في حين قال احمد: ان لا علاقة للدين بالطعام . وامتد التباين بين الطرفين الى معايير الجمال ومقاييسه ، فاذا كانت الرشاقة والنحافة من معايير جمال نساء العباسية فان نساء الحسين يسعين الى السمنة . وهكذا فقد قست عايدة على كمال حين ابلغته انه ينفر من الجمال ليتحدى بذلك قانون وراثه اورثه راسا وانفا ضخمين مثلما رفض تحدي المعتقد المتمثل بشرب الخمر "٣"، وقست عليه حين نفرت منه وتركته بسبب فواصل طبقية واجتماعية وأحبت حسن سليم الذي يختلف مع كمال في الرأي حول سعد زغلول ، اذ يرى حسن ان سعد زغلول مهرج شعبي ، ويميل نحو الاحرار الدستوريين الذين كانوا في نظر كمال خونة ، فالوطنية عند سعد -كما يراها سليم - نوع من البلاغة التي تستهوي العامة "٤" وعلى الرغم من كل مظاهر قسوتها فانه قد

١- السكرية ٣٠٦ ، ٣٠٧
٢-قصر الشوق ١٨٤،١٨٧
٣- السابق ١٩٨،٢٠١،٢١١
٤- السابق ١٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تزهها من العيوب فقال في نفسه نفسك لا تنطوي لها الا على الحب الخالص . حتى عيوبها تحبها ، لا عيب لها ولو كان بها اجتراء على الدين ، ، اخشى ان لا تروق في عيني حسناء . اذا لم اجد فيها اجتراء على الدين والمحرمات . استغفر الله لنفسك ولها ، وقل ان هذا كله عجيب ، عجيب كأبي الهول . ما اشبه حبك به . او ما أشبهه بحبك ، كلاهما لغز وخلود "١" والتمس لها الأعذار ، فهي لم تتلق تربية شرقية حتى تطالب بالمحافظة على التقاليد او تواخذ على الخروج عليها وقد ابلغ حسن سليم كمالا أن لا عاطفة وراء كلامها بل هو محض كلام لطيف ، فهي تحب حب الشخص لها لا حب الشخص نفسه ، وكثير أساء فهم سلوكها وتفسيره، "٢" وبوجه عام فان "الطبقية" هي معيار التعامل بينهما ، فقد صاح حسن سليم موجها كلامه لكمال "فلندعها توازن بين ما قاله ابن التاجر وما قاله ابن المستشار "٣" وكان ذلك طعنة في قلب كمال وكرامته ، ولكنه ظل متعلقا بحبها ، موقلبا على زيارة العباسية . لايمانه بخلود الحب و نالت منه حين هم بالتفاهم معها في أحد الشوارع ، اذ قالت " أرجو ان تسلك سلوك الجنتلمان" "٤" . وأحس كمال يوم خطبها حسن سليم ان قوى القدر والوراثة والطبقية قد تآمرت عليه ووقفت في وجهه . وحطم زواجها المثال الذي كان ماثلا فيها , فنزلت من العالم العلوي الى العالم الارضي بفعل قانون الطبيعة الحتمي فقال "ما أقدر قانون الطبيعة"! " ٥" فالحقيقة هي مطلب كمال الرئيسي لا المنصب الرفيع والنفوذ القوي المتمثل بحسن سليم الذي لو شاء كغيره من ابناء المستشارين لقنع من العمل بما يكفل له الوظيفة اعتمادا على نفوذ ابيه , لكن كبرياءه تابى عليه ذلك . اما سليم صبري المستشار في اكبر هيئة قضائية وينتمي الى الاحرار الدستوريين . فلم يكن مطلبه المال كحسين شداد, ولابد ان يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشرر احيانا . وظل كمال ينشد الحقيقة في ذاتها , الله والانسان والروح والمادة , والفلسفة تجمع كل هذا في وحدة منطقية وهي المرحلة الحقيقية . ويرى ان حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال,ولهذا احب الآداب "٦". وعلى هذا فالمجاملة نسبية , فكمال ازاء والده من جيل جديد . وازاء ال شداد من جيل تقليدي محافظ .

١- السابق ٢٠١
٢- السابق ٢١٤،٢١٧،٢١٨
٣- السابق ٢٣٠
٤- قصر الشوق ٢٥٥
٥- السابق ٣٢٩
٦- السابق ٢٠٣-٢٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عايدة شداد هي رمز عالم الفكر والثقافة التي يشتاق اليها كمال, وقصر شداد رمز لقاء كمال بالحضارة"١" , وهو يطمح الى عايدة المثال وعايدة المرأة "٢". وترتبط شخصيتها بحركة التغير الاجتماعي والثقافي , اذ راى فيها كمال عالما جديدا يختلف عن عالم اسرته , وفتح قلبه على طراز جديد من العواطف"٣" . واحس كمال بالغربة الاجتماعية والطبقية وبالفواصل الاجتماعية التي تفصله عن اسرة ال شداد . وهي غربة تختلف عن غربته ازاء اسرته: غربة الفكر والوجدان. "٤" وبوجه عام فان علاقة كمال بال شداد مثلت تيارات عاشها ذلك الجيل , تيارا تلقى ثقافة اجنبية ارتبط بالطبقة الارستقراطية , وله ارائه الخاصة في السياسة والاجتماع , وتيارا آخر حافظ على تقاليد الماضي وموروثاته وارتبط بالطبقة الوسطى . وله ارائه ورؤياه التي تختلف عن رؤيا الطبقة الارستقراطية . ويبدا لنا تيار ثالث من خلال علاقة كمال مع اسماعيل في بيت ال شداد . فهو من جيل لا تهمه السياسة في شئ . ويفصح موقفه عن موقف قلة من المحسوبين على المصريين وكأنه ناطق باسمهم , وهم يائسون من نهوض الوطن بأس التعالي والاختصار لايأس الطموح. فالسياسة لدي هؤلاء مطية وسبيل لتحقيق أطماعهم"٥".

ركز اسماعيل في علاقته بكمال على ظواهر خارجية ظاهرية وراثية بدت في راسة وانفه , وعنقه الطويل , وقامته النحيلة, وعد ذلك كارثة , ولم يلتفت الى ظواهر جوهرية في سلوكه"٦" غير ان الزمن غير افكار اسماعيل وممارساته، مما جعله يحظى باعجاب كمال لرزانته واستقامته , فصار مثالا للزوج الطيب والأب اللطيف بعد ان كان مثالا للفظاظة الاستهتار , و أدرك كمال ان اسماعيل انسان اخر غير الذي عرفه بين عامي ١٩٢١- ١٩٢٧ "٧"

١- فاطمة الزهراء : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ . ص ٩٧،١١٠

٢- د. على الراعي: دراسات في الرواية المصرية "المؤسسة المصرية العامة للكتاب والنشر . بدون تاريخ ص٢٦٦

٣- جوميبه : ثلاثية نجيب محفوظ : ترجمة نظمي لوقا ص ٦٦

٤- د. احمد ابراهيم هواري : البطل المعاصر في الرواية المصرية ص ٣٠٦

٥- قصر الشوق ١٥٨

٦- السابق ١٥٥

٧- السكرية ٤٨ ، ٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- كمال ورياض قلدس:

التقى هذا التيار من الجيل الجديد حول قضايا فكرية ,وهو تيار جامعي مثقف عاش امتزاج الثقافات , فصاحب مجلة " الفكر " الاسيوطي أزهري ثقف ثقافة فرنسية، كانت مجلته محورا التف حوله كتاب يكتبون في الفلسفة والثقافة . قضاياهم ثقافية وفكرية تجاوزت هموم الاسرة , وقد مد رياض المجلة بدم جديد حين انضم الى اسرة المجلة "٣", وكانت السياسة جوهراأصيلا في نشاط رياض الذهني . دافع عن الاقباط لانهم وفديون . والوفد حزب القومية الخالصة الذي يرى في مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف الاديان وايده كمال في ذلك , وغضب رياض لاقالة النحاس وعدها هزيمة للشعب في نضاله التاريخي مع السراي "٤". وقد اعجب كمال بثقافة رياض , فهي ثقافة عالمية علمية . اخذ من العلم الى الادب عبادة الحقيقة والاخلاص ومواجهتها بشجاعة، والنزاهة في الحق، "٥" وآمن كمال كرياض بالعلم بعد ان شك في الدين وكفر به "٦" ووضع رياض يده على ازمة كمال الماثلة في مله وحيرته انك تعاني أزمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الأركان ، عبث وقبض الريح ، نضال أليم مع اسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، اني أرثي لك "٧"ونصحه بالزواج للخروج من ازمته ، فقال كمال "الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة الفاشلة " "٨" فالسعادة الحقيقية لديه مستمدة من دنيا الفكر ، ورد عليه رياض ان السعادة المستمدة من العمل والزواج سعادة جديرة ان تسخر من احتقارك لها . واوحت له شخصيته بشخصية ابن الشرق الحائر بين الشرق والغرب الذي دار حول نفسه كثيرا حتى أصابه الدوار "٩" وحين اقترح عليه رياض الزواج من بدور لانقاذه من أزمته رد"أحبها وأكره الزواج منها" فقال : اشهد لقد حيرتني واعترف كمال بذلك انا الحائر الى الأبد"١٠" وظل كمال حائرا و فشل في أن يتخ من الزواج حصنا يحميه و ينقذه من مله و سقمه و حيرته و شكه ، و هي قضايا عاناها الجيل الذي وصفه نجيب محفوظ في قوله في كمال يمثل أزمة فكرية ، أنها أزمة جيل فيما أعتقد..."٩" و يرى كمال أن شقاء العالم سوف

١- السكرية ١٠٣
٢- السابق ١٤٧
٣- السابق ١٥
٤- السابق ١٠٧
٥- السابق ١٩٠
٦- السابق ١٩٠
٧- السابق ١٩٠-١٩١
٨- السابق ٢٧٣
٩- غالي شكري : مذكرات ثقافة تحتضر ص ٢٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتضاعف تحت اقدام التاريخ بعد ان أوغل الاستعمار البريطاني في الشيخوخة . وكان هم اسماعيل الاستعمار الانجليزي في الموقع نفسه الذي فرضه على العالم الضعيف"١". ورأى مكانته في مجتمعه ومكانة الفكر في بلده في أثناء مجلة الفكر المهتري" وفي موقعها الأرضي"٢" .

جـ - كمال وفؤاد الحمزاوي :

كلاهما جيل واحد مختلف التفكير والظواهر الجسدية ، كمال طويل وفؤاد قصير ، ويظهر فؤاد عكس كمال رزانة أكبر من سنه وتصرفاته ، أما كمال فلا يستسلم لعقل وتفكير ، فكيف لثائر أن يفكر؟! وظل كمال يتعامل مع فؤاد تعاملا طبقيا استعلائيا ظنا منه ان ذلك يمتد الى المواهب العقلية"٣" وأحس نحوه بمشاعر الغيرة والحب ذلك أنه مهما حاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تهبط به الى الأسفاف الدنيوي. وقد رفع فؤاد الى وكيل نيابة ، واستغرب كمال أن يضع فؤاد رجل فوق رجل في حضرة ولي نعمته والده السيد احمد ، وزادت غيرته عندما قال فؤاد انه اذا ما صار قاضيا فسيصاهر وزيرا فمركزه يؤهله ان يتزوج من هي ارفع من نعيمة مجدا وثقافة"٤" وظلت علاقتهما ضدية ، ففي حين يرى كمال ان الشهوة غريزة حقيرة يجب التسامي عنها يرى فؤاد أنها ليست شرا كلها فهي السبيل الى الزواج والذرية والامتداد. وتساءل كمال : اهذا هو الزواج أخيرا ؟ أنه حائر كيف يوفق بين الزواج والحب ، فالذين يحبون لا يتزوجون . أنه يرى ان الاتصال السعيد بينه وبين معبوده عن طريق العطف الروحي كما العبادة لا بالزواج . يرى كمال ان حياة الفكر أجل حياة في حين نصح فؤاد كمالا ان يدرس الواقع واختار كمال كيف يقنع والده بجلال الفكر والقيم السامية بعد ان وجد والده كأكثر الناس يهيمون بالمظاهر الزائفة"٥". وظل كمال مندفعا نحو السياسة بعاطفة ثم انقلب لا يؤمن بشيء، فشك بالسياسة وظل قلبه ينبض بالوطنية ، أما فؤاد فظل عكس ذلك، وهكذا كانت علاقات كمال بأبناء جيله ترسم لنا مراحل تطوره ومعاناته وأزمته والقضايا التي تقلقه ، فعلاقته بفؤاد تنطوي على نوع من الصراع،"٦" وتذكر كمال الأيام التي كان فيها فؤاد يتودد اليه ويتبعه كظله ، وها هو يطالعه رجلا خطيرا جديرا بالتودد والولاء.

١- السكرية : ١٩٢
٢- السكرية : ١٠٢
٣- قصر الشوق ٧٢ ، ٧٣
٤- السكرية ٩٥ ، ١٠٢
٥- قصر الشوق ٧٤ ، ٧٨
٦- السكرية ٩٦ ، ٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجيل الثالث : الأحفاد مستقبل وأمل :

يمثل الجزء الثالث من الثلاثية جيل الشباب الجامعي الذي التف حول فكر معين ، جيل شغل بالسياسة وعني بهموم الوطن العامة . التقى في الصحف والمجلات مواقفه وارائه ثورة على الأجيال التي سبقت . همومه اجتماعية ووطنية وفكرية وقد تحرر هذا الجيل من سيطرة الماضي وخلف وراءه القلق الفكري والتذبذب الاجتماعي . فامتاز بالارادة والعمل وتجاوز الحيرة وحدد لنفسه هدفاً[١] واختار هذا الجيل سبيله باختياره وارائه . آمن عبد المنعم بالاسلام فضية حل لكل القضايا فالاسلام عقيدة وعبادة وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف[٢] واختاره طريقا ومنهجا وطبقة فعليا حين تزوج مبكرا ليحمي نفسه من الرذيلة والزلل . وانضم الى جماعة الاخوان والمسلمين . وآمن أحمد بالانسانية والفد واختار الماركسية فكرا وممارسة وكانت مجلة الانسان الجديدة منبرا لأرائه ، وانتهت الثلاثية وطرح المؤلف المصير للتساؤل . اما تمسك بالتراث او الغاؤه والبحث عن قيم جديدة تمثلت بالاشتراكية وذلك من خلال شخصيتي عبد المنعم وشقيقه احمد "٣".

أنضم احمد الى اسرة " مجلة الانسان الجديد" . لصاحبها عدلي كريم الذي يعد استاذه واباه الروحي . وقد قال له الاستاذ جاداً"لا يليق بقارئ الانسان الجديد ان يحسب العمر بالسنين . في بلادنا شيوخ جاوزوا الستين . ولكنهم ما زالوا شبابا بعقولهم . وفيها شباب في ربيع العمر ولكن معمرون منذ الغساسنة أو اكثر بعقولهم . وهذا هو داء الشرق"[٤] كانت أكثرية قراء المجلة ومن طلبة الجامعة . وفدين ويرى عدلي كريم ان الوفود حزب الشعب وخطوة تطورية خطيرة وطبيعية في أن واحد . ومبلور القومية المصرية ومدرسة الوطن والديمقراطية ومرحلة جديدة من التطور . لأن الاستقلال ليس الغاية الأخيرة بل الوسيلة لنيل حقوق الشعب والانسانية "٥" وهكذا فإن عدلي كريم استاذ هذا الجيل وان علاقته مع أحمد وغيره من طلبة الجامعة نموذج في امتداد الأجيال في

١- سليمان الشطي : الرمز والرمزية في ادب نجيب محفوظ ص ١٤٨
٢- السكرية ١٦٩ , ٢٨٢
٣- د.محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة ص٣١٢
٤- السكرية ٨٩
٥- السكرية ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبوة الروحية والفكرية للأجيال بعيدا عن ابوة الدم . ويؤمن ان الأدب وسيلة التحرر الكبرى وأنه ينبغي دراسة العلوم والتحلي والالتزام بالعقلية العلمية ذلك ان الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا , وعلى الآباء ان ينالوا حقا منه . ويؤمن احمد ان رسالة الانسان الجديد هي تطوير المجتمع على اساس علمي ونصحه عدلي ان "ادرس الاداب كما تشاء ولا تنس العلم الحديث فلكل عصر انبياؤه وان العلماء انبياء هذا العصر"[١] أما زملاؤه في المجلة فهم سوسن حماد والاستاذ ابراهيم رزق ويوسف جميل. وقد قدمه عدلي بقوله "انه الابن البكر للانسان الجديد"[٢] ويرى ابراهيم رزق الكهل انه كلما نظر في الطريق قرأ على الجدار عبارة "الخبز والحرية" وهو شعار الشعب الجديد "[٣] وشكلت علاقة احمد بعلوية صبري الارستقراطية صدمة طبقية مثلما كانت عليه علاقة كمال بعايدة آل شداد فلكل طبقة عاداتها الخاصة بها وسمات سلوك تبنى عنها , وهي نموذج لجيل من الطالبات المثقف بثقافة اجنبية , جيل تعلم ومارس العمل على خلاف واقع المرأة في الجيل الأول بل ومارس حرية الأرادة والثقافة والعمل , غير انها استغربت طريقته في الحديث حين قال لها" هل تسمحين لي بالتقدم لخطبتك؟" فقالت "هذه طريقتك في الكلام ؟ يا لها من طريقة . الواقع أذهلتني"[٤] تشبه تجربة احمد تجربة كمال في الحب , غير انه استطاع ان يتجاوز من العوائق بأرادة وعزم , لم يقف متشددها , بل تجاوز ذلك حين تزوج من سوسن حماد ابنة عامل المطبعة , كانت عايدة تسعى نحو ابن المستشار حسن سليم وعلوية تبحث عن شخص غني يوازيها في الطبقة ، ولم يستسلم احمد اذ حقق الانسجام والتوازن في زواجه "[٥] وهكذا فأن وعي هذا الجيل جعله يتجاوز حيرته وما مر به الجيل الماضي. فالحياة كما يقول احمد "عمل وزواج وواجب انساني عام وثورة ابدية وعمل دائبين لتحقيق ارادة الحياة المتمثلة في تطورها نحو المثل العليا"[٦].

أعجب احمد بجو المجلة الفكري الأشبه بالمدرسة الفكرية . اذ تخرجت منها سوسن حماد المثقفة . وهي ترى ان الكتابة ينبغي ان يكون لها هدف مشيرة بذلك الى كتابات كمال الذي يكتب عن الروح والمطلق ونظرية المعرفة . وترى انه يجب ازالة اسباب

١- السكرية ٩١
٢- السابق ٢٠٥
٣- السابق ١٨٥
٤-السابق ١٦٩
٥- السابق ٣١٥
٦- السابق ٢١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الألم في المجتمع اولا , وان المبادئ تتعلق بالارادة قبل كل شئ"[١] وسار احمد الاشتراكي وسوسن حماد التي تؤمن بالمدرسة الفكرية نفسها رفيقين في ميدان الحرية وعملا يدا واحدة وان على الطبقة العاملة ان تطلق ارادتها لتدور آلة التطور ويتحقق الوعي"[٢]"واستغربت سوسن كيف يتحمس احمد الشاب المثقف للاخوان المسلمين وكيف يعتبر ذلك فكرة تقدمية تزري بالاشتراكية "[٣] واتضح ان هذا الجيل على قضايا اختلفت عن قضايا الاجيال السابقة مثلما تبين لنا الافكار والمدارس والمذاهب التي كانت تصطرع في الساحة بسبب الانفتاح الثقافي.

ويتضح ان الاشتراكية والرأسمالية مدرستان فكريتان متناقضتان لهما اتباعهما في المجتمع المصري"[٤]" وقد ثارت على نظرة احمد البرجوازية للمرأة وقال لها وقد اعترف انها هي التي غيرت الكثير من افكاره وآرائه ولعله مما يزعجني كثيرا حيال نفسي المتشبعة بالسكرية انني ما زلت انظر احيانا الى المرأة بالعين التقليدية فيخيل الي في بعض ساعات التقهقر والخور لا سن... ولكن من المسلم به كذلك ان العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيرني كثيرا وطهرني لدرجة محمودة من البرجوازية المتسوطنة في أعماقي[٥]" وقال لها احمد" الفقر لا يعيبك والغنى لا يعيبني , ولا عيب إلا في الجمود والتخلف عن روح الغد.... فقالت لكنها ظاهرة طبيعية علمية , لا نسأل عما وجدنا عليه أنفسنا ولكننا مسؤولون عما نعتنق ونفعل.. ألست من طبقة العمال مثلي كلانا يحارب عدوا واحدا ولكنك لم تخبرد كما خبرته , ولقد ذقت الفقر طويلا ولمست آثاره الكريهة في اسرتي[٦]" وهكذا فانه يؤمن بالمبدأ. فهو كما يقول المبدأ دمي وروحي , فأنني المسؤول الأول عن الانسانية جميعا[٧]" وزواجه منها امتحان لعقليته , وهي تدعي ان ما يهدد المجتمع "العقلية البرجوازية" وتعني بذلك اشياء كثيرة تخص علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي وسما احمد في نهاية الثلاثية الى مرتبة انسانية جديدة ورؤيا واقعية أشمل , وبدخوله السجن رأى الشعب البائس الذي يكافح من اجله على حقيقته وقال لنفسه"ان موقفا انسانيا واحدا وهو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا

١- السابق ٢٥١
٢- السابق ٢٥٩
٣- السابق ٢٦٥
٤- السابق ٢٥٩ - ٢٦٦
٥- السكرية ٢٦١ - ٢٦٢
٦- السابق ٢٦٢
٧- السابق ٢٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكان المظلم الرطب: الأخ والشيوعي والسكير والسارق على السواء لكنا واحد على تفاوت في قوة المناعة والحظ ... ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير . الا انه الانسان الكامن في اعماقي , الانسان الواعي لذاته , المدرك لموقفه الانساني التاريخي العام , وان ميزة الانسان على سائر المخلوقات هي انه يستطيع ان يقضي على نفسه بالموت بمحض اختيار وارادته"[١] وقال احمد لكمال وهو في السجن والذي يتفق معه في كثير من الافكار "الحياة عمل وزواج وواجب انساني عام , اما الواجب الانساني العام فهو الثورة الابدية , وما ذلك الا العمل على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى"[٢].

ويبدو لنا أن كمالا يشعر بميل خاص نحو ابن اخته احمدواتجاهه اليساري وقد تعرفنا من خلال احمد وسوسن على وجهتي نظر الاخوان المسلمين والشيوعية , وعرفنا وجهة نظر سوسن وهي تعرض وجهة نظر الشيوعية في حركة الاخوان المسلمين بأعتبارهم يحاولون إصلاح المجتمع بالفرد ونعت عليهم ايمانهم بالغيبيات ، وازداد ايمان احمد باليسارية بعد أن ردته علوية صبري الارستقراطية ، وهكذا فأن احمد امتداد كمال من بعض الجوانب .

أما عبد المنعم شقيق احمد فهمه ان يكمل ثقافته الدينية وتعرض المؤلف لمبادئ حركة الاخوان بالقدر الذي يؤثر على الأسرة وعلى سلوك عبد المنعم فنراه منغمسا بحضور الدروس الدينية في حين ان شقيقه احمد يرمقه باستخفاف وأبدى عبد المنعم حرصه على الزواج المبكر ليقية شر الرذيلة و رفض ما يفعله غيره من الشباب . فتزوج من نعيمة ابنة خالته عائشة وتزوج مرة ثانية من ابنة خاله ياسين وشجعه على الزواج الشيخ المنوفي"[٣] وعرف عبد المنعم حركة الاخوان المسلمين جوابا عن سؤال احد الطلبة انها جمعية للتعليم والتهذيب تحاول فهم الاسلام كما خلقه الله : دينا ودنيا وشريعة وحكما سأله الطالب مرة :هل ترحمون الناس اذا خالفوكم؟ فقال : الشاب يتهددهم زيع العقيدة ليس الرحم اشد ما يستحقونه . نحن لا نرجم بل بالموعظة الحسنة , وآية ذلك ان في بيتنا أخا يستحق الرجم وها هو يسرح فقال له حلمي عزت : اذا أنت من اخيك خطرا يستحق الرجم فأنني ادعوك للاقامة في الدرب الأحمر"[٤]" ودار حوار بين الاخوين نستدل منه على فكر كل حزب.

١-السكرية ٣٢٣
٢- السابق ٣٢٩
٣- السابق ٩٥ - ٩٦
٤-السابق ١٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

أجيال في رواية "العصاة"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

أجيال في رواية " العصاة " *

تعرض هذه الرواية تطور الفكر السياسي والاجتماعي، وترصد تجارب نصف قرن من الزمان في سوريا عبر تجارب أسرة حلبية ، في النصف الأول من القرن العشرين. وهي واحدة من روايات الاجيال العربية(١) برز فيها ثلاثة أجيال من خلال أسرة آل عمران.

الجيل الأول : جيل الأب

يمثل هذا الجيل جَدّ العائلة محمد آل عمران الذي عاش في ظل واقع ساد فيه الفساد الاجتماعي والاستبداد والظلم وجشع التجار ، وفي وقت كان الحديث فيه عن العصيان واغتصاب الأراضي وانتشار الأوبئة وقتل الناس وعزل الولاة من الأمور المألوفة في ذلك الزمان ، كان واحداً من جيل يرى في الحاكم صورة "الله" في أرضه وأنه العقل الذي سيّرته العناية الإلهية(٢)،ولهذا لم يتوانَ عن مؤازرة الوالي وتأييد خطواته ومباركة أفعاله على الرغم مما فيها من ظلم ، فحين بلغه ابنه أنَّ الجند قتلوا خمسة أشخاص ردّ عليه ، إنهم لايقتلون من غير سبب وإنه لا بد أن تستعمل بنادقهم المحشوة بالعتاد ، وإن بعض المواطنين هم الذين يسببون لأنفسهم الموت ، ولو لم يستحقوا الموت لما اقترب منهم(٣) . وهو من جيل يرى في السلطان رمز الدولة بأسرها ، اذا خلع انهارت الدولة ، ومن جيل يرى الرجولة في القدرة على الإنجاب ، وأن المرأة حيوان وشيطان ، وأن الزواج

---

* صدقي اسماعيل : العصاة . ط١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ .

١- د حسام الخطيب : سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية : ١٣٩. وانظر : عدنان بن ذريل " في الرواية الوجودية" مجلة الاديب " ج ١١ ، بيروت : ٢٥

٢- العصاة : ٣٣ ، ٣٤، ٤٣، ٥٤ ٣- السابق : ٢٢، ٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العظيم هو الزواج الاقتصادي والاجتماعي و أن الفتاة الفاضلة هي التي تمتلك الكثير من الأراضي ، وقد نقم على ذلك الزمان الذي يتلفت فيه حوله فلا يجد فيه أحدا من أبنائه . كان حانقا عليهم واعتبرهم عصاة متمردين ، اعتقادا منه أنهم أقل شأنا منه، وانه شأن غيره من ابناء جيله يعتقد أن ما مضى من مراحل الزمن هو الأفضل دائما ، وان الأجيال البشرية تنحدر باستمرار إلى الحضيض . وحين جابهته المواقف المتمردة من هؤلاء الأبناء - وكل مخالفة لهم تمرد - ازداد تمسكا بهذا الاعتقاد ، وقد كانت الروح الفردية مظهرا لقوة الشخصية . وحين مرض رفض تدخل الأطباء ووصفهم بأنهم "دجالو " آخر الزمان(١)

الجيل الثاني : جيل الأبناء:

كانت علاقة هذا الجيل بالجيل السابق علاقة صراع وتصادم وعلاقة امتداد وتواصل ، مما يشير إلى أن الجيل الأول ما زال ماثلا في عقلية جيل الأبناء ، متلما لمسنا تغيرا واضحا في الجيل الجديد ، وبهذا فقد برزت عدة تيارات تحددت علاقتها بالماضي والمستقبل.

أ) عمران : الماضي والحاضر يمثل عمران جيل الأب أو الماضي الممتد في الحاضر ، فهو ظل المشيئة الأبوية ، مسلوب الإرادة أمام والده حتى في آرائه اليومية البسيطة التي تعبر عن الذوق الشخصي ، زوجه والده من غير أن يرى مخطوبته أوأن يعرف اسمها ، وعلى غير ما يهوى ويحب ، ومع ذلك أحس عمران أن الأقدار تعد له كل ما يريد في عطف حكيم . وكانت زوجته "سعدى" من هذا الجيل ، على شاكلة زوجها و كانت ترى نساء القرية كائنات ضعيفة قدر عليهن الإذعان للرجال(٢).

١- العصاة :١١ ، ٤٤، ٥٧ ، ٧٥

٢- السابق :١١ - ١٧ ، ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) يمثل إبراهيم وأسرته نموذج الاختلاف الفكري بين جيلين ومرحلة وسطى تردد فيها ذلك الجيل بين التشبث بالماضي والأخذ ببعض ما جاء به الحاضر من منجزات الامم الاخرى ، وهو ينتمي الى جيل نشأ في أوائل هذا القرن متأثرا بجانب من الروح العلمية التي كانت من سمات العقلية الغربية .ولم تكن المدارس بيئة هذا الجيل الوحيدة بل كانت الحياة العامة ايضا من بواعث هذا التفكير في عقلية المتعلمين . وتجاوز موقفه من المنجزات الحديثة موقف الدهشة الى المقارنة بين تأخر البلاد الشرقية وانحطاط المدارك فيها .وبين تقدم الغرب وازدهاره ، كان شعار هذا الجيل النظام والمنطق المعقول . وكان ابراهيم يقرأ الكثير مما يكتبه الشبان النابهون من أبناء جيله ، وكان الأب أول اهداف الخصومة الفكرية ، غير أنهما التقيا حول فكرة النظام . وإذا كانا قد اختلفا حول "الله" فقد اتفقا حول السلطان والدولة . فالنظام يقضي أن يكون الحاكم مبعث الهيبة والنظام ، واختلفا حول بعض الظواهر العلمية مثل دوران الأرض حول الشمس ،إذ قال معلقا على قول ابراهيم بذلك وان الشمس كتلة ملتهبة (سمعت مثل هذا الكفر)(١) ، وكانا يتارعان حين يتناقشان حول الأفكار المتعقلة بالله والطبيعة والتقاليد . وكان ابراهيم مندفعا بتصديق كل ما يسمعه في المدرسة ، من أفكار جديدة ، فالوجود ليس صدفة أو حادث عجيب لا سبيل إلى تعليله ، ومن البديهي أن تصطدم مثل هذه العقلية الشابة بالتقاليد المألوفة ، وكان والده محمد شديد الدفاع عن معتقداته الدينية . ويؤمن أن الله هو المشيئة الخارقة التي تفعل ما تريد ، ولذا فإن أي حديث عن مبررات لأعمال الله الكفر بعينه(٢) . ولم يأخذ هذا الجيل عن أوروبا سوى القشور من مثل تفرد إبراهيم بلبس البدلة في الحي بأسره (٣) . وقد تزوج من (هدى) الدمشقية الجميلة ومن عائلة غنية منطلقة ، كانت ترى فيه الرجل الضعيف ، ووقفت من (سعدى) موقف التعالي الطبقي والاجتماعي (٤) ، وعلى الرغم من أن عقلية إبراهيم بدت معاصرة وجديدة قياسا لجيل والده فقد بدت إزاء زوجه هدى من جيل متخلف . وقد وجد في الأسرة والزواج الملاذ الذي انقذه من الأفكار السوداء وأعادت اليه الحياة وابعدت عنه الافكار المشؤومة(٥) .

١- العصاة : ٤٧

٢- السابق : ٤٧ ، ٤٩

٣- السابق : ٦٥

٤- السابق : ٧١ ، ٧٩ ، ٨١

٥- السابق : ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وجدنا تطورا في شكل العلاقات في ما بينه وبين ابنه قياسا لتلك التي كانت بينه وبين أبيه محمد آل عمران. إذ لاحظنا أنه دأب على تشجيع إبنه على الانخراط في السياسة تاركا له حرية المشاركة في القضايا العامة(١)وهو يثق بإبنه ويرى أنه اعقل من ان يخطئ ، ودفعه إلى التطوع وإلى الذهاب إلى فلسطين ، وقد تفهم حرية ممارساته وأفعاله في ضوء إدراكه لطبيعة جيله.

جـ) سعاد : القديم والجديد

أما سعاد وأسرتها فتمثلان نموذج الصراع بين جيلين صراع القديم مع الجديد ، نموذج التحرر المطلق من سلطة الأب وإرادته ، فقد مرت أعوام كانت فيها سعاد مثار الغضب الأبدي في حياة والدها ، ومن مظاهر قوة التحرر هذه أن جاءت الثورة من الأنثى حين صارحت والدها برغبتها في الزواج من يونس الشاب الفقير فلم يصدق ، واعتقد انها أصيبت بلوثة عقلية ، وهددها بالقتل بعد أن أصرت على تلويث هيبة الأسرة بمثل هذا الرجل الفقير ، ورفضت عطف والدها ، وهو موقف فيه تحد لو يترجم لكان، على النحو التالي (أنت أبي الذي أحبه وأحترمه وأريد سعادته ورضاه ، لكنك لا تحبني بكل تهيئني وترفض سعادتي . فليكن ما تريد فالغالب انني سوف أموت كما ترى فلا تحزن علي حين ادفن بل كن مطمئنا فكلمتك هي

١- العصاة : ٢٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العليا أبدا(١) وأخيرا تزوجا من غير مراسيم فرح (اذهبي معه عليك اللعنة إلى الأبد) . ونشر في جميع الأوساط أن زوجها تاجر من أشرف العائلات وأغناها في انطاكية . وفي الواقع انه شاب فقير عاشت وإياه عيشة متواضعة سعيدة ، غير أنها لم تحاول الاتصال مع ذويها ، اذ لم تكن موجة كبريائها قد انحسرت . ومثلما كانت سعاد مثال هذا النموذج كان ابنها أيضا ، إذ رد على والده يونس حين استفسر عما يريد اولئك الشبان حين احرقوا الطرابيش التركية صائحا:(أحرق الأتراك علمنا بالصباح وداسوه بالأقدام)(٢) مما جعل الأب يفاجأ بعقلية الصبي التي تكونت في معزل عن إشرافه الأبوي . و دأب يونس على حضور الاجتماعات لبحث سبل مقاومة الأعداء، وقد استطاع شاب أن يمثل وجدان ذلك الجيل بقوله (لسنا عربا فحسب بل نحن ايضا رسالة الشرف والحق في تاريخ البشرية)(٣) وقد شجعته سعاد أن يقف الى جانب الثوار . وهكذا مثلت سعاد واسرتها الجديدة جيلا يقف ازاء جيل والدها ، وهي تعرف نفسيته (إني أعرف والدي جيدا يريد مني أن أعلن الندم والتوبة وأن أقول وأنا أبكي على صدره : أبي لقد أخطأت لأنني عصيتك فاصفح عني ... هذا هو الطريق لاستعادة رضاه لكني لم اخطئ ولم أندم لقد اخترت حياتي معك لأنها السبيل الوحيد لأن أعيش بكرامة)(٤) وهكذا انفض معظم الأبناء من حول أبيهم ورحلوا بعيدا عنه وخالفه بعضهم الرأي مما جعله يثور على مواقف أبنائه التي شكلت تحديا له ولارادته ، فهذا عبد المجيد الابن الأكبر سماه بذلك الاسم تيمنا بالسلطان غير أنه جاء ولدا أبله لأنه لم يحفظ فاتحة القرآن ، وأخير باع الابن أملاكه وهاجر إلى بلاد بعيدة وانقطعت أخباره(٥) .

وهكذا فإن الجيل الثاني محطة على الطريق أنجب فيها الجيل الثالث المتمرد، الأكثر ثقافة وخبرة من الجيلين السابقين . وقد لعبت الثقافة والزمن الدور الأكبر في تكوينه، وان ضلت الطريق بعض النماذج حين لجأت الى التطرف ظنا منها أن الثورة على كل ما هو مألوف حداثة وتقدم حتى لو أدى ذلك الى انتهاك المثل والقيم والممارسات الشخصية.

١- العصاد :٦٣
٢- السابق : ١٤١
٣- السابق : ١٤٣
٤- السابق : ١٥٠
٥- السابق :١٠٥ ، ٤٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد قلل هذا الجيل الثاني يحمل بذور الجيل السابق وعقليته ، لكنه كان محطة لولادة جيل جديد يلتف حول مبدأ وعقيدة كانت الهموم الجماعية أولى أولوياته . وقد كان لاختلاف البيئات والعقليات في الأسرة الواحدة أثر في التحول والانفتاح فكان للأم في أسرة عباس دور كبير في ولادة جيل متفتح تمثل في عالية ومديحة ، مثلما كان للثقافة والجو الثقافي العام والخبرة دور في تفتح شخصية عدنان ، بحيث تقف هذه النماذج الجديدة ذات العقلية الجديدة ، مقابل عقلية عمران الذي قلل يحمل عقلية والده وجده ، وكان الجيل الثالث من رواد الجامعات على الرغم مما بدا في بعض مظاهر سلوكه من استهتار بالنظام والقيم فانصرفوا إلى دور اللهو من مثل ممدوح بن عباس العاق المستهتر بالتقاليد والأناني الذي لا يهمه من الحياة سوى مسراته الشخصية (١).

الجيل الثالث : جيل"العصبة" يمثل هذا الجيل قمة التطور السياسي في سوريا ، جاء الوعي القومي متلاحما فيه مع الوعي السياسي . وبلغت الروح القومية مرحلة متقدمة عندما تطوع هاني المنذر وفريق من شبان "العصبة " للجهاد في سبيل فلسطين عام ١٩٤٨.و تلمس حركة التغير عبر الزمان من خلال حركة الأجيال ففي الوقت الذي اتصل فيه محمد آل عمران بالوالي التركي والسلطان معتنا الولاء نجد الأمر يتحول لدى بعض الأحفاد ، إذ انضم عدنان إلى "العصبة" حيث يلتف جيل الشباب يخططون للثورة وصار الهم الجماعي هو المقدم بعيدا عن الهموم الفردية كما بدت لدى الجيل الأول.

كانت العصبة "هي المحور الذي التف حوله الجيل الثالث" المتمثل بـ (عدنان وسامي وهاني)، كانت قضيتهم سياسية وقومية ووطنية. وقد تفتح وعي عدنان في غمرة الاضطرابات السياسية التي كانت تجتاح المدارس في الفترة السابقة لعام ١٩٣٦، ذلك العام الذي اقترن بانتشار الروح الوطنية في أنحاء البلاد مما يوحي بروح الثورة والتمرد ، والتي حملها هذا الجيل وميزه عن الجيلين السابقين ، وبدأ هذا التفتح بالتفور من الجو العائلي على مستوى الأسرة ، يوازيه إنشاء جمعيات على مستوى الوطن ، ولعل في محاورات عدنان مع أحد الشيوخ ما يشير إلى هموم الجيل وقضاياه وما حل بالبلاد مقارنا بالجيل الذي قبله(٢).

١- العصاة : ٣٦٣

٢- السابق : ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٥- ١٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد عدنان أكثر شخصيات هذا الجيل حضورا في الرواية ، تثقف ثقافة جامعية وأجنبية ، مما يشير إلى آفاق هذا الجيل وثقافته وما يميزه من غيره من الأجيال ، وقد ركز ثورته على إحداث تغيير في العقلية والرؤيا والمواقف والأفكار ، و احتج على قيمة جيش قوي اذا كان خاضعا لعقول هرمة و تساءل ما قيمة ذلك ؟ فهو يدعو الجيل إلى الثورة وقلب الأوضاع الفاسدة وتغيير عقلية الأمة بالعمل السياسي، وركز على فضح الواقع بعد أن رأى الانحطاط والتخلف في الريف ، إذ رأى الانطفاء الكامل في عيون أهله ، وتساءل عن سر هذه الصورة من الإنحطاط وعن هذه الحياة البهيمية التي تأسرهذا الجيل اللعين ، وقد تضخم هذا الشعور في روح عدنان كلما قرأ شيئا من أقوال زرادشت، وينمو إحساسه بالتفوق على أبناء جيله(١) . وقد شرح عدنان هموم الأمة في رسالته التي أرسلها إلى سامي (٢) وأبرز قضايا الأمة الهامة كقضية الجلاء والاستقلال والثورة المسلحة. وأدرك أن هذا الجيل يمر بمرحلة من يقظة الضمير تتعلق بإعادة النظر في أخطاء الجيل الماضي والجيل المعاصر ، مرحلة تفحص الأمور التي درج عليها ، ويعتقد أنه يجب طرحها كما يطرح الثوب العتيق (٣) . وقد شارك فعليا في حرب ١٩٤٨ وظل يحلم بيوم الثورة يوم الميعاد ، وهي آمال ذلك الجيل ، ذلك اليوم الذي تنطلق فيه الجماهير الجائعة المهانة فتدمر الحدود المصطنعة في أرجاء الوطن الواحد وتجرف كل أثر أجنبي دخيل وتصنع حياتها الجديدة في زهو وانتصار ، ولهذا لم يفكر هذا النفر من الجيل في مستقبله الخاص، (أي أحمق يفكر أن يقيم منزلا على أرض يحركها الزلزال ؟)(٤). وقد لمسنا تباينا بين موقف هذا الجيل الفكري وبين أسلوبه الواقعي في الحياة ، ذلك أن عدنان ظل يدعو إلى الثورة والكفاح لتحرير الآخرين من الذل والبؤس في الوقت الذي يشتهي فيه الحياة وملذاتها في شغف مجنون ، فوجد في الملذات مهربا من هموم الواقع . وقد اعترف عدنان أنه رمز هذا الجيل (٥). و قد اقترن عدنان بابنة عمه عالية بنت عباس و هي

١- السابق : ١٧٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣
٢- السابق : ٢٤٣ - ٢٥٥
٣- السابق : ٢٩٤
٤- السابق : ٣٥١
٥- السابق : ٣٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمثل غاية التطور الاجتماعي ، إذ تمتلك القدرة على تقرير مصيرها بإرادتها الحرة و تنفيذ رغباتها . وتحقيق ما تطمح اليه نوعا ما و قد ولدت في بيئة متحررة ، فضلا عن تأثرها بواقع حياة والدتها هدى ، و إذا ما قارنا واقع حياتها بأسرة جدها أدركنا البون الشاسع و أثر الزمن في التغير مثلما يشير إلى ما حققته المرأة من تغير في تلك المرحلة .

بعد انهيار "العصبة" انكب على ذاته و تساءل عما إذا تخلى عن قضية الإنسان الحقة ، كان يشعر بتصدع في وجدانه التأثر و يرى الخيبة في كل منعطف ، فالأسرة عبء عتيق آن أن يزاح ، و الدولة ملجأ مضحك للمرائين و المرتزقة الموهوبين في فن المكيدة، و المجتمع بكل ما فيه مستودع للأشقياء و المعذبين ، و هكذا سيطرت عليه هذه الروح السلبية في أعقاب الفشل ، فوجه نقمته إلى رواسخ المجتمع كالأسرة و الدولة ، و يرسم لنا هذا الموقف خطوات ذلك الجيل التي تتسم بالتردد و الاضطراب (١) و أخيرا صمم و زوجه على مقاومة كل شئ في البلاد ، إذ من العار عدم فضح القدرات المكبوتة و من غير الكفاح يتعفن الإنسان ، و قد رد على رسالة أرسلها إليه عمران "لا قضية للإنسان في هذا الجيل إلا التفرد و لا بد أننا ورثنا هوانا سحيقا و نريد أن نثأر الآن بشئ من الكبرياء و كان لك ذلك في تجربة "العصبة" (٢) . و هكذا كان عدنان و زوجه عالية ثورة متقدمة على الجيل الماضي في العقلية التي كانت تجنح إلى الثورة و تحطم الحاضر لبناء مستقبل جديد .

و قد مثل سامي عضو "العصبة " الثاني العقلية الجديدة ، إذ ثار على أسرته وتقاليدها و على قيم مدينته حماة و تقاليدها و على واقعه العام ، فثار على الاحتلال و دعا إلى عدم الاستكانة و الموالاة ، كان ثورة على الجيل الأول و ثورة على النقيض ، فصار ملحدا ينكر وجود الله اعتقادا منه أن الخروج على الدين من مظاهر التفتح ، و بلغ به التطرف أن أحس بالتعالي على والد و لا سيما عندما طلب إليه والد قراءة بعض سير الأنبياء ، كانت ثورة غير واعية ، غالى في الثورة على الماضي ، و قد مثل ذلك تيارا و فريقا في هذا الجيل جنح إلى اللهو و انتهاك تقاليد الماضي ظنا منه أن ذلك في الاتجاه السليم ، و اتصل بشخصية ثقافية تركت آثارها في عقول الشبان آنذاك ، كانت مسؤولة عن تكوين سامي على نحو مستهتر غريب (٣) .

١- العصاة : ٣٨٣ ، ٣٨٤
٢- السابق : ١٩٠
٣- السابق : ١٩٣ - ١٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و انتشرت الاشتراكية في المجتمع السوري ، فاعتقد فريق من هذا الجيل الاشتراكية مثلما فعل سلمي ، إذ اعتقد أنها النظام الأخلاقي الوحيد الذي يمكن أن يبني عليه المجتمع ، ثار عليه جيل سبق يعتقدأنّ الاشتراكية تؤدي إلى الانحلال و إفساد الأخلاق ، و تبادل الجيلان الاتهامات ، فالجيل الجديد الذي مثّله سلمي اتهم الجيل الماضي بأنه يردّد ما تنشره مكاتب الدعاية الاستعمارية ، ورأى الجيل القديم في الجيل الجديد انه يردد ما ينشره الهدامون،واتفق سلمي وعدنان على وجوب الثورة على عقلية القديم الجامدة التي تلوّث العقول بالأضاليل ، وأعلن سلمي حريته في اعتقاد ما يشاء وانخرط في الأحداث السياسية وعلى شفتيه صيحة التمرُّد والثورة (١) .

وقد سقط سلمي صريعاً ، وعلّق على ذلك هاني وهو العنصر الثالث في "العصبة" بقوله " ان قتله اعلان مفضوح على نذالة العصر كله"(٢) وان مقتله قتل للحقيقة، ودعا إلى الإعداد المناسب لتحقيق الأهداف .

كان هاني المنذر ثائرًا شأن أعضاء "العصبة" بالكلمة والمشاركة الفعلية بالمظاهرات، ثار على واقعه مثلما ثارت قرينته على واقع أهلها المنغلق، فقد صدمته عقليتها ، إذ عاشت في بيئة تقليدية ترسّبت فيها قرون من الرجعية والجمود ، وتمثّل فيها موقفه وهو يجابه الأجيال التي انحدرت منها هذه النظرة الفاسدة إلى الحياة ومن ثم كان عنيداً في مقاومتها. وهي من أسرة محافظة غنية تقتيس الأمور من خلال العرف العام، فلم تكن سعيدة لأن أهلها غير سعداء لأنهم يكرّرون حياتهم ، غير أنها تفاهمت وزوجها واتفقا على مواصلة مشوار رفض الواقع والثورة عليه ، وهكذا عاشت في اسرة هاني ثورتان : على الواقع الاجتماعي المتمثّل في أسرة قرينته ، وثورة على الواقع العام. وقد لمع اسمه في ميدان السياسة لجرأته . كان في طليعة الفرق المسلحة التي تركّزت في فلسطين ، وعاشت أسرته في جو أشبه بنادٍ عائلي تلتقي فيه النخبة المثقفة من الأحرار الذين يعنون بقضايا الوطن ، وكانت زوجه سعيدة بهذا الجوّ ، مما يشير إلى أن المرأة حققت في هذا الجيل خطوة في ميدان التقدم(٣) .

١- العصاة : ١٨٢ ، ١٨٤

٢- السابق : ٣٤٠

٣- السابق : ٢٧٥ - ٢٨٠ ، ٢٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت " العصبة" في الحقيقة بيانات ثورية والناطق باسم الجيل الجديد المتعطش إلى الكلمات الصادقة، وهي ثورة الجيل على الأوضاع العامة ، ورد في بعض أعدادها ما يعكس القلق الذي يعانيه ذلك الجيل (إذا قدر لليهود إقامة دولة في فلسطين فذلك عقاب لنا لضعفنا وما يزرع الآباء من الخضوع يحصده الأبناء شقاء (١) مشيرا إلى أن المصير يشترك في صناعته أجيال متعاقبة . وإن جيلا ما يتأثر بأفعال أجيال سبقت . فالعصبة إذن هي صيحة التمرد والاندفاع على المرتزقة من رجال دين وحكام ومتآمرين وأصحاب الضمائر الملوثة من ممثلي الفساد، وأحس أعضاؤها من ذلك الجيل أنهم من صانعي التاريخ ، وأن التحدي هو الحياة والمعنى الحقيقي للإنسان . وقد ضمت " العصبة " عشرات من شباب الجيل الجديد معظمهم من الطلبة والمصلحين والمثقفين (٢) .

وصار الهم العام هو الذي يشغلهم ، وركزوا على فضح العيوب والإشارة الى الأخطاء واتخذوا من الثورة على كل ما هو واقع منهجا . وبالمقارنة مع الجيل الأول المستكين الموالي يبدو الفرق واضحا والتحول كبيرا ، غير أن بعضهم غالى في الثورة وتطرف ظنا منهم أن هدم كل شئ هو ثورة ، ودرجت على السنة شباب ذلك الجيل المولين للعصبة عبارات لم يألفها الجيل السابق من مثل "عنفوان الحياة" ، "نداء التاريخ " ، و"انقاذ الانسانية" ،"الثورة المقدسة" ، و "روح الأمة" (٣).

عاشت مديحة بنت عباس مع زوج من عائلة محافظة مغلقة ، كان زوجها سليم يتصرف وكأنه جزء من كائن كبير مهيمن هو العائلة ، فيختار ملابسه حسب الذوق العائلي، و هو عديم الشعور باستقلاله الشخصي يردد من غير ان يشعر آراء والديه ، و قد تذمرت مديحة التي تنتمي الى عائلة منطلقة من العيش في بيئة أهل زوجها ، التي تشبه بيئة زوج هاني التي استطاعت تغيير نمط حياتها بشق طريق جديدة مع هاني ، و لعل هذا الاختلاف هو الذي دفع سليم الى زوجها الى طلاقها لأنها شكلت له انتهاكا لتقاليد العائلة (٤) و هكذا نلاحظ أن في كل أسرة عقليتين تنتميان الى جيلين مختلفين يمثلان الماضي و الحاضر أو القديم و الجديد .

١- العصفة : ٢٨٦

٢- السابق : ٢٣٢ ، ٢٩٢

٣- العصفة : ٢٩٢

٤- السابق : ٣٢٢ ، ٣٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تأثّر هذا الجيل بشباب ذوي سلوك غريب متطرّف من مثل الأستاذ أيوب معلّم التاريخ الذي عاش حياة مستهترة ، و نشأ في عائلة فاسدة ، درس التيارات الثقافية الأوروبية و قرأ الماركسية و اقتنع بصحة تفسيرها للتاريخ الانساني ، و اعتنقها و بشّر بها و أثّر في أجيال عديدة من الطلاب ، و لم يتزوج لأنه من نفر من الجيل نَهَجَ نَهْجَ التمرّد على كل ما هو مألوف في أشكال الحياة الاجتماعية ، وآمن أنّ الكفاح يبدأ بالتجربة من كل وراثة اجتماعية ، فأيّ أحمق يزعم لنفسه الحرية و هو ينشئ سلالة من الوراثات ؟ و هو يعني بذلك تكوين أسرة،ماذا يبقى من شخصيته اذا رضخ لنظام الحياة مثل الآخرين ، و اتفق مع سامي أن بداية البناء تتمثّل بتهديم الدولة أولاً ، غير أن هذا الفريق لاقى صدوداً من معظم أبناء جيله ، ذلك أن آراءه يمتزج فيها العبث بالتشاؤم (١).

غير أنّ عقلية الجيل الأول لم تختف في الجيل الثالث ، إذ مثّلها عمران التقليدي الذي يعدّ من جيل جده ويحمل عقليته . وهو يرى أنه ينبغي الاحتراس قبل إدانة رجل الدولة إذ ظلّ كجيل والده يحيا على الاستكانة والولاء للنظام الحاكم ،ولهذا عارض كل محاولات الثورة وهاجم "العصبة" وأعضاءها ، ويرى أن الانسان حصيلة مؤثرات الواقع الاجتماعي والوراثة والبيئة وينبغي أن يعيش في ذلك الوسط ، وأنه لا يستطيع شيئا أمام القدر، ومن الخطأ تحدي الطبيعة فذلك خطأ يجرّه إلى خراب ، وعدّ الثورة شكلاً من أشكال الجنون،وهاجم "العصبة" وعدّ أعمال أعضائها ظواهر شاذة تشبه المرض،وهو يعتقد في رسالة أرسلها إلى عدنان أن الفقراء والمظلومين هم المخوّلون بمتابعة قضاياهم . وسارت حياة عمران بنظام كتعاقب الليل والنهار ، بنظام رتيب ، ذلك أنه يعتقد أنه عندما تسير الأمور حسب النظام فعندئذ يكون الشرف والاستقامة وعندما يخرج عنها يكون الفساد والفوضى ، وقد استغرب أن يُسجن أحد من آل عمران،وظل يعتقد أن الثورة،على الرغم من مبرراتها،هي تمرُّد وعصيان وهدم لاحترام الدولة ، وهكذا عاش هذا الفريق على الاستكانة والذل ، مما يشير إلى واقع مرحلة حضارية مرّت والى عقلية ظلت حيّة جنباً إلى جنب مع عقلية الثورة التي حملها الجيل الجديد، وهكذا لم ينتم

١- العصاة : ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الفريق من الجيل إلى الجيل الذي كان يجايله زمانيا(١) . وهكذا عايش هذا الجيل نماذج من الجيل التقليدي المحافظ الذي استقر على معتقدات هادئة مستكينة لا يمكن أن توصف من جانب هذا الجيل الجديد إلا بالرجعية ، مثلما تعايش مع تيار متمرد أرعن أفضى به الشك إلى تهديم كل شئ من مثل أيوب (٢) .

وقد مثلت المرأة التغير الاجتماعي ، رسمه الكاتب في غاية تحرر الذي يوحي بالمصير المؤلم الذي ارتكست اليه نماذج من المرأة حين انفتحت انفتاحا غير واع فقد تألم عدنان عندما شاهد امرأة في أحد المقاهي،فرثا فيها مصيرها الذي آلت اليه"اي شقاء جائر القى بها في هذا المكان ؟ أم تحمل جنينها بين السكارى ، من أجل المال ، و تنسج الثياب لطفل يرى قبل الولادة ، و هي نهبة لعيون الوقحة القذرة و مثار لأحط الرغبات . المرأة هذا الكائن العجيب ! مزيج من النبل و الابتذال) (٣).

ويلاحظ أن نماذج من هذا الجيل قد فهمت الانفتاح في الانتقال إلى نقيض المألوف والواقع ، تمثل ذلك في الانزلاق إلى مواطن الرذائل وفي اعتناق أفكار مناهضة -لأفكار الأسر المحافظة وافكار الأجيال السابقة المحافظة ، فقد صار سامي ملحدا ، واعتنق الاشتراكية فكرا واستهتر بالنظام ، وارتاد الأماكن المشبوهة وهو من أسرة محافظة .

ومثل هذا نجده في حياة كل من عمران وعدنان وأيوب(٤) . ويلاحظ أيضا أن تيارا من هذا الجيل ارتاد الجامعات للتعلم ، وأن قسما منهم غالى في تحرر وانفتاحه ، فوجه ثورته إلى كل ما يمت إلى الماضي بصلة . فثار أيوب على كل وراثة اجتماعية ، ورأى (سجيد) أن الزواج بدعة وأن الدين والأخلاق والزواج عوائق وضعتها نفوس شريرة لتفسد ملذات الإنسان(٥) . ويلاحظ الدارس أنه كان في كل أسرة جيلان لهما عقليتان من مثل إبراهيم وزوجه هدى ، وهاني وزوجه المحافظة ، وسليم وزوجه مديحة ، وكان اتجاه هذه الأسر يتجه نحو التحول ، ويلاحظ مدى التغير منذ الجيل الأول وانتهاء بالأخير ، فمن إنغلاق إلى تحرر وانفتاح ، ومن الإحساس بالفردية إلى الجماعية ، وتحولت النظرة إلى المرأة وصارت تشارك في مصيرها مثلما تحررت البلاد ، ونالت استقلالها . هذه هي الأجيال الثلاثة بتياراتها المختلفة التي عرضت اليها ثلاثية "العصاد" .

١- العصاد : ٢٧٠- ٢٧٢ ، ٢٩٢ - ٢٩٦
٢- السابق :٢٧٢
٣- السابق : ٢٣٤
٤- السابق : ١٩٧ ، ١٨١ ، ٢٧٠
٥- السابق : ٢٠٨ ، ٢٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

أجيال في " مدن الملح "

قال السلطان فنر لشقيقه راكان
" الدنيا ، وين ما تلفّتْ ، كلها بدو . يجوز
يكون بدو غير ديرة يلبسون غير ملابس
بدونا ، لكن العقل واحد ....."
بادية الظلمات ص ٥٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
أجيال في "مدن الملح" *

دخل الاستعمار الجزيرة العربية للتنقيب عن النفط فكان طابعه اقتصادياً و سياسياً . و استعان بالأسر الحاكمة على مدى أجيال متعاقبة . نلقي الضوء في هذا الفصل على الأسرة الحاكمة . أجيال شخصياتها الحاكمة ، و البناء الفكري و العقلي و الثقافي ، متلما نكشف عن القوى التي كان لها الدور الكبير في صنع القرار الذي يحكم سياسة الدولة و يحدد علاقاتها ، و سمات كل دولة و ما يميزها من غيرها . ركزنا على المدينة بوصفها أحد وجود الحضارة . على صفحتها تبدو منجزات الأجيال و مآثرها العقلية و الفكرية و الحضارية .تتبعنا تطور حران و موران منذ كانت كل منهما قرية صغيرة الى أن تضخمت و صارت "مدينة" بأحيائها و شوارعها و مرافقها . درسنا الأجيال الحضارية التي عاشت في ظل كل سلطان ، اذ اعتبرنا فترة حكم أي منهم مرحلة حضارية و جيلاً حضاريا . و طبقنا معيار الأجيال الزمني في تقسيم السلطنة فدرسنا جيلين من حكام آل هديب : جيل الأب (السلطان خريط) و جيل الأبناء (السلطان خزعل والسلطان فنر) ، أما الجيل الثالث الذي قضى على السلطان (فنر) فلم نتبين شخصيته،اذ وقفت الرواية عند تسلمه الحكم . ويأتي تركيزنا على الدول من خلال حكامها ادراكاً منا أنّ أولئك يحكمون وفي وعيهم انّ السلطان هو الدولة والوطن . وانّ الحكم إرثٌ حضاري انحدر اليهم من اجيال سبقت .ولعل ذلك ينطبق على بعض الأسر الحاكمة التي تعتمد الوراثة حكماً ، وركزنا على السلطان الحاكم بوصفه رمزاً للانسان العربي في حقبة من التاريخ .

---

* اعتمدت هذه الدراسة على خماسية عبد الرحمن منيف (مدن الملح).
١- التيه.ط٣ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٨.
٢- الاخدود..ط٣ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٨.
٣- تقاسيم الليل والنهار , ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٩.
٤- المنبت , ط١ , المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٩.
٥- بادية الظلمات.ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطنة الهديبية

١- دولة الجيل الأول : دولة السلطان خريط

شملت دولة السلطان خريط وادي العيون وحران وموران والعوالي والحويزة، وحكم حران امراء كانوا يتبعون السلطنة منهم خالد المشاري في وقت كان الامير خزعل ولي عهد ابيه ونائبه . تناول الجزء الأول (التيه) إمارة حران ووادي العيون , وغطى الجزء الثالث (تقاسيم الليل والنهار) والقسم الأول من الجزء الخامس (بادية الظلمات) بقية اجزاء السلطنة تناول الجزء الأول فترة التنقيب عن النفط المبكرة وما ترتب علىذلك من تحولات اجتماعية وسياسية واقتصادية و دخول أدوات الحضارة المختلفة وتوافد ابناء مجتمع المدينة من اقطار اخرى مسلحين بالعلم والخبرة الى مجتمع بدوي يعتمد على الفطرة والايمان بالقدر بوجه عام في تسيير أمور الحياة المختلفة وانطلاقا من ايماننا بأن المكان يترك بصماته الخاصة على حياة الاجيال ويفرض عليهم نمطا معينا من الحياة وان ارتباط جيل معين بمكان معين يوحي الينا بسمات ذلك الجيل وخصائصة فقد قسمنا السلطنة الى امكنة تتبعنا فيها تطور المدينة والدولة والانسان عامة ، ورصدنا سمات كل جيل وكل حقبة , ذلك ان التغير لم يكن بمستوى واحد في الأمكنة جميعا و لم تكن استجابات الأجيال واحدة . إذ اختلفت باختلاف الأمكنة وبناء الانسان الثقافي والمعرفي ،فضلا عن أن المكان والزمان يساهمان في تكوين الجيل ويؤثران فيه .

أ) حران : البداوة والبداية

تضم هذه الامارة منطقتي الحدرة ووادي العيون . نمضي معا في هذه الامارة نتلمس مظاهر التحول المختلفة التي رافقت النقلة الحضارية من حياة البداوة الى حياة النفط حين دخل الأجنبي الى جزيرة العرب في مطلع هذا القرن , فقد عاشت اجيال متعاقبة في هذه المنطقة حياة بدوية خالصة اعتمدت فيها على تربية الماشية , حياة بدوية صحراوية لها عاداتها واخلاقها وقيمها , وفرضت عليهم الصحراء حبا متزايدا للسفر واكتشاف المجهول طلبا للرزق . فالأمطار والقوافل عصب حياة وادي العيون والصحراء(١). فالمطر يغني التفاؤل

١- عبد الرحمن منيف : التيه ،ط ٣ . المؤسسة العربية للدراسات و النشر. بيروت ١٩٨٨ ص (٨-١٤)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفرح والخير واستقرار الآباء والأبناء ورائحة الخصوبة ، ويرافق القوافل الأخبار ورسائل الغائبين والرزق وروائح الأمكنة البعيدة ، وفي الغالب يرافق سنوات المحل الحزن والانطواء . و رياحها زرقاء باردة جافة تقتل المواشي و تطرد الغيوم و تجفف الغدران . هذاهو واقع حياة البداوة في صحراء العرب عاش فيها الإنسان على مدى أجيال متعاقبة ، و قد قدر لجيل متأخر أن يشهد تحولا حادا مغايرا لطبيعتها الى حياة لعبت فيها الآلة دورا كبيرا ، فكان لهذا الجيل تجلياته و معتقداته و مواقفه ، غير أن ردود فعل الإنسان و مواقفه اختلفت ، و لم تكن آثار الصدمة ووقعها واحدة لدى الجيل الواحد ، وكان التحول عن المألوف بمثابة دوي مجنون أشبه بالرعد ، غير أنه كان أكثر رسوخا في ذاكرة الجيل (١) . كان دخول الآلة الى الصحراء نهاية حقبة طويلة من الزمن و الحياة و دخول عصر جديد رافقه رحلة جماعية قسريه في قلب الصحراء عن أماكن التنقيب عن النفط ، رحلة تاه فيها أهل وادي العيون ، و هي بالموت أشبه ، ترسم لنا صورة ذلك الجيل في تيهه و هو يستقبل الحضارة الغربية من غير أن يكون مؤهلا لذلك ، و من هنا تدرك سبب تسمية الكاتب هذا الجزء "التيه".

تمثل قرية "حران" ببيوتها الطينية التي اتخذها الأميركان مقرا لشركتهم المثال الذي بدا فيه التغير واضحا ، و هي مؤهلة لذلك لوقوعها على بحر يطل بها على العالم ، فعلى صفحته وصلت سفن الأميركان الجزيرة ، و كان هذا الجيل الذي عاش في حران أقل دهشة من الجيل الذي عاش في وادي العيون ووقع الصدمة عليه أخف ، غير أن المرحلة الجديدة اضطرت قسما منهم الى التخلي عن أهم أدوات حياتهم لعدم انسجامها مع اللة الجديدة التي تعتمد على الآلة مثلما أحس بعضهم بالألم الموجع و هم يرون البيوت الفقيرة تتهاوى أمام الآلات .

لعل من أبرز مظاهر التغير في حياة موران أن حلت السفينة مكان الجمل ، واستجاب أهلها لحركة التغير الجديدة و اقتربوا ببطء و حذر من البحر الى أن صاروا يخوضون في مياهه (٢) ، مما يشير أن استجابات الجيل لم تكن واحدة أذ تدخل في تشكيلها المكان أحيانا ، و هكذا دخلت حران عصرا جديدا بعد أن كانت منسية ، صارت تستقبل السفن بعد أن كانت تستقبل الغرباء في أوقات متباعدة ، في حين أن قسما من ذلك الجيل لا سيما أولئك الذيلذين قدموا من أعماق الصحراء قد غرقوا في دوامة من التفكير و الحيرة و

١- السابق ٣٥٠ - ٣٥٢
٢- السابق ٩٧
٣- السابق ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٢
٤- عبد الرحمن منيف : التيه ص ١٧٢ - ١٧٥
٥- السابق ص ١٨٠ - ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقلق و الخوف و العجز (١) .

و قد رافق دخول الأجنبي عادات و ظواهر اجتماعية تختلف عن عادات ذلك الجيل البدوي مما أثار استغرابه و دهشته و حب الاستطلاع امترجت بالصمت الحزين و بالاحساس بالمرارة و القهر و أن الأيام القادمة سوداء و أن مظاهر الحياة تتغير عن مألوفها ، على الرغم من أن قسما من هذا الجيل تكيف شكليا مع الحياة الجديدة إذ لبس كما يلبس الأجنبي و شارك العربي الأجنبي في العمل، مما يشير الى اعتراف بالواقع الجديد مما أثار غضب جيل المسنين ازاء هذا التغير السريع ، (حران القديمة ، التي تخبروها ، اندرست ، ما بقي منها غير الجامع و المقبرة ..)(٢) هذا ما قاله الدباسي و هو يسمع الرجل المسن مشيرا الى درجة التغير و سرعته . و ظل غناء حران حزينا كأنها تنعي حياة توشك أن تنتهي (٣) وإذا كنا وجدنا بعض ابناء هذا الجيل يتقبل بحذر الحياة الجديدة فقد وجدنا قسما آخر يولي ظهره هاربا الى الصحراء يستعيد ما كان تنازل عنه ، ارتد الى الماضي وتمسك به , فلم يحتمل مظاهر الحياة الجديدة القادمة , غير أن تيار الحياة المتغير ظل يتدفق ، وشيدت حران العرب بسرعة فائقة وانشئ فيها كثير من مرافق الحياة المدينية , وازداد الخوف مع كل فوج جديد من الاجانب ، فاستعان ابناء ذلك الجيل ببعض ابناء جيلهم ممن لهم الخبرة والمعرفة بالعالم الآخرلمساعدتهم في الوقوف في وجه هذه الموجه من الغرباء(٤) .

لم يختلف موقف الأمير غافل أحد امراء حران عن موقف البدوي العادي من الواقع الجديد ، اذ انه عندما أحس بالتغير ارتبك وترك حران وقفل عائدا الى الصحراء وعد ما طرأ من تغير من المصائب الكبرى(٥).

أدرك العمال الذين اكتسبوا وعيا جديدا بالحياة الفوارق بين حران العرب وحران الاميركان مما ولد لديهم ضيقا شديدا في وقت كانوا يحسون فيه بالغربة والدهشة والانبهار لما يرون في حران الامريكان , فلم يملكوا سوى الصمت جوابا معبرين بذلك عن

١-عبد الرحمن منيف ص ١٨٣ - ٢١٠

٢- السابق ص ٢٤٥

٣- السابق ص ٢٥٠

٤- السابق : ١٢٩ , ٢٥٠ .

٥- السابق ص ٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدم رضا هذا الجيل وعن ضيقه , وكانت الفاجعة الكبرى حين قدمت حران (مزبان) اولى ضحاياها غرقا اثناء كان يعمل في توسيع الميناء(١) . وتكبر حران ويتسع ميناؤها وشوارعها ، وبازدياد حركة البواخر يزداد الخوف والتوجس من المستقبل . وتغير عالمها النفسي ، وانتقلت الى ابناء هذا الجيل عدوى الحياة المدينية فأحسوا انهم مشغولون في كل اوقاتهم وان حركة الزمان ازدادت سرعتها وازداد قلقهم ، وبدت في تصرفاتهم ظواهر عصبية زادها الجو الحار حدة , واتضحت ظواهر التغير في عيون بعض ابناء حران الذين عادوا بعد غياب . فلولا انهم عرفوا الناس لما عرفوا أنهم في حران وغرقت حران في همومها ، فمظاهر الحياة المدينية ترافقها مشكلات جديدة . فكل نهار يحمل معه جديدا ولا شئ ينتظر ويبقى ثابتا : البشر والطبيعة والاشياء(٢) وساهم بعض ابناء هذا الجيل من العرب الذين عاشوا في بلاد الغرب في حركة التغير اذ دخلت معهم بعض منجزات الحضارة المادية . وبأسلوب مضحك رسم لنا المؤلف كيف استقبل العربي منجزات الحضارة المادية وأثر الصدمة الحضارية . مما يوحي الينا بحجم الهوة بين العالم المتقدم والعربي المتخلف في تلك الحقبة من الزمن . لقد استقبل بعض ابناء ذلك الجيل الراديو بالخوف الممزوج بالفرح الطفولي , غير انه مع مرور الزمن صارت هذه المنجزات من اركان حياة العربي اذ دخلت كل بيت فاقتحمت السيارة مكاتب النقل العام .إن علاقة ذلك الجيل بالآلة في بداية الامر كانت علاقة انفصام لكنها تطورت مع الزمن ومع التغيرالحضاري وازدياد الوعي فصارت علاقة عضوية اساسية ليس بالمستطاع الاستغناء عنها(٣).

وعلى الرغم من دخول الالة ارض الجزيرة ومن ارتباط عجلة حياة ذلك الجيل بها الا ان التغير الذي حدث لم ينفذ الى الاعماق , لم يصل الى البنية العقلية ، وظل محصورا في القشرة الخارجية والظواهر السطحية , فقد عجز ذلك الجيل عن التجاوب الحقيقي مع التغيير. فتغيرت شكليات الحياة وهياكلها الخارجية . لأن الآلة لم تكن ابنا حقيقيا طبيعيا لذلك الجيل والبيئة فضلا عن الجهل الذي كان يعيق حركة التغير الحقيقية ، ولهذا انساق السلاطين والأسرة الحاكمة وراء شهواتهم الخاصة مما دفع بعض ابناء ذلك الجيل الى ترديد قوله تعالى "و في اذهانهم المصير و المال ، "وإذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا....."(٤) لكن السلطة اخيرا لم تصمد اذ اضطر الامير ومعه مسؤول الأمن جوهر الى الهرب من حران بعد رفض الأهل اجراءاتها.

١- التيه ص ٢٧٧ , ٢٩٧ , ١٢٨.
٢- السابق ص ٣٦١ , ٣٦٣ , ٣٦٧ .
٣- السابق : ٤٠٤ , ٤٠٧ , ٤٠٦ , ٤٢٠.
٤- سورة الإسراء : ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) موران : الدولة و القبيلة

برز دور الأجهزة الرسمية وتوسعت الدولة وامتدت ، بعد حروب خاضها خريط ضم بعض اراضي دول سقطت ، في ظل التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة . وزادت اهمية المنطقة وتصارعت قوى دولية خارجية فيما بينها لبسط نفوذها عليها وتحكمت هذه القوى في صنع القرارات وتوجيه دفة الحكم . وقد تمثل ذلك في علاقة هاملتون بالسلطان وبأبنه الامير قنز نائب ابيه في العوالي . نقرأ في هذا القسم منهجية التفكير الغربي ومنهجية التفكير العربي في تلك الحقبة من التاريخ ونقارن بين منطقي الدولة الحديثة و القبيلة في الحكم ونكشف عن صورتي الشرق والغرب لدى الآخر ونسلط الضوء على مدينة موران ورحلة التغير بوصفها احد منجزات الحضارة والأجيال.

حكم خريط في فترة كان الفكر السياسي العربي فيها ما يزال يرى ان الحاكم هو الدولة وان الدولة مرهونة بسلاطينها فهي موجودة ما داموا اقوياء احياء واذا ماتوا سقطت الا إذا حاول الابناء او الاحفاد مواصلة مشوار ابائهم في استعادة ما ضاع او اغتصب مثلما فعل خريط حين قتل مزهر بن سحيم في فترة كان العالم فيها يجتاز مرحلة من التقلبات الكبرى وبرزت فيها قوى عظمى تحكمت في مصائر دول وشعوب اخرى . فلقد سقط حكم مزهر حين تحرش بأصدقاء بريطانيا وطلب المساعدة من الأتراك ، فخرج بذلك عما هو مرسوم له . وقامت دولة خريط حين قتل مزهر وأثبت خريط انه قوي يعتمد عليه . فعينته بريطانيا عميد الأمراء الصغار وكلفته بحماية طرق القوافل ومراقبة الجيران وشواطئ البحر الشرقية . وصارت موران دولة كبرى وعينته بريطانيا سلطانا بعد ان كان اميرا وتحرك به جنون التوسع فضم العوالي والحويزه الى موران (١) . كان هذا الجيل من الحكام اداة بيد الاجانب . جاءوا به الى الحكم وهم الذين يملكون تقرير مصيره . وتجرع الجيل الذي عاش في تلك الحقبة ما فعله اولئك السلاطين .

١- عبد الرحمن منيف : تقاسيم الليل والنهار . ط١ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٩ ص ١٣ - ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلقي الضوء في هذا القسم على صورتين متناقضتين : الغرب والشرق ، الدولة و القبيلة، الحضارة والبدائية،من خلال عقليتي هاملتون والسلطان . قدم هاملتون الى موران وفي ذهنه أنه نبيُّ موران جاءها يبشّر بدين الغرب وأفكاره ، وفي ذهنه أيضاً فكرة مشوهة عن العرب ، فهم الشاهد الحيّ على الانسان البدائي في مراحله الحضارية الأولى من غير أن يتطور ، فكأنهم جيل واحد على الرغم من مرور سنوات طويلة على وجودهم في الجزيرة ، فالعرب لديه في هذا العصر هم ماضي الحضارة الانسانية ، ففي هذا العصر يجتمع ماضي الحضارة مع حاضرها في حقبة واحدة ، ولأنّ قومه يؤمنون بقيمة الماضي ودوره في بناء المستقبل فقد جاء هاملتون ليقرأ فكر هذا الجيل من المجتمع البدائي، و ليكتسب ثقافة من خلال الحواسّ بعيداً عن أسوار الجامعات . و هو يدرك أنه لا يمكن معرفة الغرب من غير معرفة الشرق،ولا معرفة اللغات الحديثة من غير معرفة اللغات القديمة ، و لهذا أدرك أنه من خلال اختياره اللغات الشرقية أنه مخلوق لمهمة حضارية عظيمة . و قد أشار الى أن الشعوب البدائية جديرة بالدراسة لأنها تعكس صفات الانسان الأساسية التي أصبحت مجهولة،لابتعاد المجتمع المعاصر عنها ، و لهذا عاش هاملتون في صحراء العرب ، قرأ فكر هذا الجيل بغية الوصول الى أعماقه و كشف مكنوناته (١)، و أدرك أن عمته (ماركو) على حقٍّ إذ قالت له " يجب أن تذهب عميقاً في مجتمع معين لمعرفته و اكتشافه و يجب الاقتراب منه بروح من التعاطف و الرغبة لكي نصل الى الحقيقة" (٢) . و تجد هذه الرؤية الغربية لذلك الجيل لدى زوج هاملتون اذ رفضت أن تنجب ولدها في ذلك المكان الموحش الذي يسبب للانسان مرضا لا يفارقه ، بل تريد أن تنجبه في مكان طبيعي و في ظروف لا تجعله معقداً أو حاقداً على والديه (٣) . و قد ظلّ هاملتون يفخر بقول والده (خلق الشرق ليكون ملعباً لفرساننا و خيولنا) (٤) . و كانت مهمته تتمثل في إعادة رسم خريطة المنطقة بما يتفق و مصلحة بريطانيا ، و هكذا جاء و في وعيه رؤية سوداء عن الإنسان العربي مع إدراكه لأهمية الشرق في الحضارة الانسانية . ذلك أن الشرق لديه ليس مكاناً جغرافياً فحسب

١- نقاسيم الليل و النهار ص٦٢ - ٦٤
٢- السابق ص ٦٢
٣- السابق ص ٨٩
٤- السابق ص ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"انه ذاكرة البشرية و بؤرة تناقضات الحياة ، طفولة البشرية و شيخوختها في صورة تذكر بالجد الذي يمسك بيد الحفيد يريد أن يطلعه و يعلمه سر الحياة ، و الشرق مستودع عذابات الإنسان وهمومه و أحزانه و أفراحه" (١) .

وقد صاغ هاملتون صورة الانسان العربي أو الشرقي من خلال اطلاعه على حياة ذلك الجيل و من خلال اطلاعه على التاريخ الحضاري لتلك المنطقة ، فرسم بذلك صورة قاتمة سوداء لذلك الجيل . فهو يدرك أن فهم الشرقي للزمان قاصر ، اذ لا يدرك سوى اللحظة و الظاهر بعيدا عن الجوهري ، لا يستفيد من الماضي ، و يميل الى النسيان ، لأنه بدون ذاكرة وفاته أن يدرك أن الخيمة التي يري فيها مثال تكوين الشرقي العقلي هي التي تلائم الصحراء وان تأثره بالأني دليل على حياة الصحراء ذلك ان الخيمة ليست دليل استقرار بقدر ما تدل على بيئة متحركة متنقلة . ويرى ان افكارهم وعواطفهم كثيرة التغير والتقلب بتغير المناخ (٢) والزمان لديهم مطلق كالصحراء والريح لا قيمة له (٣) ويرى انه لفهم شعب من الشعوب لا بد من دراسة بنيته العقلية وطريقة تفكيره ومعتقداته ، وقد استطاع ان ينفذ الى جوهر حياة البادية والنفس الانسانية في الصحراء ، على الرغم من انهم كانوا ينظرون اليه بارتياب ، وانعكس هذا على رؤيته لهم ، ظل يحس بالخوف من نظراتهم القاسية الكاسحة . فالبدو لديه او لو مكرشديد (٤)لا يحسنون استغلال المال، بل يفسدهم ولا يحل مشكلاتهم ، واذا امتلكوه اساءوا انفاقه ، على الرغم من انهم يحبونه كثيرا ، واذا اعطوه صاروا أطوع ويتحولون الى كائن لا يعرف سوى كلمة (نعم) وانهم مقابل المال يحتكرون المعرفة والمهارة (٥). ولفت انتباهه دور الدين وقيمته في مجتمع الصحراء وقدرتهم على الكلام وتبرير المواقف وادرك ان حياة البدوي تقوم على رابطة الدم وعلى القرابة والمصاهرة والعصبية القبلية ، فرابطة الدم تتحكم في كل شيء ، ويرى انها ظاهرة تميز المجتمعات البدائية عامة (٦) .

غير اننا نجد مقابل صورة هذا الجيل القاتمة صورة اخرى مشرقة تبدو من خلال اعجابه بعلاقة الانسان بالطبيعة ، اذ يعتبر نفسه جزءا منها وشكلا من اشكالها وامتدادا لها ، وان الموت وجه اخر للحياة على عكس نظرة .

١-تقاسيم الليل والنهار ص ٦٤
٢ - السابق ص ١٢١
٣- السابق ص ١٦١
٤- السابق ٨٧
٥- السابق ص ١١٣.
٦- السابق ٣٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغرب للطبيعة الذي يعد علاقته بالطبيعة علاقة صراع ، وهكذا فإنَّ علاقة الصحراء بانها علاقة تعاطف وتكامل ، وان بشر الصحراء هم نباتها الحقيقيون. ووقفَ مبهوراً أمام ذكاء البدوي الخارق:اذ يمتلك ذهناً صافياً خصباً وقدرة فائقة على الحفظ لظروف الحياة والمناخ)ذلك انه من غير حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء فإنَّه معرض للهلاك (١) .

في جولتنا في فكر هاملتون ورؤيته للعربي وكشفه عن بدائية حياة ذلك الجيل وعقليته البدوية القبلية ما يفيدنا في تلمُّس القضايا التي ركَز عليها في توجيه دفة السلطة بما يخدم مصلحة الاستعمار، ولهذا ركَز على طريقة تفكير الانسان العربي للوصول الى طريقة فضلى للتعامل معه. ولقد وقع على الهوة الساحقة التي تفصله عن عقلية العربي في تلك الحقبة، ادرك انه ينطلق من مفهوم الدولة الحديثة القوية يقابله سلطان يحكم بمنطق العشيرة في الصحراء ، ولقد ظن السلطان أنَّ إقامة هاملتون في الشرق بمحض صدفة عابرة ، فبدا فرحاً كطفل مبهور، وقال وهو (يمشّد) على لحيته:يتذكر الجهد الذي بذله لاقناع (الصاحب)بالبقاء لم يذهب سدى ، فقال (رُبَّ صدفة خيرٌ من الف ميعاد) وفاته ان يدرك ان القوى التي قررت إبقاءه هي القوى نفسها التي قررت إبقاءه ، وردَّ السلطان بعقلية شيخ القبيلة ومنهجها (الحق اللي تقوله يالصاحب ، وأظنك قررت أن تعيش معنا ... وتعاونّا)(٢). وفات السلطان أن يدرك أنَّ مهمة هاملتون تتعدّى استبدال ملك بآخر في شرق يعجُّ بالملوك ، بل هو منذور لإقامة مملكة من طراز جديد (٣). ولقد طبَّق هاملتون على جيلين من السلاطين ما يراد من أن : الملوك المتقدمين بالعمر يحتاجون الى من يقول لهم كيف يجب ان يعملوا ليواصلوا الحكم ، اما صغارهم فبحاجة الى من يقول لهم : ماذا يجب ان يفعلوا (٤).وكان خريط حريصاً ان يؤكد لهاملتون انه يملك القدرة ما يجعل الأمور سهلة ، وصار المهم لديه ان يقتنع (الصاحب والخويا) وقام هاملتون بالدور الرئيسي في توجيه السلطة وفي التحكم بمصائر الناس مما أثّر في حياة ذلك الجيل و في ترسيخ دعائم

١- تقاسيم الليل والنهار ص ٦٥، ٦٧، ٧٠
٢-السابق ص ٦٠
٣- السابق ص ٦٦
٤- السابق ٦، ٦٨، ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حكم وأعراف في السيادة لدى أجيال لاحقة من الحكام، فكانت أمانة حملوها وحافظوا عليها . وهكذا كان هاملتون عقل السلطان وعقل موران . فهو الذي اقترح تصفية المتنافسين في ممالك الجزيرة العربية ، وكان هاملتون في أعقاب كل خطوة ينفذها السلطان يجتزيء من كتاب " الأمير" لميكافيللي (١)،مما يشير الى أنّ السلطان كان بارعاً في تنفيذ ما يسند اليه . فبعد الاستيلاء على الحويزة قال هاملتون (قرأت في بعض الكتب أنّ من يريد أنْ يضع يده على ممتلكات جديدة ويودُّ الاحتفاظ بها أنّ يجعل نصب عينيه أمرين : إبادة الأسرة الحاكمة السابقة وإعادة إحداث تبدّل جوهري في هذه الممتلكات) (٢) وكان السلطان فرحاً لأنه يطبّق تعليمات هاملتون . ويزمن هاملتون ان تأهيل السلطان أو الملك يتطلب منه السفر للاطلاع على العالم ويكتسب خبرات جديدة تؤهّله لذلك ، ولهذا فقد اقترح على السلطان أنْ يرسل (فنر) الى بريطانيا،فاذا تغيّر المكان تغيّر الانسان . وهاملتون الذي يتعامل مع السلطان من منطق الدولة الحديثة يدرك أهمية ذلك . وحيث أن آفاق اهتماماته عالمية دولية ولأجيال لاحقة، فقد فوجيء السلطان بذلك الطلب وبمنطق القبيلة الضيق ردّ مشيراً الى آفاق اهتمامات الفرد المثلى في الصحراء التي تتمثل في الصيد والغزو ، وعدّ ذلك أمراً خطيراً ، " نسفّره هنا أو هنا ، يا الصاحب . يروح للقنص ، أو يسيّر على جماعة من جماعتنا ، أو يروح يحارب" (٣) وبعد ان وافق قال (فيك البركة يا الصاحب انت صرت واحد منا ، وتمون ، وتعرف كل المشاكل والهموم) (٤) وقال يودّع فنر ويوصيه (وتسلّم لي على ملك الانكريز وتقول له أبوي يسلّم عليك كثير السلام) (٥) وعندما عاد هاملتون ومعه (فنر) أخبر السلطان بصعوبة الرحلة وأهميتها ذلك ان مناقشة القضايا مباشرة أفضل من طرحها من خلال تبادل الرسائل،فعقّب خريبط رمز ذلك الجيل بمنطقه المعهود (قلني ان الجماعة اللي وصلوا هناك ما نقلوا كلامنا زين للجماعة هناك ، لان الجماعة أبدْ ما ينسون .... وروحتك كانت ضرورية وجا من وراها الخير ....الحق اللي تقوله لأن مواجهة العين بالعين أحسن من ألف رسالة .... و ان شاء الله الجماعة

١- ولد ميكا فيلي الايطالي الجنسية عام ١٤٦٩ ، عمل في السياسة وضمّن خبراته في كتاب سمّاه (الأمير) كتب في مقدمته إهداء الى لورنزو الجديد أحد افراد اسرة مديشي الحاكمة آملا بذلك ان يدعوه المديشيون للعودة الى الخدمة العامة و الجاه والمنصب :
أنظر نيقولو مكيافللي : الامير،تعريب خيري حماد ، ط١٢ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٩٢.
٢-نقاسيم الليل والنهار ص ٧٠
٣- السابق ص ٧٤
٤- السابق ص٧٥
٥- السابق ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

راضين عنا ؟ .... والجماعة هناك خوش بوش ، ولو شدّوا لهم الرسن ما كان الأمر صار بهذا الشكل ...)(١)تلك هي آفاق اهتمامات ذلك الجيل من الحكام وتلك ثقافتهم ومناهج تفكيرهم ، وهكذا لم يتخفّف السلطان حتى من المسمّيات التي يستعملها في تعامله مع حيوانات الصحراء ، فكيف بالعقلية ؟ لقد حملوا بدويتهم وعقليتهم وصحراءهم وحياتهم وأرادوا أنْ يطلوا بها على العالم الآخر ، ولم يدركوا أنَّ عليهم أنْ يعيشوا في عصرهم وان يتثقفوا بثقافة الانسان المعاصر .

وكان هاملتون هو الذي قرّر أنْ ترحل عائلة آل ماضي عن العوالي وأن يسقط حكمهم الى الابد وأن يترك للأجيال حقّ تقرير المصير حين رفضها الانجليز،وقد تحقّق ذلك بعد حرب العوالي اذ انتصر خريط الذي كان يظن انه يحارب من أجل رفع راية الاسلام ، وركب المعزّ البحرَ مهزومًا مثلما ركب والده من قبل.وفَرِحَ خريط ودموع الفرح في عينيه يردّد أن "الله سبحانه يعطي الملك من يشاء ويذلّ من يشاء ويعزّ من يشاء"(٢)ولم يكن قرار الحرب الذي اتخذه الانجليز مزاجيًا او اين لحظته بل تدخّلت به قوى وعلاقات دولية،وهذا ما أثار خريط اذ قال (لكنهم مثل البغال لا يفهمون ولا يتحركون إلا حسب مشيئتهم وأهوائهم) (٣) ذلك ان القضية ليست مرتبطة ببضع مئات من السيوف أو الفرسان ، إذ دخلت في حياة هذا الجيل قوى سياسية لها قراراتها الخاصة ، فالانجليز هم الذين يغيّرون الملوك والدول . وقال هاملتون لنفسه وهو يشهد احتفالات السلطنة بالانتصارات (من الرائع والمفيد أن يعتقد هؤلاء السلاطين أنهم كبار وعظام ، وأن يكونوا واثقين هكذا ، وأن ينظروا الى الآخرين دون ان يرفّ لهم جفن . إنهم تُجعان حين يتحدثون ، ولابدّ أن يجيء وقت يتوهمون انهم فعلاً يصنعون التاريخ . لكن من حسن حظ التاريخ ، خاصة الآن ، انه يصنع في أماكن اخرى ، وانه رغم العلاقات التي تميزه ، ولا يخطيء في قراءتها الكثيرون ، فانه لا يصر على ان يُستهلك في مكان محدد خاصة مكان صناعته ، فهو ملك مشاع ، ويمكن لأي قوي أن يدعيه كما يمكن لأي واهم أن يدعيه أيضًا ، مستغلاً ضعف الآخرين او جهلهم) (٤) لقد أصاب هاملتون حين جعل هدف هذه الحرب رفع راية الاسلام وحين

١- تقاسيم الليل والنهار ١١٠-١١٢
٢- السابق ص ١٦٣
٣- السابق ص ١٣٥
٤- السابق ١٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اختار قائدًا وجنودًا يلتهبون حمية دينية)وهذا يؤكد تعمقه في دراسة بنية ذلك الجيل العقلية والنفسية وأهمية ما أشرنا اليه في صدر هذا الجزء من رؤية هاملتون للشرقي والعربي والبدوي ، اذ لم يكن ذلك عبثًا ، وقل الانجليز هم بوصلة السلطان ودولته (١).

وكان هاملتون هو الذي اقترح تسمية السلطنة بالسلطنة الهديبية نسبةً الى الجدّ الأعلى "هديب"(٢) لربط الدولة بالأسرة ، مما يكشف من جانب آخر عن سمات التغير الشكلية الظاهرية ، وقد اهتم هاملتون بالسلطنة فلا شيء يفوق الاهتمام بها وانه يعمل لتكون الأقوى ، فردّد عليه السلطان بمنطق ساذج بسيط (ما يمر يوم إلا وأوصي أولادي ، وكل الجماعة ، الصاحب ، يا جماعة الخير ، احرصوا عليه وما تخلوه إلا راضي)(٣) وأخيراً وقع هذا الجيل من الحكام في قبضة الاستعمار، فرسم مصيره ومصير الأجيال المعاصرة والقادمة ، ونفّذ الاستعمار رغباته ومخططاته بما ينسجم ومصالحه ، بدا ذلك واضحاً حين رسم خريطة الشرق العربي ، فقد قال السلطان لبتلر وهو يقسم له حصته ويحدّد له حدود مملكته بعد أن رفض بتلر ان يعطي السلطان ما يريد .." أخذتَ نصف مملكتي وجعلتني عارياً أمام رعيتي ، ولا أعرف كيف أقابل الناس أو كيف أنظر إلى وجوههم .."(٤) وأثناء لحظة الضعف هذه التي تخلّلها ذرف الدموع والبكاء حدّد بتلر بقلمه الأحمر حدود سلطنة موران . وردّ السلطان كاشفًا عن عقليته الساذجة (ويلزم تعرف يا الصاحب : انكم اذا غبنتمونا هذه المرة لكن لابدّ تعوضون علينا ، وهذا دوم يحصل بين الشركا والاخوان ..والله وبالله لولا الواحد يريد يخلص ، ما كنت أقبل : لكن ما يخالف")(٥) وهكذا يتضح أنّ هذا الجيل من الحكام ، كان أداة بيد الاستعمار ينفذ مخططاته ، ويعطيه ما يشاء ويخلعه متى اراد ، كان حقاً جيلاً ساذجا جاهلاً يعكس صورة الجيل الحضاري في تلك الحقبة ، تحكمه أعراف القبيلة التي لا تصلح إلا لها،أما التعامل مع القوى الدولية والسياسية المعاصرة فيحتاج الى رجال يمتلكون من الوعي والمعرفة والخبرة ما يؤهلهم لذلك .

و قد أشار هاملتون نفسه الى أن

١- عبد الرحمن منيف :بادية الظلمات ، ط ١، المؤسسة للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٨ ص٤٤
٢- السابق ص ٤٦
٣- السابق ص ٤٧
٤- تقسيم الليل والنهار ص ٢٣٧
٥- السابق ص ٢٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السياسة ليست الرغبات والاهواء والافكار التي تدرس في الجامعات بل هي صراع القوى والمصالح وادارة الممتلكات . وهو صراع معقد وحين أخلت بريطانيا بوعودها نحو السلطان قال لها هاملتون وفي ذهنه سوق موران وتجارها (جماعتك ما حليوا معنا صافي . كل اللي رادود قلنا لهم : حلت البركة على العين والرأس الحق على الجماعة هناك لأن جماعتنا تجار موران وهم يتبايعون ويتشاطرون وحين يقسمون يقولون اوله شرط اخره سلامة . الحق علينا لازم من يوم . ما تسالمنا ويوم ما حطينا ايدينا بايدي غيرنا نقبل هذه الشروط . لكن ثقتنا اوصلتنا الى هذه المواصيل(١) .هذا هو دور القوى الاجنبية في صياغة حاضر موران ومستقبلها ، وقد تحكم السحرة والمنجمون بعقلية السلطان وكان لهم اثرهم في سياسة الحكم ، مما يدل على ان الواقع الذي عاشه هذا الجيل كان يرزح تحت اشكال شتى من الجهل فكانت ارادته ضعيفة فانكفأ على نفسه حبيس قوقعته . وكان السلطان حريصا على حمل (الحجب) على جماله عند رحيله الى الصحراء . ذلك انه يعتقد ان فيها ذخر الدنيا والاخرة . وقد اثرت هذه العقلية في رسم صورة الدولة مثلما اثرت في تصرفات السلطان وفي نفسيته (٢) ولقد اصاب (فنر) حين قال موضحا موقفه رؤاه في منهج الجيل من الحكم (ان جماعتنا يتصرفون بالسياسة مثل ما يتصرفون بالزواج والسفر. يقرأون الاستخارة يوم الخميس)(٣) وليس أدل على تخلف هذا الجيل وتدني ثقافته ووعيه من انه يرى في الآثار الانسانية محض حجارة واصنام . ولم يدرك انها ذاكرة الاجيال المادية وحافظة منجزاتهم من النسيان ولتظل شاهدا على ان اجيالا بشرية قد رحلت ولتكون عبرة للأجيال اللاحقة وان الفناء هو المصير الحتمي الذي يؤول اليه الانسان . ولم يدرك هذا الجيل ان التاريخ لا يمكن ان ينقل الى مكان اخر . وان كل من يريد ان يدرسه او يكتب عنه يجب ان يأتي اليه طائعا مختارا ، وان من الاخطاء التي وقع فيها كثير من المؤرخين انهم جردوا التاريخ من روحه ومن المكان الذي وقعت فيه احداثه ومن البشر الذين كانوا جزءا منه . ورد السلطان على هاملتون الذي كان يضحك على راي السلطان وموقفه من الآثار والتاريخ (ما دام هذا رأيك فالحجارة . بمكانها ، وقال جماعتنا : الحجر بمكانه ينفع) (٤)هذه صورة هذا الجيل ، جيل تحكمت به قوى اجنبية ومنطق القبيلة وهواجس المنجمين ، فاية دولة ستكون دولتهم واي مستقبل ينتظرهم ؟ فضلا عن ان هذا الجيل اقترف جناية بحق التاريخ حين ظن انه من صناعه ونسي انه اداة بيد الاجنبي

١- تقاسيم الليل والنهار ص ٢٧٦ ، ٢٧٧
٢- بادية الظلمات ص ٨٤ ، ١١٧
٣- تقاسيم الليل والنهار ص ٣١٢
٤- السابق ص١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحيث ان التاريخ لديهم هو تاريخ المنتصرين فقد حرص هذا الجيل على كتابة التاريخ وصياغته كما يروق له،وذلك برواية الحدث بأشكال مختلفة. وفي ظل تعقّد الأحداث وتشابكها وتداخل المصالح فيها لاختلاف الرواة وتناقض رواياتهم وتغيّر موازين القوى فقد تشوّه وجه التاريخ،ولقد كان من خطة هاملتون الوصول الى مرحلة يعتقد فيها هؤلاء السلاطين انهم كبار وعظام وأنْ يتوهموا أنهم فعلا صُنّاع التاريخ (١)

وكانت المدينة (موران) المرآة التي انعكست على صفحتها ممارسات ذلك الجيل من الحكام،فكانت المدينة بوصفها أحد تجليات الجيل ومنجزاته رمز الانسان فيها ، اذ تُمثّل ضمير الشارع العام و موقف الانسان فيه ، كانت موران ضحية حكامها ، على الرغم مما طرأ عليها من تغير مادي ظاهري في مرافقها العامة ، فإنْ نجت من ويلات الطبيعة الصحراوية المتمثلة بالجراد والهواء الأصفر والرياح القاسية فإنها لم تنجُ من الحروب والغزوات التي يسببها حكامها ، فكانوا يتنازعونها كالنسور ويحولونها الى جحيم مما يجعل الحياة خوفاً مستمرًا ، وهكذا كانت موران تكبر وتصغر تبعًا لهذه العوامل الطبيعية والانسانية ، وهكذا أيضاً جنى أولئك الحكام على الحجارات الأجيال فدمّروها وأحالوها رماداً (٢) ولهذا ظلّ أبناء موران يحسّون بالولاء والانتماء الى مدينتهم موران ، كانوا يعودون إليها وفي وعيهم انهم يعودون الى أُمهم التي تربوا في حضنها . وظلت موران تدفع عنها الغرباء الذين يريدون مزاحمة أبنائها في رزقهم ، ظلت كذلك أجيالا متعاقبة ، ولهذا كان أبناؤها يحسّون أن موران الغافية في أعماقهم تستيقظ وتدعوهم الى العودة إليها ، ويدركون أنّ القوة التي دفعتهم بعيداً عنها هي القوة نفسها التي تتفجّر داخل كل منهم . وتقابلهم موران بالموقف نفسه فهي لا تنسى أبناءها ولكنها تحسّ أنها ضحية حكامها ، اذ تضطرب من الحروب والجوع والخوف فتغرق في صمت عميق احتجاجا على ما يفعله نفر من أبناء ذلك الجيل (٣) . فالمدينة إذن ذاكرة الأجيال وصفحة في تاريخها.هذه العوالي امتلأت ذاكرتها بأجيال مختلفة من حكامها ، تعي ما قاله الأتراك و خريط و ابن ماضي ، و تعي أن حكامها يأتون و يذهبون و مع كل منهم : الموت و الجوع و الحصار . و لهذا لجأ الإنسان في المدينة الى

١- نقاسيم الليل والنهار ص ١٤٧ ، ١٦٥.
٢- السابق ص ٩ ، ١٠
٣- السابق ص ٢٢٠-٢٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التكتة ليروّح بها عن نفسه ، وظلت المدينة تعتزّ بفنانها وتعتبره سلوتها الحقيقية مثلما تعتزّ بمغنيها وتعتبره رسولها ، فهو الذي ينطق بهمومها ، وهو قارىء تاريخ لا محض مغن . وقد لخّص مغني العوالي رأيه في ذلك الجيل من أبنائها (الخوف قاطع قلوبهم ، لكنهم يعشقون ويغنون بالسرّ ، ما احد يأمن لغيره وكل واحد يخاف الثاني) (١) ويظل الأمل بالمستقبل الذي يحمل معه جيلاً من الحكام أفضل من سابقيه حلم المدينة .

مواقف الجيل

أ- الشرق والغرب

كانت صدمة الحضارة الجديدة قوية أفقدت العربي حسن التصرف ووضوح الرؤية ، فولّى ظهره عائداً الى الماضي . كان الواقع الجديد هو التحدي الأكبر ومرحلة جديدة تهدّد وجوده وجعلته يخشى المستقبل ويتوجّس منه . وبدا وقعها أقسى لدى اولئك الذين لم يكتسبوا مزيدا من الدربة والخبرة والاختلاط بثقافات الأمم الأخرى . واذا كانت رحلة العربي في الصحراء قد اكسبته خبرة جديدة في واقع حياة البداوة فانها لم تكن ذات فائدة في هذه الحقبة الجديدة ، فقد غزت التجربة الجديدة هذا الجيل في عقر داره وداهمته فكان من الطبيعي ان تتشكّل هذه الصورة وهذا الموقف لدى جيل عانى من الجهل وفي ظل واقع لعب السحر والتنجيم دوراً في صياغته . ويختلف هذا الموقف عن موقف نفر من أبناء هذا الجيل ممن اطلعوا على ثقافات العالم وانجازاته فلم تكن الصدمة قوية عليهم . ويظهر موقف الرفض هذا في أُسرة متعب الهذال البدوية ، اذ تاهت في صحراء العرب وتشتّتت بعد أن رحلت قسرياً الى مناطق أخرى ، فكان هذا الرحيل صورة للتيه العربي وهو يواجه الحضارة الغربية ، غير انه من الدقة القول ان وقع الجديد على أفراد الأسرة الواحدة لم يكن واحداً ، فاذا كان متعب قد دخل الصحراء والماضي ولم يعدْ فقد ظل ابنه شعلان في وادي العيون يتزوّد بخبرة جديدة،في حين رحلت الأم وبقية أفراد الأسرة الى مناطق اخرى في الجزيرة يحاولون الاستفادة من الواقع الجديد بالبحث عن عمل بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة . كان رفض هذا الجيل الجديد رفضاً مطلقاً لأنه رأى في ذلك تهديداً لوجوده ومتأثراً بواقع ألفته للماضي والواقع ، اذ رأى في الجديد الخطر الداهم وعدّه يوماً

١- بعيدة الظلمات ص ١٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أيام القيامة ، ولهذا صاح عندما سمع هدير الآتهم "اذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقي منكم أحد ".. وسقط مغشيا عليه من هول ما رأى وهو يقول " اليوم يوم القيامة ..اذا مشى الحديد على الحديد . لقد اطلقوا عشرات الجن والعفاريت (١)غير ان السلاح الذي واجه به هذه المرحلة لم يكن متناسبا معها . فلم يستطع المقاومة والمواجهة وسقط وسلاحه من يده في وقت كان جيل الابناء يشهد اندحاره وسقوطه ، فأحس بالمهانة والضعف في بيئة بدوية ترى "الرجولة "اقدس اخلاقها ورمز قوتها متلما رسم لنا عجز الجيل القديم عن مواجهة الجديد ، وحلت به هواجس مزعجة الى درجة صار من الصعوبة التفاهم معه ، بعد ان ادرك ان احتجاجاته واعتراضاته قد باءت بالفشل اكثر من مرة ، فلاذ بالصمت وأدرك ان الاجانب باقون في المنطقة وان عليه هو ان يرحل ،كانت هزيمته بمثابة اعتراف بالواقع الجديد . غير أنه عاد مرة أخرى وصمم على المقاومة دون ان يملك السلاح ، وهو يشهد الاجانب يغيرون ملامح الأرض وطبيعتها ، لكنه انسحب اخيرا واكتفى بذرف الدموع وبمراقبة مشهد انتهاء حقبة طويلة من الحياة والزمن ، كان يرقب حركة الحياة في موتها وفي ولادة اخرى جديدة . أما ابناء الجيل الجديد فآثروا ان يشيدوا من الرماد بناء فجمعوا الحطب بعد ان رأوا الجيل الماضي حبيس أحزانه ، وركب متعب للمرة الأخيرة ناقته وابتعد وتلاشى فكان الماضي الذي ولى معلنا عدم قدرته على المقاومة والتكيف ، فرحل جيل وبقي آخر ، اندحر وهو يتأسى على الماضي ، واستحال وادي العيون الى ماض ليبدأ وادي العيون الآخر . اما جيل الأبناء الذي يمثله ابنه شعلان فقد تسلح بالمعرفة لمواكبة المرحلة فتعلم الانجليزية وصار اسمه (شعلان الشركة) وعمل بطريقة تختلف عن طريقة والده وبنسق مختلف . فكان حلقة اخرى من حلقات الأجيال . غير ان الحنين الى الماضي لم يفارقه والخوف من الاجنبي يقلقه ، وادرك بعض ابناء هذا الجيل ان الواقع الجديد انما هو من قبيل القدر . وهذا مما ساعد في قبوله (٢)وقلل التردد بين الماضي والحاضر سمة الجيل العامة ، اذ كانت مرحلة بين اثنتين.

واذا كان رفض فريق من هذا الجيل الذي يمثله متعب قد انطلق من واقع ألفته للحياة البدوية العربية وتقاليدها وتراثها فان تيارا اخر قد انطلق رفضه من خوف على العقيدة الأسلامية التي يؤمن بها ، وقد مثل هذا التيار ابن نفاع المتقدم في السن شأن متعب الهذال . يعتقد هذا الفريق ان الاجانب يهددون العقيدة الاسلامية . وهم رمز الكفر و الالحاد .

١- التيه ص ٧٠

٢- السابق ص ٧٠،٧٥،٧٦،٩٩-١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاءوا لسلخ الناس عن دينهم وتدنيس أخلاقهم ونهب خيراتهم ، ومما عزز ذلك انهم حملوا معهم أخلاقهم وتقاليد حياتهم وظواهر اجتماعية لا تتفق والأخلاق العربية والاسلامية ، كالاختلاط والتعري وشرب الخمور ، وخاف هؤلاء ان يكونوا قد أضاعوا الدين والدنيا ، ولهذا سمى ابن نفاع الباخرة التي رست في الشاطىء " باخرة الشيطان "(١) وأثرت هذه العوامل في تشكيل صورة الاجنبي وحضارته لدى العربي ، فرأى في علومهم وكتبهم السحر والكفر وفي ادواتهم والاتهم الشياطين والعفاريت . وانهم شكل من أشكال الجن . ورأى في قدومهم المصائب والرياح الشريرة ، وان الأمراض التي فتكت بالماشية والنبات والبشر بسبب قدومهم الى المنطقة وانهم يقتلون الناس بالسحر ، وانهم الفساد والشر ونهاية العالم وانهم سيقضون على الحضارة . وهذا يعكس الجو الفكري الذي كان سائدا لدى ذلك الجيل والعقلية التي تحكم تفكير الناس وظل ابن نفاع يحذر من هؤلاء الغرباء وان العرب سيجنون الندامة ان مكنوهم من التخريب ، (٢) ونجد هذا الموقف والرؤية السوداء من التكنولوجيا نفسها ، فهي مصيبة وانتهاك لحرمات الله ومن مظاهر الكفر والعصيان واقتراب قيام الساعة ، فعندما اهدى حسن رضائي منظارا للأمير قال ابن نفاع ("صارت الدنيا باخرتها ... وما عاد الانسان يخاف من كتاب او حساب او من رب العباد ...منذ ان جاء الامير كان جاءت معهم العفاريت والمعاصي والمصائب ...اللهم أمتني على دين آبائي وأجدادي ..على دين نبينا محمد ، ولا تجعلني عاصيا كما عصى قومي "(٣) واستنكر ان يوضع الراديو في البيوت فقال للأمير محتجا ..كيف نأتي بالذئب الى غنمنا ..اياكم وخضراء الدمن ...وباكر يجركم الى جهنم ... "(٤) .

وبوجه عام فان صورة الاجنبي التي ارتسمت في ذهن هذا النفر من ابناء الجيل منهم نرى فيها مستقبل المنطقة المظلم ونهاية العالم والجرأة على الله واعلان الحرب عليه واسندوا الكفر لمن يختلط بهم من العرب ، وهذا يكشف عن الارتكاس الحضاري الذي كانت تعيشه المنطقة وعن فهم مشوه للدين ، اذ ظنوا انه مجموعة من الطقوس المرتبطة بالسحر والشعوذة ، ولم يقتصر هذا التصور على عامة الشعب بل نجده لدى بعض الأمراء ، اذ نقل عن أحدهم انهلا ينام في المكان الذي يوجد فيه الراديو

١- التنبه ص ٢١٢
٢- السابق ص ١٦٧-١٦٩، ٢٦٧، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٧١
٣- السابق ص ٣٧٠، ٣٧١
٤- السابق ٤١٧، ٤١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانه كان يضع يندقيته قريبا منه تحسبا من اي اذى تصدر من هذه (البلية) (١)

ورفض فريق ثالث من هذا الجيل المرحلة الجديدة لانها تهدد مصالحه الخاصة وتلغي دوره ووجوده ، فقد رفض مفضي الجدعان الذي كان يمارس الطب الشعبي في تلك الحقبة من التاريخ الطب الحديث المتمثل بالدكتور صبحي الذي عرف فيما بعد بالحكيم ، وراى في الادوية عفاريت صغيرة وان الذين صنعوها كفار ايضا ، وكان الاكثر جهلا وتمسكا بالطب الشعبي اولئك الذين عاشوا في بطن الصحراء بعيدا عن مراكز المدن والمعرفة والتحضر . وكان مفضي اول سجين في حران لان معارضته امتزجت بالمعارضة السياسية للحكم ، وكان ان مات ركن هام من أركان الجهل في ذلك الجيل على أيدي السلطة ، وظلت صورته تلوح في الافق مع صورة متعب الهذال .(٢) ويشير موقف مفضي هذا الى سمات المرحلة الجديدة من ازدياد الاهتمام بالتجارة والمال والى ترسيخ السلطة الرسمية واجهزتها وحلولها محل القبيلة من بعض الجوانب .

أما موقف الرضا والقبول فهو موقف الدولة والسلطة الرسمية ,أنه رضا الجاهل شأن رفض الجاهل , لم يصدر عن اقتناع ومعرفة ووعي, فقد ساعدت الاسرة الحاكمة في دخول الأجنبي الى الجزيرة مثلما فعل ذلك نفر من اصحاب المصالح الخاصة كالحكيم وابن الراشد , فهذا الأمير خالد المشاري احد امراء حران لم يكن له هم سوى الحديث عن الصيد . فحين طلبت منه الرعية مقابلته للاعراب عن سرورها بقدومه رد بقوله (إذا دخل الشتاء وربعت تروح للحباري)(٣). وقد اتخذ من العنف وسيلة في الحكم فهو ظالم لا يرحم , وحين استقبله الامريكان لم يكن مشغولا بالعلاقة بين دولتين او حضارتين بل بأموره الخاصة . فكان احد اعمدة الجهل في ذلك الجيل قادته الوراثة ان يكون حاكما ومن مظاهر قبوله بالوضع الجديد ان وقف موقف الانبهار والدهشة لمظاهر الحضارة وما رافقها من ظواهر اجتماعية وافدة , فقد سرت شائعات ان الامير اصيب بمرض غريب وهو ينظر بالمنظار الى النساء العاريات اللواتي كن في الباخرة وتمنى هذا النفر لو كانت حياتهم كحياة الاجانب(٤) ولنا ان ندرك حجم الهوة الحضارية التي تفصل بين العرب والعالم المتقدم من خلال صورة تشغيل السيارة والراديو , انها العلاقة بين العلم والجهل ،والتحضر والتخلف , وادرك الاميثن٢٢ر ان العالم من حوله عالم اعاجيب

١- النبه ص ٢١٨, ٣٠١, ٤٢٢

٢- السابق ص ٤٩٠،٤٩٦،٥١٤،٥٢١،٥٣٥

٣-السابق ص ٢٥٩

٤- السابق ٣٩٦ , ٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و أسرار، و أن المخترعات الحديثة هي من باب الأعاجيب "الدربيل' يشوّف من بعيد و صندوق الحديد الأصفر يركض مثل الغزال بدون تعب ، و أن هذا الصندوق (الراديو) يشكو و يحكي و يصلي على النبي" (١).

وعلى الرغم من اقتحام الآلة مختلف مرافق الحياة اليومية فأنه لم يرافقها تغير في البنى الفكرية والعقلية والسلوكية , بل انهم أطلقوا مصطلحات بدوية على مخترعات حديثة . فأنواع السيارات هي (الخف أو النعامة) وتساءل الأمير هل تحتاج السيارة الى ترويض كالخيل مثلاً؟(٢). وعندما انتهى من الاستماع الى الراديو غطاه بعباءته , ولم يأنس اليه إلاعندما سمعه يتلُ بعض الأحاديث النبوية واقوالاً لعمر بن الخطاب تشير الى ان الهلاك في انبساط الرزق.

ب- حاكم ومحكوم :

فرض الواقع الجديد نفسه في حياة الانسان العربي , ومثلما انبثق تيار يعارض دخول الأجنبي فقد ظهر تيار حمله نفر من هذا الجيل عارض فيه السلطة الحاكمة لأنها أقامت علاقات مع الأجنبي رمز الكفر . هذا التيار الذي يمثّله شمران وصالح . امتداد لتيار سابق حمله متعب ومفضي . شمران مثّل موقف الرفض المطلق طيلة حكم السلطنة الهديبية, أمّا ابناؤه فقد تكيّفوا مع الحياة الجديدة وساهموا فيها , وتوهّم نفر من هذا الجيل الذين كانوا في السلطة ان السلطان يمثّل الدولة الاسلامية وانه يرسخها ويوسع حدودها ويقيم حكم الله في الارض ويحارب الكفار لرفع راية الاسلام , وانطلاقاً من هذا الوهم حاربوا في صفوفه بحماسة شديدة، ولهذا وقف هذا النفر موقفاً رافضاً لعلاقة السلطان مع هاملتون،بل ساءت علاقته به أحياناً وبوجه عام فقد ظلت هذه العلاقة هي التي تحدّد شكل العلاقة مع السلطان،اذ تراوحت بين الرضا والقطيعة والرفض , وعلى الرغم مما قامت به السلطة للتمويه على هذا الجيل من ان السلطان يسير على درب الفاتحين أيام الفتح الاسلامي فقد تعالت أصوات غاضبة ضد خريط تردّد أنّ مستشاريه كفار وانه باع الدين

١- التيه ص٤٠٥
٢- السابق ص ٤٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين تعاون مع الكفار والانكليز، وقلب له فريق منهم عصا الطاعة وصرخ ابن مياح(هذا كتاب الله حكم بيننا) ورفض تقليد الكفار وحياتهم،وفات جميع أبناء هذا الجيل ان يدركوا ان الخلافات التي صنعها الاستعمار بين أبناء الامة هي التي وطدت الاستعمار ورسّخته في الوطن العربي ومكّنته من املاء شروطه . وهكذا تحمّل ذلك الجيل والأجيال اللاحقة اخطاء سياسة السلطان ودولته (١).وبزغ فجر وعي جديد في ذلك الجيل وقف من الحكم موقف الناصح الواعظ والمحذّر , لكنه نور ضعيف لم يصمد أمام سطوة الحكم فقد علا هذا الصوت صائحا (الحرب خطاها قصار , وتاليها ندم يا خريط ،وأنتم يا اهل موران اذا كان عدوكم ما يشوف يلزم تحذروه , لأن دم المسلمين يتحاسب عليه في الدنيا والأخرة)(٢) ووُجِه هذا التيار بقسوة وشدة،أما التيار الذي قاده شمران فقد ظل ماثلاً في هذا الجيل اذ رفض حركة التغير وتطوّر وعيه، فرفض تصرفات القيادة السياسية واحتجّ على تسميه السلطان لدولته (السلطنة الهديبية) وعدّ ذلك عبثاً بأحساب الناس وأنسابهم وان ذلك خروج على التعقل السليم.

امتزج نقد هذا الفريق بالسخرية والتلميح أحياناً وتمني السوء والهلاك والدمار للسلطة أحيانا اخرى ، فكان حقاً إدانة وتعرية على الرغم من انه لم يصدر عن فريق له باع في الثقافة والمعرفة , بل عن فريق متقدم بالعمر شديد الحرص على الماضي وتقاليده وكل ما يتصل به , ذلك انه أمانة ينبغي الحفاظ عليه وتسليمه الى الأجيال اللاحقة . وتشير انتقادات شمران الى ان بعض الذين تولوا إدارة الحكم لم يكونوا من ذوي المعرفة بالادارة والخبرة , كانوا ذوي سمعة غير سليمة, فهذا العجرمي الساحر قاد جند السلطان في احدى المعارك،وتشير هذا التعليقات الساخرة الى طبيعة مرحلة مظلمة سيعيشها الجيل، فالانجليز سيتولون كل شئ وسيدخلون كل بيت،وعندما أعلن هاملتون اسلامه قال شمران "ابشروا يا أهل السوق , الانجليز صاروا مسلمين وباكر عيون اولادكم بتصير زرق"(٢) وعبّرت أمثال شعبية عن روح نقد لاذعة من مثل (من دليله البقر طاح بالحُفَر)(٣) تشير الى طبيعة مرحلة عاشها ذلك الجيل.وتشير اقوال الصحفي ابن شاهين الى عدم رضاه عن واقع الجيل والفكر الذي يسود السلطنة (كان سليم الفاتح يكسر الأبواب ويعتلي الحيطان وهم

١-نقاسيم الليل والنهار ص ١١٨ ، ١٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ١٩٩.
٢-السابق ص ٣٥٨.
٣- بداية الظلمات ١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتصايحون هل الملائكة ذكر ام أنثى)؟ ... ونحن الآن بدل ان نبحث عن المفيد ونعرف عدونا من صديقنا دوخونا بين حومة الوادي وعين دامة وبين خزعل وراكان ..." (١)

نلاحظ ان تيار المعارضة في الجيل ضعيف مقابل قوة السلطان وعلى الرغم من أن بعض الحركات رفعت السلاح في وجه السلطة فأن الغلبة كانت للسلطة. بل انضم قسم من هذا التيار الرافض الى صفوفها نفسها ، وسارت عجلة الحياة بواقعها الجديد.

ثانيا : دولة الجيل الثاني : قراءة في العقلية

اجتمعت في شخصية السلطان خريط مؤثرات عربية وأخرى اجنبية . وكان ابناء : خزعل وفنر صورة مكبرة لهذه المؤثرات . مثل السلطان خزعل التجربة العربية في الحكم في حين مثل السلطان فنر التجربة نفسها بمؤثرات اجنبية.

١- دولة السلطان خزعل وعقلية القبلية

امتدت السلطنة وتوسعت حدودها في عهد الجيل الأول وثبتت اقدام الأجنبي ودخلت الآلة مختلف مرافق الحياة , اذ ساعدت هذه الوسائل الحضارية في نقله من حياة الصحراء الى العيش في المدينة التي اعتمدت على تكنولوجيا معاصرة من غير ان يساهم في اختراعها وصناعتها. تلك مرحلة لعبت فيها القوى الاجنبية ادوارا هامة في صناعة حاضر المنطقة ومستقبلها . تسلط الضوء في هذا القسم على الجيل الثاني وتجربته في الحكم ، نقرأ عقليته في ضوء مؤثرات التراث والحاضر وعقلية مستشاري هذا الجيل وصانعي القرار لنصل الى طابع هذا الجيل العام وسماته العامة مثلما نسلط الضوء على الجيل الحضاري الذي عاش في ظل حكم هذا الجيل من الحكام من خلال دراسة المدينة والتغيرات التي طرأت على حياتها .

ها نحن ازاء جيل من الحكم ورث الحكم وراثة مثلما ورث صفاتة الجسدية عن ابيه فالسلطة لدى هؤلاء أمانه انحدرت إليهم عن أسلافهم . وكانت حلقة المستشارين في

١- بداية الظلمات ص ١٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الجيل عربية لعبت دورا هاما في ظل جهل كانت تغط به هذه الأسرة الحاكمة وقد لعبت اسرة الحكيم وزوجة وداد والابن غزوان دورا فاعلا في توجيه الحكم في عهد السلطان خزعل وفي عهد السلطان فنر من بعده , واعتمد الحكيم كذلك على مجموعة من أقاربه وصلوا الى موران في عهدها الذهبي , وتعزى اليه الافكار التي قادت الى قيام الاحداث الكبرى في السلطة واجهزتها.

اتخذت دولة السلطان خزعل من المال والاعلام والأمن اسلحة في الحكم, واحسن هذا الجيل انفاق المال في توجيه الافكار والاراء وتمرير المشروعات الخاصة . فبعد قسوة حياة الصحراء وجد هذا الجيل المال الوفير بعد أن تدفق النفط في الصحراء. وأغرق السلطان المال على اخوته ليبعدهم عن السلطة , وبوجه عام فقد غرق الامراء في جو موران ولعبتها الجديدة وتنافسوا في بناء القصور وفي النساء والجواهر والاسفار وشراء العقارات والتجارة وانشاء الشركات وابرام العقود وغرق السلطان نفسه في النساء ,اذ كانت متعة الجسد متعته المفضلة (١) . وحسبنا ، ان نذكر انه عندما تولى السلطة كان قد تزوج ست عشرة امرأة ، وقد أثارت فيه غريزة الجنس معرفة السر الالهي بين الرجل والمرأة وسر الحياة والكون المتمثل في هذا الشوق العارم للمرأة(٢) . لقد وجه هذا الجيل المال في غير الوجوه التي ينبغي أن يوجه اليها , لم يسخره في بناء دولة ترسخ آثارهم وتخلدها مدنهم , ولم يدركوا انه مؤقت زائل, ولم تتجاوز رؤيتهم له همومهم الخاصة ومطامعهم الذاتية في الحفاظ على الحكم ،غير أنهم ادركوا دوره في تغير الافكار والمواقف , وان الناس ينسون كل شئ اذا انشغلوا بالمال(٣) وهو وسيلة تأليف القلوب حول السلطة وتآليبها ضد اعدائها وسياسة اتبعتها اجهزة الامن لاسكات الناس بتوجيه من السلطان نفسه قال يوجه حماد: "جماعتنا اذا سديت حلوقهم أمنت شرهم" ... بعد ان ثبت له ان ثلاثة من الذين اشتركوا بمحاولة اغتياله هم من قبيلة لم يتلق رئيسها العطايا, وارتبط اولئك الشيوخ برئيس جهاز الامن حماد , وهكذا فالسياسة المطبقة في موران اثناء حكم هذا الجيل هي سياسة الجزرة اي المال والقوة , وبالمال أطفأ السلطان الحريق الذي هدد موران

١- عبد الرحمن منيف : الاخدود. ط٣ المؤسسة العربية والنشر , بيروت ١٩٨٨. ص ٦٨. ٦٩. ٨٣ . ١٣٦،٢٨٠ ، ٤٦٢ .

٢- السابق ص ٨٣

٣- السابق ٤٦٩ . ٤٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي أشعلته صيحات الغاضبين من الفقراء والجائعين ,وحقا كانت موران مقبرة ساكنة كما ارادها حماد(١). ومثلما كشفت هذه السياسة عن الدعائم والأسس التي تقوم عليها الاسر الحاكمة فانها تشير من جانب آخر الى طبيعة ذلك الجيل الحضاري من المحكومين الذين عاشوا في ظل حكم السلطان خزعل وارتضوا ان يكون المال وسيلة لابعادهم عن بناء وطنهم ، وقد ظن هذا الجيل ان الحضارة في ظواهرالحياة الخارجية وقشورها وشكلياتها بعيدا عن الجوهر والفكر والبنية العقلية . ولهذا رأى في تصرفات الناس الذين كفوا عن أكل التمر واللبن شكلا من اشكال التحضر والمعاصرة وفهما متقدما للزمن(٢) . وللوقوف على بنية السلطان العقلية لا بد من قراءة فكر مستشاريه : الحكم وحماد , وعلاقتهما به لنقف على أهم القضايا التي ارقت ذلك الجيل وأقلقته ودخلت دائرة اهتماماته.

أ) الحكيم عقل موران

في ظل الجهل الذي عاشه هذا الجيل من السلاطين فقد سهل وقوعهم في قبضة نفر من ابناء المدينة من اقطار عربية اخرى ممن نالوا حظا من الثقافة والدربة ومثلما كان هاملتون عقل الجيل الأول فأن الحكيم كان عقل موران في ظل فترة حكم السلطان خزعل ، وقد واصل مشوار ابنه غزوان الذي لعب دورا اساسيا في دولة السلطان فنر ، وساعد بعض اقربائه الذين تقلدوا مناصب عليا في الدولة . وقد أعلن الحكيم ان عليه واجب تشييد سلطنة موران من جديد وانه منذور لبناء دولة وليس مجرد مستشار(٣) مثلما اعلن هاملتون من قبله ان عليه واجب بناء دولة موران ، فكل منهما تستر وراء اهداف خاصة ظاهرها يوحي انها تهدف الى بناء دولة وجيل غير ان موران كانت الضحية وان السلطان وسيلة وأداة . وقد وجه اولئك المستشارون الاحداث العامة . غير انها لم تكن سوى تغيرات ظاهرية شكلية لم تمس الجوهر بدا ذلك في اقتراح الحكيم ان يكون للسلطان حلاق خاص يعني بمظهره وشكله باعتباره رمزا وقدوة(٤) . وكان احد اقاربه هو الحلاق الخاص , مما يعكس أفاق اهتمامات هذا السجيل .

١- الأخدود : ص ٤٤٨ , ٤٥٣ , ٤٥٣

٢- السابق ٤٥٧ .

٣- السابق ص ٢٣٨

٤- السابق ص ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعل في ايراد الحكيم قصة المرأة الانجليزية التي أسست مملكة من العدم وجاءت بملك مهزوم وتوّجته على رأس الملوك المتنافسين ما يشير الى صورة ذلك الجيل وتلك الحقبة في وعي الحكيم ،غير انّ الوضع هنا أسهل في ظل كشف السلطان عن مفاتيحه ونقاط ضعفة التي من أهمها حبّه للجنس وعجزه الجنسي في الوقت نفسه،فاستغل الحكيم هذا الضعف البيولوجي وأبرز أمامه معرفته الطبية في مجال القدرة الإنسانية (١) .

كان الحكيم هو الذي اقترح تأسيس جهازين هامين في الدولة ليكونا سلاحه لتحقيق اطماعه وأهدافه الخاصة وتوجيه دفة الحكم بما ينسجم ورغباته هما : الأمن والإعلام ، فبعد أن أنعم الله على بدو الصحراء بالنفط صارت بلادهم مطمعاً للآخرين ،فضلاً عن وجود خطر من أفكار ملحدة تبغي الوصول الى الأراضي المقدسة،وكان على جهاز الامن أن يمنع هؤلاء ، وكان حماد رئيس هذا الجهاز،وحرص الحكيم أن لا يرشح حمادٌ حلاّقاً للسلطان خشية أنْ يصل الى عقله(٢) .

وارتكزت دولة ذلك الجيل على سلاح الإعلام أيضاً فصدرت عدة صحف من نمط جديد وتطلّع الحكيم الى دور الصحافة يتعدّى نقل الخبر الى إعادة تشكيل عقول البشر ومواقفهم وعواطفهم ونظراتهم, وقرأ كتاباً عن الغجر ربما يقصد بهم أهل موران , إذ يقول ((قوم توارثوا العادات والافكار إضافة الى الصفات . دون أنْ يعلمهم معلم ودون ان يقول لهم احد،لقد حصل هذا نتيجة المناخ النفسي الذي عاش فيه هؤلاء , وبالتالي تسرّبت اليهم كل صفات أفكار الذين سبقوهم . أصبحت جزءاً منهم وهكذا ودون وعي في الغالب , تسرّب جيل الى جيل , يشرب جيل من جيل , بحيث يصبح الجد الأول والحفيد الأخير وكأنهم أخذوا نفس الطريقة وتعلّموا عند نفس المعلم))(٣) تلك رؤية تتفق مع الحكيم فيها , فلم نجد سيزات تطبع كل جيل حضاري وتميزه من غيره،على الرغم من أن الجيلين ينتميان الى عمرين زمانيين مختلفين ،مثلما بدا لنا في علاقة الأب بالابن،غير انهما حضاريا جيل واحد

١- الأخدود : ص٢٩٧ , ٢٩٨
٢- السابق ١٠٢ , ١٠٦.
٣- السابق ص ٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يشير من جانب آخر الى أثر البيئة حيث يتأثر جيل بجيل سابق من غير وعي منه الى درجه نستطيع القول انهما جيل حضاري واحد ولهذه الاشارة بعد آخر . ذلك ان التغير الحضاري ينبغي ان يمس الجوهر لا المظهر. واستغل الحكيم غرق الامراء في الثروة فاقترح على السلطان وايجاد مساحة واسع في عقل السلطان ان لا بد للدولة من فلسفة تسيرها . وذلك حق وخطوة في الاتجاد السليم وذلك ان الفلسفة اساس الفكر والعلوم فتوصل الى فلسفة المراكز الأربعة ونظرية المربع التي ترى ان الانسان قوة مسيرة تسيرها مراكز اربعة : العقل والقلب والمعدة والجنس(١) جمع الحكيم أركان دولة السلطان ، سيطر على الأمن و صار أمين المال تابعا له ، فضلا عن سيطرته على الاعلام ،وتوطدت علاقته بالأمراء ،علما أن النظرية المعني بكتابتها تتعدى اهتمامات هذا الجيل الى أجيال قادمة(٢) لقد تمكن الحكيم من الدخول الى عقلية هذا الجيل وقراءة عالمه الداخلي وادرك ان السلطان كغيره من الملوك والرؤساء يجب ان يكون مركز الاستقطاب والاهتمام ، وعلى الانسان ان يدغدغ عواطف اولئك بالكلمة التي ستصيرمع الايام وسيلة العبور الى النجوم وهكذا قامت نظرية الحكم على أن الغاية تبرر الوسيلة (٣) وقد بوضع الحكيم يديه على اهمية المعتقد لدى هذا الجيل ، فاقترح إنشاء كلية للشريعة لخلق أجيال مؤمنة ، وباقتراح منه تحولت اسماء بعض المنشآت والشوارع فحملت اسم السلطان خزعل سعيا لتخليده (٤) من غير ان يدرك السلطان ان الذي يخلد الفكروالأهداف السامية لا المنشآت المادية التي تزول بمرور الأجيال .

ويلاحظ الدارس المتتبع لنشوء دولة هذا الجيل انها نشأت بعيدا عن التخطيط السليم والوعي والرؤية المستقبلية ، ومن هذا القبيل كان الحكيم صاحب اقتراح تأسيس جيش قوي للسلطنة أثناء دعوة السلطان الى بيته وخطر على ذهنه موضوع تسليحه وكتابة كتاب بعنوان (تسرموران) ادراكا منه ان الرجال العظام يجب ان يبقوا في ذاكرة التاريخ والاجيال ولنا ان نتساءل اية دولة ستكون وأي جيل نتوقع ان يكون ذلك الجيل الذي سيرته الأمزجة واللحظات والمصالح الخاصة فقد نطق الحكيم بعقلية ذلك الجيل

١- الأخدود ص ٢٤١.
٢- السابق ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٤٧٥
٣- السابق ٢٤٩.
٤- السابق ٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار الى القضايا التي كان يفكر بها وأسلوب تفكيره ، وركز ذلك الجيل حين همّ يؤرخ لتلك الحقبة على ذكر ظواهر المدينة المادية فأشار الى الشوارع العريضة والأبنية العالية وغاب عن ذهنه ان المدينة تُخلّد برجالها وأفكارهم ونظم حياتهم وعلاقاتهم . ويظل السؤال الكبير ماثلاً أمامنا : هل استطاع السلطان خزعل أنْ يشيد دولة قوية أم ظل يحكمها بعقلية البدوي في بلدته المنسية في بطن الصحراء؟.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) حماد

تبين لنا شخصية حماد وهي العقلية الثنائية التي اثرت في هذا الجيل دور أجهزة الامن في توجيه عقلية هذا الجيل وفي بناء الدولة وتوجيه سياستها , اهتدت هذه الاجهزة احيانا بواقع حياة البادية وبالامثال الشعبية وحكمت بوحي من عقلية القبيلة . فقد حكم حماد وفي ذهنه المثل الشعبي (اللي يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه)(١) (وشبع البطن تستحي العين)(٢) وبالفلوس اخمدت الفتن. وغاب عن الأذهان ان للدول اركانا وسياسات مختلفة في الادارة والحكم وللوقوف على الخلل الذي نخر هذه الدولة وأضعفها ان حكامها لم يكونوا مؤهلين لذلك وان المزاجية هي التي وجهت دفة الحكم وحسبنا ان نذكر ان حمادا هذاصار رئيسا اصيلا للأمن بعد ان انجبت احدى ازواج السلطان مولودا جديدا(٣) وما تلمسه لدى عودة بدري المدلل الحلاق ومعه مجموعة من الطيور التي اهداها للقصر ولقنها (عاش السلطان) (٤) وقول احدهم واصفا الدولة مستهزئا بالحكم :(انها عصفورية)(٥) اي ان الدولة استحالت الى مستشفى للمجانين .

تمثل شخصية حماد من جانب آخر النافذة التي اطلت على العالم الاجنبي من خلال زيارته امريكا . وهي العلاقة نفسها بين التخلف والتقدم العلمي . فقد اثارت هذه الزيارة ردود فعل عبرت عن رفض واستغراب فقد استهجن العم شداد ان يتعاون حماد مع اجنبي غريب لا يفرق بين الفرس والحصان ولا يعرف بتفصيلات حياة البادية العربية . وظل ابود يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله) (٦) وكأن مصيبة وقعت وكارثة حلت ولم يعرف جد العائلة مفتاح بسفر حماد سوى عند العودة وظن ان احدا مات وسأل اين تقع امريكا؟

١- الأخدود ص ٤٣٧
٢- السابق ص ٤٣٨
٣- السابق ٢٠٥
٤-السابق ١٥٣
٥- السابق ٤٤٦
٦- السابق ٢٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستنكر ان يذهب حفيده الى الغرب في الوقت الذي يذهب فيه معظم أبناء جيله الى الشرق (١) وقال يتوقع ان يعود حماد الى أصله (اتركود ، الحية تدور وترجع الى الرحى ... كل العباد متل حماد . يعران وهاجه .. الله يستر)(٢) واستنكر ذلك معظم أهله وابناء جيله ، ولم يستطيع هذا الجيل ا يطل على العالم برؤيا جديدة تتفق وروح العصر وان يستوعب روح الحياة الجديدة .

أما حماد نفسه فقد احس بالدهشة والانبهار ازاء ما شاهد من منجزات المدينة المادية على خلاف ما الفه في مدن الصحراء العربية . فرأى في المدينة الامريكية جنة الله . وبدت مواقف الانبهار في قول حماد لبعض ابناء جيله الذين رافقوه وبدت فيهم آثار صدمة الحضارة القاسية فلم يملكوا سوى الانبهار وهو موقف الضعيف من القوي (جماعتنا يا أخ مطيح انهبلوا .. بس فاتحين حلوقهم ويناظرون) ولقد وقع على الحقيقة حين احس ان هذا الفريق كالنمل مقابل العظمة الاميركية فقد ظهر لنا اعجابه بهذه العظمة وبالنظام وباحترامهم للزمن وسير حياتهم ورأي في المدينة جنة الله التي وعد بها المتقين . انها مدينة عملاقة متنوعة الاصول والاعراق ابنتيها عالية ليلها جميل . مدينة لا تنام ولا تدع احدا ينام وقد اكتشف حماد من خلال هذا التماس تماس الحضارتين العربية والامريكية انه مصاب بمرض وراثي اسمه الجهل والتخلف عن ركب الحضارة مرض يعانيه هذا الجيل وظل يحس بالخوف والغربة لعدم قدرته على الصمود والمواجهة وهي مواقف تشير الى موقف العربي ازاء صدمة الجديد ، ولم تختلف عقلية السلطان عن عقلية البدوي العادي . بدا ذلك في مقابلة حماد للسلطان لدى عودته من امريكا فقد أشار الى ان الأمريكان سألوا عن السلطان واخوته الامراء فقال السلطان دون أن تتجاوز افاق تفكيره عقلي نقول لهم : اعزمونا يا جماعة الخير؟) هم لازم يركضون ورانا ونقول لهم :اليوم لا واللي بعده لا وبعد ما ينشف ريقهم يركضون نقول : ما يخالف ، على خيرة الله ، ونحدد لهم متى نجي وكم نجلس وللي يعجبنا واللي ما يعجبنا.(٣)

١- الأخدود ص ٢١٦ - ٢٢١

٢- السابق ٢٢٤

٣- السابق ١٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- المدينة ذاكرة الأجيال

أ) موران ورحلة التحول :

سنعرض في هذا القسم لواقع الجيل الحضاري الذي عاش في ظل حكم السلطان خزعل نتعرف الى عالمه الداخلي ونتحسس مشاعر الانسان ازاء الجديد والغريب نتابع التحولات والتغيرات وعلاقة الانسان بأهم منجزات الحضارة : المدينة التي تنعكس على صفحتها منجزات الاجيال . نقرأ في ذاكرتها كتاب الأجيال المتعاقبة التي مرت .

استأنفت موران حياتها في عهد السلطان خزعل حزينة خائفة من المستقبل تعيش مرحلة من الترقب والصمت خوفا من اختلافات الاخوة حول الحكم وتوجسا من اقامة الحكيم فيها . وهكذا كانت المدينة تتأثر بممارسات ابناء الأسرة الحاكمة تتابع رحلة موران في التغير والتحول خلال هذا الجيل . لم تكن موران بعد منتصف هذا القرن سوى بلدة كبيرة في موقع ناء معزول لا ماء فيها ولا كهرباء بيوتها من الطين، شوارعها مليئة بالاتربة . سكانها من البدو عرفت حياتهم العلاقات الاجتماعية المتينة غير انها كانت تتوقع التحول بعد أن لاحظت موجه التغير تطال المدن الاخرى مع تدفق البترول وظلت دائمة التوقع والانتظار وأخيرا اصابتها حمى التغير فاخذت تركض ركض ابله بعيدا عن التخطيط والوعي . فشقت الشوارع العريضة وأنشئت المباني العالية وظهرت فيها كميات هائلة من مخلفات البناء المتراكمة وزاد عدد المهندسين . وانتفضت موران التي كانت تغرق في الرخاوة والانتظار واختلطت ابنيتها القديمة بالجديد وبدت بقايا البيوت والاشجار كأنها اثار عصور قديمة خلقتها هزة مفاجئة . اختلطت فيها منجزات عدة اجيال في زمن واحد وفي غمرة الاضطراب والتغير لم يستطيع احد معرفة المستقبل والمصير(١) ولقد أجاد الكاتب رسم صورة موران خلال هذه الحقبة من التغير في قوله(...لأن كل بناء يشاد هنا . او كل شارع يشق : يضيف الى الركام الموجود قروحا جديدة وركاما جديدا . حتى لتبدو موران كالأحشاء المتناثرة . أو كأكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي اللامتناهي وهذا المنظر الذي يمرض اي انسان مقيم ويجعله في حالة من التوتر والحزن . فلا يعرف هل يمكن بعد الذي حصل في هذه المدينة التي تعود

١-الأخدود ٢٤ ، ١٧٤ ، ٢٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليها وألفها منذ ان فتح عينه على الحياة ، ان تعود الى حالتها السابقة ، او الى شئ من الانسجام ؟ والغريب الذي يصل موران لأول مرة لا يعرف هل جن الناس فيها فتحمل كل واحد معوله و أخذ ينتقم من المدينة و يقوضها دون رحمة و بأسرع وقت ؟ حتى المهندسون أو من يفترض أنهم كذلك ، و الذين يقودون مجموعات من البشر و الآلات هنا و هناك , و يبدأون بشراسة في تمزيق أحياء المدينة و بيوتها ، كانوا يفعلون شيئا ثم يتراجعون ثم لا يلبثون أن يعودوا اليه مرة أخرى ، و قد بدت على وجوههم و تصرفاتهم علائم الحيرة والقلق . حتى اذا غرقوا في الانقاض وتاهوا في المنعطفات والتقاطعات جاء غيرهم ليواصلوا العمل ذاته او ليبدأوا عملا غيره.

مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها : مجموعة من الانقاض تتزايد كل يوم والناس يتطلعون حولهم بحيرة او بتشف لكن برغبة وحيدة ايضا : ان يخلصوا من هذا الذي يجري ، ولأن الحكيم يرى ان موران على مصورات المهندسين المليئة بالعذوبة والشفافية اوالمليئة بالأشجار ايضا فأنه لا يرى الشقاء ومدى لعذاب الذي ينزل بالناس حوله ولذلك وجه اهتماما متزايدا الى شيئين اثنين الأراضي و الفكر حتى اذا حفظ المخططات ارسل رجاله لمساعدة فقراء المدينة يعرض عليهم شراء اراضيهم وبعد ذلك يعود الى قصر الحير يفكر بنظرية المربع , وتغيرت معالم موران المادية بتغير حكامها وأزاء هذا التحول السريع غير المنظم فقد اتصفت موران بمزاج حاد عنيف يتوك فجأة وبدت موران صلبة قاسية(٢) مما حدا ببعض أبنائها الىمغادرتها , مغادرة موران هذه المدينة الملعونة مدينة الفجيعة والسحره (٣) وحول موران المتغيرة المضطربة ارض واسعة مليئة بالبشر المقهورين والجوعى وتهدر اصوات اولئك الغاضبين لتصل اذان موران , وتهدأ الأصوات قليلا لتعيش على ذكرى ماضيها الذي يجمعهم معا , ذلك هو عالم موران السفلي واذا ازدات صيحات الغاضبين من الفقر والجوع يعمد السلطان الى العطايا كي لا يصله الحريق . ويتطفن النيران مع رسل حماد وهدايا واموالة وكان هذا الغضب يخيف السلطان وكثيرا ما تمنى في اعماقه لو ان التكنولوجيا لم تصل موران اذ ن لعاش الناس في قناعه ورضا كما عاشوا على مدى اجيال متعاقبة(١) , لقد اصبح اهل هذه المنطقة معقدين بعد ان جاءتهم الثورة وتوهم فريق منهم انهم اقوياء ويعرفون كل شئ وتشكل حاجز نفسي بين اهل البلاد الاصليين وبين الآخرين من الاقطار

١- الأخدود ص ٢٤٨ , ٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العربية الذين جاءوا طلبا للرزق والعيش . ووجدوا صعوبة في التكيف معهم فهم عالم آخر يختلف عما حوله(١) وواصلت موران مسيرة التحول المادي وواصلت شركات البناء اعمال الانشاءات وأشيع ان موران ستهدم وسيبني مكانها . كان ذلك بداية جنونها بعد ان ارتفعت اسعار الاراضي وزادت نقمة الذين باعوها , لم ينج الحكيم من ضغط الواقع الاجتماعي الجديد مثلما لم تنج ام حسني الشامية حين احست بتقطع العلاقات الاجتماعيى الاسرية بعيدا عما الفته في بيئتها الشامية . مما دفعها الى ترك هذه المدينة الملعونة (٢) اما الحكيم نفسه فأحس ببعد الافكار بينه وبين اسرته لا سيما ابنه غزوان مما كان لا يتوقعه وتصور ان المدينة تناصبه العداء فتوجه الى الصالحين والموتى مع ادراكه ان موران تنسى ماضيها وتدوسهم لحظة الفراق , وأدرك ان لا قيمة في هذه المدينة لا للماضي ولا للحاضر لا للاحياء ولا للاموات واذا كانت لا تحترم تراثها وما فيها فاحرى بها ان لا تحترم حاضرها (٣) وهو بهذا انما يقف موقف الادانه للواقع العربي في موقفه من الماضي والتراث بعد ان لمس ان التغيرات السريعة الفجائية لم تكن طبيعية وليست موصولة بالماضي فكأنه تغير غريب عن هذه البيئة ولا قيمة لأمة لا تحترم ماضيها ولا تحفظ تراث اجيال سبقتها . وكأنه يرنو بعين الغيب ان هذه المدينة سوف لا يكتب لها البقاء والخلود. وخلال رحلة التحول هذه وقبلها كانت موران قد مرت بمرحلتين وتشكل لها جيلان : موران القديمة وموران الجديدة لكل منها سماتها الخاصة على الرغم من أنهما التقتا معا في بعض المراحل فالقديمة سارت مع الجديدة والتقى فيها القديم والجديد . وأدرك خزعل ان على المرء ان يتعايش مع زمانه وأن يعيش في الحاضر (٤) غير أنه يقي نفر وتيار من هذا الجيل يعيش في ماضي موران وعاش على ذكرى القديم يقارن المواقف المعاصرة بغيرها في الماضي ويحن اليه . تذكر شمران وصالح موران القديمة وكيف كانت حياتها وادعة رضية وكيف كان الناس يتعبون من اجل جمع المال غير انهم راضون قانعون بحياتهم بصورة أفضل مما عليه بعد اكتشاف النفط . فالمال لم يعد له ذلك المعنى الذي كان له في الماضي , والغرباء تكاثروا لتهب اموالها وفي ذهن كل منهما صورة الحكيم(٥) واستحالت موران الى زمن و الى فردوس مفقود في حديث شمران مع ابنائه عن موران القديمة والجديدة . خاطبها مخاطبة المحبوب.

١- الأخدود ٤٢٥.

٢- السابق ٢٧٨ , ٣٤٥

٣- السابق ٤٨٠

٤- السابق ٤٥٧

٥- السابق ٥٩٣ , ٥٤٦ , ٥٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعشقها عشقاتشبه بالعشق الصوفي . ففي الوقت الذي كان يرى فيه الجيل الجديد المتمثل بأبنه (نجم) ان حركة التغير ستجرف موران الجديدة في يوم من الايام ايضا وستكون لموران صورة جديدة وواقع جديد صرخ شمران وقال (موران اللي كانت موراننا . ما بقي منها حجر ..يا ولدي .. تغيرت وهذا اللي جاب البلا وبعد تريد اكثر..؟) فقال الجيل الجديد (اللي اريده يا بوية موران ثانية . موران جديدة ماضي مثل ما تشوفها اليوم) . (فرد عليه والده : خلنا نمشي يا ولدي خل كم واحد يقول الله يرحم شمران ويمشي بجنازته قبل ما تصير موران اللي تسولف عنها..... والله يا ولدي بعد ما راحت الغالية التي كانت ما عاد بالنفس شئ...)(١) يشير هذا الحوار الى سرعة التغير وان الجديد يصير قديما وان ولادة المستقبل امر حتمي وقال شمران وهو يرقب حركة الناس في موران الجديدة بنبرة حزن (موران اللي تخبرها راحت .. ماتت .. وهالحين بدل موران مايه موران وعسى الله يجعل خاتمتها زينة)(٢) وخاطبها مخاطبتة لانسان حي عاقل وهكذا كانت تتشكل على انقاض القديمة مدينة جديدة وفي ركبها جيل جديد . واستحالت موران في وعي الحكيم وابنه الى زمن ايضا . . فحين رحل الحكيم الى بلاد الغرب تحلل من أخر رابطة بموران وبالعصرالحجري . ذلك ان عصر موران بالنسبة له انتهى وينبغي الانتهاء من كل اثارة ومظاهرة (٣) .وهكذا فان الحضرية كالمجايله نسبية . فموران الجديدة قياسا بمدن الغرب متخلفة وقياسا بموران القديمة متحضرة ، وللوقوف على مدى النقلة الحضارية بين واقع حياة موران القديمة وحياة موران الجديدة لا بد من مقارنة نمطي الحياة بينهما خلال هذه الحقبة من الزمن ، فبعد ان كان سوق الحلال رئة موران القديمة والبؤرة التي تتجمع فيها الاشياء ثم تتفرق . فيه يلتقي اهم الرجال وتجري اهم صفقات التجارة ، اليه تصل الارزاق والماشية والغرباء والعائدون . فيه كانت تطلق التكات فتنتقل الى باقي ارجاء المدينة . اما في موران الجديدة فانتقل مركز الاهتمام الى سوق المال والمصارف والشركات وبعد تنحيه خزعل اعتقل صالح الرشدان . واعتقد ان مودان اخذت بثأرها من سلاطينها وظلت موران تستمع وتتوقع وتنتظر.(٤)

١- الأخدود ٥٨٩ ، ٥٩٠.
٢- السابق ٣٧٦.
٣- عبد الرحمن منيف : المنبت . ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٩. ص ١٦٦.
٤- الأخدود ٦١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- حران ورحلة التحول

وصف نفر من أبناء هذا الجيل التحولات التي اصابت حران المدينة بما يوحي بسرعة هذه التغيرات وانها غير طبيعية وفي مجالات متعددة . فقد لاحظ محمد عيد الذي عاد الى حران بعد غياب ثلاث سنوات ان البشر يتغيرون وانّ المدينة كادت أن تسحقه , وانتقلت عدوى التغير هذه الى مدن أخرى،وبمقارنة ماضي حران بحاضرها نجد ان للمدينة في الماضي ملامح محددة وهوية تُعرف بها , كانت حران مدينة الصيادين والمسافرين والعائدين , اما الآن فهي بلا ملامح ولا هوية،سكانها من جميع الأجناس والألوان والديانات والصفات واللهجات،كل من فيها يركض من غير أن يعرف متى ينتهي السباق أو يحدّد وجهته . مدينة تشبه خلية النحل،الناس فيها منهمكون في العمل وخائفون ولا يلقون السلام على بعض . وفي ظل هذا الضياع فانّ المرء لا يستطيع ان يتذكر انه عاش فيها أو مرّ بها , ذلك ان معظم الأماكن والمنشآت تغيرت , وحتى المقبرة لم تبق مكانها , وأعيد بناء بعض المدن مرات،أمّا جامع حران فقد بقي مكانه ودبّ اليه الهرم ومال لونه الى السواد , أحاطته أبنية عالية وغطّته طبقات من الدخان . وقد رسم محمد عيد صورتها في حديث له داخلي(رائحتها لا تطاق . تشبه رائحة الموتى ... لا تشبه أية مدينة اخرى ولا تشبه نفسها , والناس فيها اجتمعوا بالصدفة , ولن يستمروا طويلاً تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالم ... وحران بمقدار ضجة نهارها فانها في الليل في ظل اللهب الذي تبعثه المصفاه , مدينة الأشباح والصمت)(١)،جوّها ننن ثقيل مزيج من البترول والغاز والبهارات وبقايا الاكل وإطارات السيارات المحروقة ورائحة البشر . انها مدينة قاسية قاهرة معادية أشبه بالقبر في حين انها كانت في الماضي اكثر رحمة اذ كان بالمستطاع احتمالها والاعتياد على حياتها،ماتت أشجارها من الغازات والمصافي والجفاف , وهي عدوة تطبق على سكانها تخنقهم في ظلّ الأعداد الكبيرة من الغرباء في شوارعها , الناس لا يبغون سوى المال مما حدا ببعض اصحاب المهن الى ترك مهنهم سعياً وراء المال،وتحولوا الى التجارة،سكانها يحسون بالتعب والضيق والقلق , وأحسّ محمد عيد انه مريض في هذه المدينة .وأن الناس بحاجة الى ان يستريحوا بعد عناء الركض والتعب , وأحسّ انّ حران تأكل نفسها . قال يحدّث نفسه' حران اسطبل , يجب ان تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط وعندما يتركها البشر والدواب ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور"(٢) إنها عارية، سوداء،فيها قدر كبير من الارتياب وخداع النفس،واذا كان واقعها الاجتماعي مصدر ضيق لسكانها فان الواقع السياسي كان كذلك،وبدا ذلك في ممارسات الشرطة مع الغرباء وفي إعدام عدد من البدو وسط مجموع المواطنين بعد ان قرّر الأمير اعدامهم بناء على أوامر السلطان الذي قال "انه لا فرق بين مذنب وبين من يريد ان يكون مذنباً"(٣) مما دفع محمد عيد الى مغادرة حران وهو يقول عندما مرّ قرب سور إحدى المقابر (نهاية حران وراء هذا السور والعاقل من يفلت). (٤)

١- الأخدود ص ١٨٤.
٢- السابق ص ١٩٠
٣- السابق ص ٢٠٢ . ٢٠٤
٤- السابق ص ٢٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يكن التغير مقصورا على حران المدينة بل طال امراءها فخلال ثلاث سنوات ذهب الامير خالد المشاري ومعه جوهر وجاء بعده نائبه مشعل ثم جاء ضاري السهيل وخلفه عبد الله المشهور ثم عبد الله الشبلي الذي جاء ليترك ملامح ثابتة لمدينة حران بعد ان تغيرت مرات عديدة خلال سنوات قليلة (١) .تلك صورة مدينة حران في رحلة التغير صورة ظهر فيها عالمها النفسي وعالمها الخارجي المادي مما يشير الى عدم نضجها وتطورها بشكل طبيعي . لم تكن علاقتها بسكانها علاقة الام بأبنائها . تلك هي حران في ذاكرة احد أبنائها .

٣ - القديم والجديد

استمر تيار الرفض الذي حمله متعب ومغضي في الجيل الماضي في التوسع . وحمله في هذا الجيل شمران وصالح الرشدان . وأخذ طابع الصراع بين القديم والجديد فقد عاش شمران في موران القديمة وظل يحن اليها ويتذكرها ورأى في الواقع الجديد وفي موران الجديدة بنظامها السياسي والاجتماعي والاقتصادي تهديدا لنظام حياته . ورأى في رموز الحياة الجديدة المستقبل المظلم ذلك انه لم يسلم من شر هذا الجيل . وصارت السيارة شعار الحقبة الجديدة والجيل الجديد واندحرت الخيول الحمدانية والصقلاوية التي كانت عنوان ثراء الجيل الماضي ووجاهته في موران القديمة (٢). ولعل من اسباب رفضه ونقمته على الجديد ان علاقته بالقديم كانت علاقة ودية وعاش في ذاكرة المدينة والناس وكان له دور في البناء وفي تنظيم حياة الناس واحتل موقعا مرموقا وكان يسمع اليه اكثر مما يسمع يؤمه الناس طلبا لمشورته ورأيه ولهذا ثار على قرار نقل سوق الخلال الى العوالي الذي يرمز لاندحار مرحلة وجيل وحلول مرحلة اخرى وجيل أخر(٣) وقد واصل هذا الجيل يشتم موران المعاصرة التي احرقت خيله وأخذت ارضه مستغربا كيف يستطيع ابناؤه التكيف مع الواقع الجديد وقد جعله دوي حركة التغير السريعة يحس بالدوار وان يقف مبهورا لا يعرف كيف تمر الحياة وكيف تسير على الرغم من كثرة مال ابنائه . فكان يبحث عن موقع قدم وسط الزحام غير انه لم يفلح اذ رفضته الحركة الجديدة ، واحس باليأس وصار يقضي معظم وقته يستمع الى من حوله عن انواع السيارات وسرعاتها وقطع غيارها ، وحاول ان يتكيف وان يميز بين انواع السيارات فلم يستطيع فعاد يؤنب نفسه تأنيب عاجز (حسافا يا ابو نمر انت اللي كنت تميز الناقة اللي جابت بطن من الناقة اللي جابت بطنين من نظرة وتعرف القلو من هي امه ، القمرس من هو حصانها .. انت تصم عليك هذي الحدايد كأنها الصخر ....)امتزج هذا الموقف بموقف سياسي ضد السلطة الحاكمة ،

١- الأخضود ص ١٧٠
٢- السابق ص ٣٥٧ ، ٣٧٢
٣- السابق ٣٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إليها عزا سبب بلاء موران في هذا المثل الشعبي (فالعوج من الثور الكبير)(١) وان الحكيم رأس البلاء فهو الذي يوجه السلطان كما يريد . ولهذا ظل يوصي ابنه بالحذر قائلا (البرق يتبعه الرعد والمطر , كانت ليلة الرابية وسيأتي المطر والرعد ... وعين الذيب لا تنام يا وليدي)(٢) , ويرى ان موتها سبيل بعثها من جديد وان واقعها المعاصر سيؤدي بها الى الهلاك الذي على انقاضه ستقوم موران الجديدة .

أما صالح الرشدان فيمثل الجانب المتشدد الذي رفض رفضا مطلقا التكيف مع الواقع الجديد على غير ما بدر من ابن جيله شمران الذي استجاب مؤخرا لبعض متطلبات التغير وبارك بعضها , صالح هذا من الذين حفظتهم ذاكرة المرحلة الماضية في حين تجاهلته ونسيته الحقبة المعاصرة , لأن المدن الكبيرة لا سيما التي تتكون وتتغير بسرعة تفقد ذاكرتها واحسن ان الواقع الجديد عدو له ورفض ان يعترف به وحاول صالح ان ينتقم من الجديد وان يعيق تقدمه غير انه اندحر فتعرض للطرد والرفض من ابناء ذلك الجيل وتصوروا انه مرض ينبغي القضاء عليه وتعرض للسخرية في حوار يبدوا فيه البون بين جيلين وحقبتين (القلاب يبني حذوة يا صالح) فيقول(الله يا اهل موران حميركم احسن منكم , ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر وأوادم اما هالحين فانتم زق حذي لحمير من رجلها , اما الحمير التي اشوفها الحين فيزاد لها حذي من رؤوسها)(٣) وصب هذا الجيل حقده على الجديد وحتى على السيارات اذ كان يزرع المسامير في طريقها وحاول العمل في محلات تصليح السيارات الا انه طرد مرات عديدة لمشكلات كان يفتعلها مع اصحابها وحاول بعض ابناء جلدته التخفيف من مواقفه ودفعه نحو التكيف فلم يفلح مما دفع بشمران ان يقطع علاقته به لمواقفه الرافضة الجامدة المتشددة . واستمرت مواقفه المعادية للمرحلة الجديدة ورموزها في السياسة والتجارة(٤) وهاجم هذا الجيل وهو يقول (قبل كم سنة كنا بالف خير لكن من يوم ما جاءت البلايا وعنطز كل واحد منكم بقلاب او بيك أب حتى وصرتم مثل ذاك الصاك بابه..ابغي اشتغل..الدقدق)(٥) ونصحه بعض ابناء جيله

١- الأخدود ٣٨٢
٢- السابق ٥٤٨
٣- السابق ٣٨٩
٤- السابق ٣٩١ , ٣٩٢
٥- السابق ٣٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأن يترك الماضي وان يلتفت الى واقعه فقد وضع امامه عبيد الطويل خيارين : اما ان يستبدل التوسط ببيع الماشية بالتوسط بتجارة الاراضي كما فعل عبيد نفسه . او ان يفعل مثل شمران اي ان يقف موقف المتفرج ويتعلم الصمت . وقال له (موران التي تخبرها راحت ماتت . هالحين حنا بموران ثانية .. فاترك الخيل وحذو الخيل والا مت من الجوع)(١) غير انه لم يستطيع الصمت فاندحر مع حركة الحياة السريعة وصار يهذي ويكلم نفسه بعد ان وجد ان لا احد يأبه بوجوده ولجأ الى عالم النفس الداخلي يخاطب السلطان ويرجوه ان يعيد اليه بعض رموز الماضي والجيل القديم وفي هذا المونولوج الداخلي بنى موران القديمة واعاد اليها الحياة ، وفي الواقع كان يشيعها .

لقد عارض هذا الجيل التغير وطالب باستمرار الواقع كما كان ايام الأباء والاجداد , واعتقد هذا الجيل ان الغرباء هم سبب هذا التغير السريع وانهم ينوون افساد الناس وابعادهم عن الدين وطالب السلطة السياسية بالوقوف لمنع هؤلاء من تنفيذ مآربهم فرد السلطان خزعل بعقلية شيخ القبيلة (وكلوا الله ما يصير الا الخير)(٢).

وقد اختلف موقف ابناء هذا الفريق الرافض عن موقف ابائهم ففي الوقت الذي كان فيه الجيل الماضي يحس بالتيه والضياع ويدير وجهه صوب الماضي حزينا يتلمس جراحه ناقما على الحاضر والجيل الجديد العاق , من اثار الصدمة التي افقدته الهداية الى سواء السبيل , كان الجيل الجديد المتمثل بابناء شمران يبحث عن السبل التي تساعده في التكيف مع المرحلة الجديدة وتمكنه من صناعة حاضره ومستقبله . فقد فتح نمر بن شمران مكتبة وشارك في حل مشكلات الناس وتابع قضايا جيله العامة , وتعلم شقيقه بدر تصليح الأدوات الكهربائية . اما نجم فقد صار تاجر كتب في موران وسط استغراب والده ورفضه تزويده بالمال لادراكه ان موران ليست بحاجة الى الاتجار بالقراطيس وصمد هذا الجيل امام ضغط جيل الاباء واخيرا ادرك بعض ابناء هذا الجيل ان الابناء احسنوا اختيار العمل المناسب ولام شمران نفسه لأنه لم يعرف سوى الخيل وأدرك انه يشكل مرحلة تنتمي الى جيل مختلف عن الجيل الجديد الذي يبني واقعا جديدا لا سيما

١- الأخدود ص ٣٩٣.

٢-السابق ٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انه وجد ان كل ما حوله يختلف عما كان , وان كل ما يعرفه انهار وتهاوى ، واحس بالانفصال عما حوله بل وبالعداء . واستغرب كيف يتعامل الجيل الجديد مع الآلة الجامدة وكيف يعيد اليها الحياة واحس بالضياع والعبثية وبالتغير في اخلاق الناس , وتوقع ان يتعثر هذا الجيل لكنه لم يدرك ان الواقع الجديد الذي يتشكل هو الذي ساعد على استمرار مسيرة هذا الجيل , وهكذا استطاع هذا الجيل ان يجد له مكانا وان يثبت قدميه وان يشق طريقه في المرحلة الجديدة على انقاض الجيل القديم الذي اندحـــــــــــــــــــــــــــر(١) .

١- الأخضود ص ٣٧٣ - ٣٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - دولة السلطان فنر

أ) فنر والغرب

ظل اثر هاملتون في ذاكرة (فنر) الاكثر رسوخا والاقوى صورة وقد حث هاملتون فنر على السفر والاختلاط بثقافات الأمم الاخرى وتجاربها لتكون ذخيرة له في الحكم ادراكا منه بأهمية التواصل الحضاري في بناء الاجيال والدول . قال هاملتون (انك يا صاحب السمو بحاجة الى كمية كبيرة من البحر كي توازن الكم الهائل الذي لديك من الصحراء) (١) وهو لا يعني بالبحر مياهه وزرقته وامواجه بل التواصل الحضاري بين الحضارتين العربية والغربية . فالصحراء درع و حصن مثلما هي سجن الا اذا تمكن ابناؤها من كسر قضبانه متّيرا من جانب آخر الى مرحلة حضارية مرت بها الامة العربية وانه لا بد لكي تحتل موقعا لها بين الأمم في هذا العصر عليها الاستفادة من خبرات الأمم الاخرى . ويكشف هاملتون ايضا اثر البيئة في السلوك الانساني فالبحر يولد عقلية تختلف عن تلك التي تولدها الصحراء ذلك ان الطبيعة تفرض قوانينها . فعلى موران ان تلتفت الى البحر باستمرار. ويرى أنه اذا كان بالمستطاع استغلال الذكاء البدوي في الاتصال مع العالم فيمكن لهذه الصحراء وهذا الانسان لعب دور بناء .غير ان تيارا معاكسا ظهر في هذا الجيل يرى ان العروبة وحدها قادرة على اعادة امجاد العرب واصالتهم وتمكنهم من لعب دورهم البناء(٢) وقد اصاب (فنر) ما يشبه الزلزال بفعل الوصايا التي اهداها هاملتون له وهي جواهر منتقاه من كتاب (الامير) التي ينبغي ان يقراها كل حاكم . فكان الملك الأب حين يبلغ ابنه مبلغ الرجال ويتوسم فيه القدرة على متابعة الطريق وحماية التاج يقدمه اليه بكثير من الاحترام والأبهه لأن فيه نصائح وتجارب صنعها عقل فذ . وصارت قوانين لأجيال متعاقبة من الملوك في الحكم . وعلى الحاكم ان يتعلم ما جاء فيه لمواجهه اخطار الزمان وعليه ان يضيف اليه ويعدل بما يتلاءم مع المرحلة والمكان ورد فنر بعقلية البدوي (عطني ذلك علي ان احفظه)(٣) .

١- بادية الظلمات ص٦

٢-السابق ص ١٤

٣- السابق ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصاب التغير بعض مظاهر سلوك فنر العامة وفي علاقاته مع الآخرين واعتاد عادات صارت جزءا من حياته وبرز فيه ما يميزه من غيره حتى عن والده، ذلك أنه لا يريد أن يصبح واحدا من القطيع . وازاء هذه التغيرات أحس هاملتون ان الفرصة حانت للوصول الى صيغة جديدة فأتخذ من الافكار التي وردت في الوصايا ما يساعده في الوصول الى نتائج محددة تخدم اهداف الغرب وادرك هاملتون ان (الامير) بدأ يلبس العباءة والعقال وان وصاياه اكتسبت كثيرا من ملامح البادية فضحك وقال (ليت ميكا فلني حي فيرى)(١).

وأدرك فنر ان مشاورته للانجليز في هذه المرحلة التي يمر بها هذا الجيل تقتضيها طبيعة التطور والمرحلة . واذا كانت اراء ابيه وافكاره وقناعاته تقنع اهل موران او ترغمهم على الطاعة فانها تعد غير نافعة في هذا الجيل الجديد الذي أثرت فيه قوى أجنبية وتعددت فيه الافكار والقناعات و الآراء ولعل تعيين خزعل وليا لعهد ابيه خلافا لما يخطط له هاملتون دفعه الى القول بغضب : "ان بناء الدول ليس عملا مزاجيا ويحتاج الى كثير من الجهد والذكاء والاستفادة من الظروف. كما ان الدول ليست فقط الملوك بل اكثر من ذلك وأهم . فالبدو اصحاب لحظة ومزاج"(٢) على غير مايراه جيل خريبط من ان السلطان هو الدولة ويرى فنر الذي سافر وتعلم ان الشر قوة مسيطرة وان الخير اذا لم تكن له انياب فلا يمكن ان ينتصر مشيرا بذلك الى صراع الخير والشر في مسيرة الاجيال، ومسيرة الحياة(٣).

ذكر هاملتون ما اتخذ من اجراءات ساعدت فنر اثناء سفره الى الغرب على استيعاب الصدمة الحضارية التي خلفتها النقلة الحضارية بين الشرق والغرب .. . مشيرا بذلك الى ردود فعل ذلك الجيل المختلفة ازاء الجديد . ففي الوقت الذي استوعبها فريق وجدنا قسما آخر ارتد ولم يتشربها ووقف موقف الرافض . وقد تعمد هاملتون ان يكون سفر(فنر) معه بالباخرة كي لا تصدمه حدةالنقلة لكنه مرض عند ركوبه البحر . التوى عنقه وبرزت عيناه وكاد يفارق الحياة مشيرا بذلك الى مدى الهوة بين الحضارتين وبين الصحراء والبحر(٤) غير انسه وعلى الرغم من وجود فنر في بلاد الغرب.

١- بادية الظلمات ص ٤٢
٢- السابق ص ١٩١
٣- السابق ص ١٩١
٤- نقاسيم الليل والنهار ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلاّ انّ وصايا والده وأقواله ظلت ماثلة في ذهنه،لم يستطع أنْ ينتزع القديم من ذاكرته،وفي اليوم الثالث تخلّى عن ملابس البادية كي لا يبدو الغربة في نظر الآخرين وارتدى ملابس أوروبية وفي ذهنه تحقيق تقدم على خزعل ومفاجأة أبيه , وقد ساعدت هاملتون عمته ماركو لفهمها طبيعة الشرق وخبرتها في كيفية التعامل مع الشعوب الأخرى وما ينبغي للملوك ان يفعلوه . وأدرك فنز أنّ العالم حول الجزيرة كبير وليس موران فحسب ,إنّه عالم تحكمه القوة. تلك معرفة تختلف عن معرفة مستشاري جيل والده الذين يرون أنّ السلاح الأقوى هو الخيل والسيف مشيراً الى طبيعة الحقبة التي عاشها ذلك الجيل ومدى معرفته بالعالم الآخر! غير انّ هذا الجيل ارتدّ الي الماضي وعاد الى عقلية الصحراء وحياة البادية العربية عند أول اختبار , فبعد موت زوج فنز دخل الصحراء للقنص،وبعد عودته أغرق في الحديث عنه وكأنه قضية الكون،مما دفع هاملتون الى القول بغضب"من الأفضل والمصلحة ان يسافر وأنْ يجدَ له طريقاً آخر , عليه مهمات كثيرة يجب ان يقوم بها ولابد ان يتحمل مسؤوليتها" (٢) . وعلّم هاملتون تلميذه أنّ السياسة لا تكون بالهرب بل بمواجهة المشكلات واتخاذ قرارات وان كانت مؤلمة , في الوقت الذي يرى فيه (فنر) ان (جماعتنا يتصرفون بالسياسة مثلما يتصرفون بالزواج والسفر, يستخيرون الله في أعمالهم)(٣). واختلطت مؤثرات عربية وأجنبية في فكر فنر فاعاقت تطوره كما ينبغي وكما يريد هاملتون .

وقد قارن (فنر) بين المرأة العربية والمرأة الاجنبية من خلال جدته ذات السواد والاختلاط والغياب مقابل ماركو عمة هاملتون التي تولّت أمر تعليم فنر الانجليزية،فكانت له الأمَ والصديق والمعلم . كانت ترتدي ملابس مزركشة على تقدم عمرها،وتملأ جو المكان بوجودها . وقد نظرت الى الانسان العربي نظرة حضارية . فالشرق لديها أعمق مما يبدو وأخطر مما يفترضه الآخرون . وخاطبت فنر في قولها " شرقكم يحيّرني،إنه لقاء الطرق والحضارات والديانات ... هذا الشرق بمقدار ما يحتويه من حضارات وأساطير وما تتوافر فيه من رغبات وجنون فانه مؤهل للأمرين معاً , إما ان ينقذ العالم أو ان يكون نهاية العالم .. إنّ في الشرق شيئاً كثيراً ولا يزال هذا الشيء قابلاً للحركة والبقاء،وهذا سرُّ وجوده واستمراره ،

ولولا ذلك لا نتهى منذ وقت طويل .

١- تقاسيم الليل والنهار ص ٢١١ , ٩٢-٩٧, ١٣٧

٢- السابق ٢٤٣

٣- السابق ٣١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسبب الأوبئة . بسبب الحروب وتلك المصائب التي لو مرت على شعب اخر لما بقي منه اثر ... لا زلتم تملكون الكثير من التاريخ وهذا ارثكم وربما ليس لكم فضل فيه . وان كان ملك اجدادكم ولكنكم لاتملكون شيئا من الارادة او رعية الارادة (١)غير ان عقلية القبيلة طغت على عقلية الدولة الحديثة في هذا الجيل ولم يستفد (فنر) من اسفاره وظلت آفاق تفكيره حبيسة بيئته وسار على هدي وصايا والده في الحكم , وقامت دولته علىالاركان نفسها التي نهضت عليها اركان دولة الجيل الاول. قال خريبط يوصي ابنه فنر(انت, ياوليدي , غير الباقين , دارمن وتفهم , سافرت وشفت، بس اريد اعلمك بجماعتنا ، ترى اذا رخيت مدوا ، واذا شديت خافوا وارتدوا. العين الحمرا تخوف اللي مايخاف، اريد منك ما تعطي وجه لأحد ، لأن هذول البدوان اذا انعطو وجه يطمعون وما يشبعون . اسمع من الكبار قبل الصغار واسمع من الشيوخ ولا تسمع من غيرهم . لاتقول "لا" ابد ولاتقول " نعم "، خل سرك بصدرك ولا احد غيرك يعرفك او يحزر عليك...) (٢) وقال يوصيه ان يصادق الانجليز وان يشاورهم (ومثل ما الصلاة غير جائزة الا اذا انو جهت نحو القبلة , فيلزم ما نخطي خطوة الا اذا تشاورنا مع الخويا, لان الانكريز ,يا وليدي , آفة , ما ينقدر عليهم , والأحسن ان يكون الواحد معهم صاحب...(٣) . وكان الانجليز البوصلة التي يهتدي بها هذا الجيل .

١- تقسم الليل والنهار ص ٢١٢، ٢١٣

٢- السابق ١٦٩

٣- بادية الظلمات ص ١٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - فنر السلطان قراءة في العقلية

لايقع المدقّق على ما يميّز السلطان فنر عن والده في فكره وممارساته. فهما جيل حضاري واحد،على الرغم من انهما جيلان في الزمان . فقد سار الابن على خطوات والده ، على غير ماكنّا نتوقع. لم يستفد من تجربته واختلاطه وسفره إلاّ قليلاً في اقامة دعائم حكم جديد. مما يشير الى الواقع الذي لم يمكّنه من الافلات من أسره . فظلّ التغيير الذي أصاب الانسان العربي في جزيرته شكلياً ظاهراً لم ينفذ الى بنية المجتمع العميقة،ولم يتجاوز الأمر انتقال مجتمع البادية الصحراوي الى المدينة . وهكذا ظلّت العقلية البدوية القبلية هي مرجعية الحكم السياسي . تحاذيها مرجعية أجنبية تخدم أطماعها الاستعمارية . واعتمد هذا الجيل مثلما اعتمد الذي قبله على المال والإرهاب والاعلام سلاحاً واسلوباً ومنهجاً في تحقيق الأهداف. وتردّدت في أجزاء الرواية ما يحثّ على استخدام هذه الأساليب . تقترب في طبيعتها من الأمثال الشعبية . وتكشف عن العقلية السياسية،وتشير الى تخلّف عن الفكر السياسي المعاصر . مثلما تشير الى انقطاع عن التراث الفكري السياسي لأجيال عربية واسلامية في الحكم . فكان فكراً منبتّاً عن الماضي وعن الحاضر على السواء . قال السلطان لمسؤول الأمن يحثّه على تطبيق ما يقول (أهل موران ما يجون إلاّ بالعين الحمرا)(١) . وقال لنفسه (البدو لاينعطون وجه لأنهم يطمعون ولا يشبعون . يجب التنقيط في حلوقهم . لايشبعون ولايجوعون. اذا شبعوا فسقوا واذا جاعوا خافوا. لازم نعطيهم ونربطهم بالحكومة . نشغل أولادهم حولنا ونقول لهم . ذهب الحكومة قريب وسيفها اقرب. من كان مع الحكومة سلم . ومن لم يكن معها فحياته وممالته بأيدينا)(٢) . وقال وهو يستعرض وضع موران مشيراً الى ان بعض المعارضين خافوا(هذه موران لاتفهم إلا بالعصا ولا تتعلم إلاّ بالعين الحمراء . وبالدم . والذي يحب يجرب خليه يطلع قرعته)(٣) وقال (يجب ان يعيش الناس في خوف ليظلوا مشغولين بالمحافظة على المال والنفس ولابد من السلاح)(٤) وقال لشقيقه راكان(أهل موران لايفهمون إلابالعصا. اضرب الخشم تدمع العين)(٥) (ويجب ان يخاف

١- بادية الظلمات ٣٢٠
٢- السابق ٤٣٠
٣- السابق ٤٤١
٤- السابق ٣٤٤
٥- السابق ٣٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اهل موران) (١) واوصاه بقوله "اهل موران ألسنتهم طالت واخبارهم تصلني ، عليك ان تشد عليهم . عليهم ان يناموا وفي رؤوسهم الف هم . خليهم يتشغلون برزقتهم. اجعل الرغيف مثل لهاية الرعيان يرى ولا يلحق حتى يروا كل شئ عطية من السماء . ليس لهم الا العصا والرغيف)(٢) . اما راكان نفسه فكان منهجه ان(اعتقلوا واقتلوا ثم حققوا)(٣) وعندما انتهت حرب الدواحس قال راكان : (نريد ان نجز كم راس مثل ما جزينا في السابق لتهدأ الامور) فرد عليه السلطان بوحي من واقع الحياة البدوية وكتاب الاميـــــر ،(ضربه على الحافر وضربة على المسمار) اذ قال صاحب الامير(تتخذ القوة مرة واحدة .وهذا يخلصنا من كلام الناس والعداوات)(٤) وقال السلطان لوزير دفاعه الامير مساعد اثناء حرب الدواحس (اضرب بقسوة وتركيز وتعاقد مع طيارين واسلحه جديده وانا موافق)(٥). والسلطان في اجراءاته هذه يسير على هدى استاذه هاملتون اذ يقول (اذا خيرنا الناس ان تجمع بين ان يحبونا او يهابونا . لاتجمع الاثنين, ونختار ان يهابون ويخافون منا)(٦) . هذا هو منهج هذا الجيل من الحكام في تلك الفترة من الزمن , لم يتوقف عند الفكرة بل تعداها الى التطبيق اذ اعدم عدد من الفقراء وهم يستقبلون عيدهم دون ذنب غير ان الحظ وقع عليهم عندما عجز الامير عن العثور على اشخاص مناسبين من اهل الدواحس. اذ قال له السلطان : (يمكن الاستعاضة عن الموصوفين ويؤخذ بدلا منهم من سجن العوالي)(٧) . اما السلاح الثاني فهو سلاح الاعلام , وكان يونس شاهين هوالمسؤول عن الفكر الذي يسود السلطنه وهو نفسه الذي كان مسؤولا ايام حكم السلطان خريبط وقد اشار السلطان في قول له يخاطب به يونس الى اسلحة ثلاثه هي : المال والقود والاعلام (ان الحق حتى يصير حقا يحتاج الى سيف قوي ورجل سخي ولسان ليس عيبا) . واعتمد هذا الجيل على منهج يقلب الحقائق ويوهم المواطن بتقدم البلاد وان الناس يعيشون في بحبوحة من العيش , وركز الاعلام على فضائل العرب وماضيهم . تغنوا بامجادهم وبمآثر جيل لم يحذو حذوه . وتغنوا بالبداوة مادة الحضارة , وجندوا مجموعات من اختصاصيي الانساب العشائرية وحفظة اشعار البادية(٨)، ونسوا كما يرى هاملتون. ان البـــــداوة مـــــرحـــلـــة حـــضـــاريـــة مـضـــــت ، واذا أرادت

١- بادية الظلمات ، ٣٩
٢-السابق٤٨٣
٣- السابق ، ٥٧
٤- السابق ٥٧١
٥- السابق ٤٨٢
٦- السابق ٤٦٥
٧- السابق ٤٠٩
٨- السابق ٤١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موران أنْ تكون شيئاً في عالم اليوم فعليها أنْ تغادر بداوتها (١) أراد السلطان من الإعلام أنْ يزرع قناعات لدى ذلك الجيل انه محسود ومطموع فيه وانّ وضع الناس أفضل من غيرهم (٢) وان يعتمد سياسة الترغيب والترهيب (الناس هنا مثل العجينة . لازم نخوّفهم ونشّيمهم)(٣)،وأدرك يونس ان المهمة صعبة في ظل اهتزازالقيم التي خلّفتها النقلة الجديدة. وأحسّ أنّ جيلاً جديداً ينمو يحمل افكاراً واخلاقاً جديدة لايابه لسنّ و لا لدم ولا لأصل ولا لأي شئ مقدس . فقرّر مواجهة هذه الموجة المجنونة قبل أنْ تمتدّ (٤)،أمّا مرجعية هذا الجيل القبلية فبدت في فهمه ان وراثة الحكم تعني حكم الفرد وانه يمثّل الوطن ويملكه . وان ما تتمتّع به الرعية هو فضل ومنّة وعطية من سيّدٍ لمحكوم . مما يؤكد قول بعض الأجانب (ان الشرق القبلي يتمثل برموز محددة . اذا سقطت سقط معها . فاذا سقط السلطان مثلاً فان البنيان كله يتهاوى . ويسقط بعد ان كان قويا)(٥) قال السلطان لعدد من اخوته (الناس تغيرت ويطمعون بنا مع ان افضالنا عليهم كثيرة. اعطيناهم ورفعناهم حتى اولاد عبيدنا. اباؤنا خدموهم وصاروا احتياط بالجيش واعطيناهم فلوس. ومع ذلك اربعة منهم مع جماعة المؤامرة)(٦) وخلال اجتماع مجلس الحل والربط المكون من اخوته قال السلطان فتر ما يشير الى جو العشيرة . والتفافها حول شيخها وايمانه بالمحافظة على إرث تحدّر إليه من أجيال قبله (نحن أبناء خريبط. نشامى. ندافع عن ملك آباننا وأجدادنا ولا نخاف والناس معنا اذا كنا يدا واحدة ولابد من الشورى)(٧) في هذه الجلسة وزّع ثلاث حقائب وزارية على اخوته الأمراء في جو يشبه جو توزيع الأعطيات. ولم تختلف رؤية راكان عن رؤية السلطان اذ قال (كانوا يرعون الابل ويسافرون من اجل الخير وقلنا لهم لازم ترتاحون وأعطيناهم الرزق ومع ذلك رفعوا خشومهم حتى ابن عتيان صار يحكي علينا)(٨)

١- بادية الظلمات ٣٢٩
٢- السابق ٣٤٦
٣- السابق ٣٢٩
٤- السابق ٣٤٧
٥- السابق ٢٦٧
٦- السابق ٣٤٤
٧- السابق ٣٨٨
٨- السابق ٣٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اما الدور الاجنبي في عهد السلطان فنر فقد تمثل في فكر هاملتون الكامن في فكر فنر منذ ايام والده . وفي غزوان الذي واصل مشوار جيل سبق.فاختار ان يكون مستشارا كما كان والده ولكن بنسق مختلف, اذ ركز الحكيم على قضايا داخلية في الوقت الذي ركز فيه ابنه على قضايا اوسع . وغزوان وحوله لفيف من كبار التجار الاجانب ارتبط بمراكز صنع القرار في الخارج , جاء وفي ذهنه ان الاقتصاد هو اب السياسة الحقيقي. يوجهها ويعطيها ملامحها ويخلق رجالها . وانه ينبغي التحكم في صنع القرار عن بعد . فازدياد اهمية السلطنه يعني انتقال صناعة القرار من الداخل الى الخارج . واتضح لدى هذا الجيل دور الاقتصاد في السياسة . ذلك ان السياسة ليست الامورالصغيرة بقدر ما هي في الاتصال بمراكز القوى الخارجية القادرة على صنع القرار (١).

عكف الفريق المكون من روبرت يونغ وليفي شاوات واليانور زوج عزوان فيما بعد بالتعاون مع السلطان والامير راكان والامير مساعد على انشاء شركات وابرام صفقات تجارية وعقود . لم يكن هدفها مصلحة البلاد في ظل جهل ذلك الجيل من الحكام ، بقدر ما تهدف الى تحقيق اهداف خاصة و استعمارية و تعدتها الى تدمير انجازات الجيل ، فعطاء بناء مدينة جديدة يقابله عطاء التسليح , اذ وضع المدفع مقابل المدينة ، والدمار مقابل البناء , وعطاء شراء الخيول في ظل تعالي صيحات الجائعين والفقراء في موران الفقر . وكان يونغ بطل المدينة الجديدة وليفي شاوات النجم الفعلي لمفاوضات السلاح. ولم ينسى اولئك ان انشاء مدينة يعني بداية الحضارة ووضع نواة اساسية للحياة لأجيال قادمة . واستغرب بعضهم فهم ذلك الجيل للمدينة , اذ يمكن تشييد مركب جماعي اما قيام مدينة صناعية بالمعدات والتجهيزات فشئ غير معهود(٢) , ولا يشير الا الى جهل مطبق كان يغط به ذلك الجيل في تلك الحقبة مثلما يفضح الاهداف الاستعمارية وراءه . واستغل غزوان جهل السلطان وتخلف جيل مازال غارقا في بداوته على الرغم مما لديهم من مال . جيل يظن انه بامتلاكه المال على هذا النحو يجعله في مصاف الدول القوية (او لهم واخرتهم بدو. السفلوس اعمتهم. يحسب ما عند من السفلوس , ويقارن نفسه برئيس امريكا ويظن انه اقوى منه) (٣) وادرك غزوان ان

١- بداية الظلمات ، ٥٦

٢- السابق ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٢١، ٢٥٥، ٤٤٩

٣- السابق ٥٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

The Family Saga in the Modern Arabic Literature

By

Suheir Mahmoud Suleiman Ubeidat

Supervised by

Prof. Dr. Ibrahim Al-Sa'feen

This study, the family saga in arabic Literature, consists of an introduction, four chapters and a conclusion. The introduction explains the term, "family saga", and discusses its origins and its characteristics through some of its major examples in foreign literature. The first chapter, "generations in Nagib Mahfouz's trilogy", analyzes the three generations of Si Ahma'ds egyptian family as representative of egyptian society and of its intricate web of personal and social relationships over the period of fifty years. The second chapter, "generations in the outlaws", traces the fates of three generations of an Aleppan in Syria in the first half of this century. The third chapter which deals with the generations in Cities of Salt. Abdul-Rahman Munif's pentalogy of novels, presents the history of two generations of the ruling family in the Arabian peninsula. This history casts light on such issues as the state structure, the ruling ideology, colonialism, development, tradition, as well as the growth of the oil cities of the region.

The last chapter is a discussion of the common literary features of the family saga, based on the Arab models presented in the earlier chapters. It deals principally with the representation of time in these novels and with the various aspects of the realism of the family saga. It also elucidates the integration of events and people in these works and uncovers the role of each of these literary features in the building of character in fiction.

٤٤٥٣٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit